الدكتور المهندس خالد فائق العبيدي

القوانين القرآنية للحضارات

دراسة قرآنية لأحداث التاريخ

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٥ م - ١٤٢٦ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4589-4
9 782745 145895 90000

http://www.al-ilmiyah.com/
email: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع

إلى روح من أرسله الله رحمةً للعالمين، إلى خير معلم وأشرف رسول، إلى روح سيد الأولين والآخرين رسول الله المصطفى سيدنا **محمد** ﷺ. وإلى أرواح إخوانه من الرسل والأنبياء أجمعين والى أرواح آله الطيبين الطاهرين وصحابته المجاهدين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وإلى أرواح شهداء الأمة على مر العصور الذين رووا بدمائهم الزكية الأرض لتكون كلمة الله هي العليا ،
وإلى أمتي ووطني وأهلي.

إلى من هي نفحة من رحمة الله تعالى التي حملتني من وهن وأعانتني من ضعف، وإلى الوالد الذي كان لي السند في كل الشدائد، عسى الله أن يجعل هذا العمل صدقة جارية لهما وأن يغفر لي تقصيري في حقهما ، وإلى كنز الحياة الدنيا الزوجة العزيزة التي كانت لي نعم العون بعد طول عناء، وإلى أولادي الأحباء عسى الله أن يجعلهم من أهل الصلاح والخير.

راجياً من الله أن يتقبله عنده وأن يجعله كله خيراً ويكون ذا فائدة جمّة للناس أجمعين...

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد النبي الأمين وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

لا يخفى عليكم أخوتي وأخواتي القراء الكرام أن ما تمر به أمتنا من محن وابتلاءات ونكسات ليذهب بالألباب ويجعل أكثر الناس تفاؤلاً محبطاً متشائماً متألماً لما آل إليه حال المسلمين بعد احتلال العراق وأفغانستان والتهديد باحتلال دول أخرى، وحالة التشرذم والفرقة التي نمر بها.

ولكن رغم كل هذه المرارات والهزائم التي شهدتها الأمة في الفترة الأخيرة، نجد أن التاريخ يثبت لنا أن هذه الأمة كلما بدأت بالنهوض بعد كبوات تمر بها، كانت بداية النهوض زوابع مهولة تمر بها الأمة من الداخل والخارج.. فهل يا ترى ستكون هذه الزوابع التي نمر بها بداية رجوع الأمة إلى عزها؟.

نحن معشر المسلمين لا نعرف اليأس والإحباط لأن ذلك ببساطة ليس في قاموسنا، فنحن نعلم أن الأقدار قد قدرت قبل خلقنا من قبل الله تعالى، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾، (الحديد)..

البارئ والخالق من أسماء الله الحسنى، والخالق لغة هو المقدّر الموجد المبدع، والله جل وعلا قدّر الأشياء تقديراً دقيقاً محكماً وفق علمه المحيط وإرادته النافذة، وقدرته التامة، وأوجدها من العدم إيجاداً بديعاً على غير سابق مثال.. والبارئ هو المصلح الذي يعطي كل شيء ما يناسبه من الخلق والتكوين والتسوية وفق علمه وإرادته وقدرته، والبرء لغة هو معناه القطع والفصل والإصلاح، ويقول علماء اللغة (برأت العود وبروته) إذا وقطعته ونحته وبريت القلم إذا أصلحته وأعددته للكتابة، وبرئت من المرض إذا تماثلت للشفاء وسلمت من الآفات

وأصبحت سوياً معافى.. فالخلق إذن هو التقدير والإيجاد والإبداع، والبرء هو الإصلاح والتسوية والتعديل وهو من الإبداع الذي يوجد الشيء من العدم على غير مثال سابق[(١)].

ولأن خالق الشيء يخلقه أو يكونه من عدم أو من شيء آخر، وبارئ الشيء ترتيبه وتسويته وتعديله وإصلاحه أو شفاؤه كما في حالة المرض، فقد تعطى هذه الصفات لإنسان معين بإذن الله تعالى كما في قوله تعالى في وصف ما أعطي سيدنا عيسى من معجزات في الخلق والبرء ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾، (المائدة: ١١٠). وكما في قوله تعالى ﴿..فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾، (المؤمنون: من الآية ١٤).. ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾، (الصافات: ١٢٥)..

والمعنى في قوله تعالى من (قبل أن نبرأها)، أي من قبل أن نسويها أو نبدعها، وقد يكون المعنى من قبل أن نوجدها من عدم، والضمير يعود على الأرض من نفس الآية، والله أعلم.. وعليه يكون المعنى هو عندما كان كل شيء في هذا الكون من مخلوقات في حالة العدم في عالم الذر وعالم الأرواح، وقبل أن تخلق الأشياء لتكون الكون والأرض والبشر في عالم الوجود، فإن الله تعالى يعلم بعلمه السابق للأشياء ما سيكون من كل المصائب التي تصيب كل فرد من خلقه منذ بداية الخلق وحتى آخر إنسان يتبقى قبيل الساعة فضلاً عن المصائب والكوارث في الطبيعة والأرض والبحر والأفلاك، فكل شيء عنده مقنن بمقدار محسوب.

ثم إنه تعالى قائم على أمور الكون في كل ثانية، فهو قيوم السماوات والأرض الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وقد تعهد بحفظ هذه الأمة وهذا الدين، وهو لا يخلف الميعاد، فكل ما جرى ويجري من أحداث بعلمه المسبق وقيوميته الحاضرة، وهو سبحانه لن يترك هذه الأمة ولن يخذلها.. وأن المصائب قد جعلها الله تعالى للاختبار والابتلاء والتمحيص، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾، (الأنبياء:

---

(١) أسماء الله الحسنى أسرارها وصفاتها، الدكتور محمد بكر إسماعيل، ص ٥٥-٥٦.

٣٥)..﴿.. وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾، (الفرقان: من الآية ٢٠).

ويقول الله عز وجل في الحديث القدسي فيما يروي رسول الله ﷺ عن ربه جل وعلا: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:(**إنَّ أوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ قَالَ له: اكتُبْ، قال: مَا أكْتُبْ؟ قَالَ: اكتُب القَدَرَ، مَا كان، وما هو كائنٌ إلى الأبد**). رواه الترمذي وقَالَ الألباني: صحيح (صحيح الجامع:٢٠١٧).

وشرح الحديث كما بينه الإمَامُ ابن كثير في البداية والنهاية :(الذي عليه الجمهور أن العرش مخلوقٌ قبل ذلك وهذا هو الذي رواه مسلم في صحيحه حيث قال: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء"... فقالوا فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير، وقد دَلَّ هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجماهير. ويُحْمَل حديث القلم على أنه أوَّل المخلوقات من هذا العالم.. وقَالَ الإمَامُ القرطبي في الجامع لأحكام القرآن :(قَالَ ابن عباس رضي الله عنه: هذا قَسَمٌ بالقلم الذي خلقه الله؛ فأمره فجرى بكتابة جميع مَا هو كائن إلى يوم القيامة، قال: وهو قلمٌ من نور، طوله كما بين السَّمَاء والأرض، ويُقَال. خلق الله القلم ثم نظر إليه فانشق نصفين، فقال: أجرِ، فقال: يا رب بِمَ أجري؟ قال : بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة؛ فجرى على اللوح المحفوظ).. وقَالَ الإمَامُ القرطبي :(وقَالَ غيره: فخلق الله القلم الأوَّل فكتب مَا يكون في الذكر ووضعه عنده فوق عرشه، ثم خلق القلم الثاني ليكتب به في الأرض)..

وهكذا أخي الكريم نحن أمة الإسلام لا نعرف اليأس لأننا نعرف أن الله تعالى خالقنا وهو سبحانه وتعالى الذي ارتضى لهذا الدين أن يكون الدين الخاتم والقانون التام الذي يحكم به البشر، وقد تعهد بحفظه وإيصاله إلى كل الأمصار والديار في كل الأرض وعلى مدى الزمان حتى يرث الأرض ومن عليها.

لذلك فإن هذه الأمة كلما مرت بها الزوابع على اختلاف أنواعها وصورها لتسقطها، تجدها تنهض لتواصل العمل الجاد والمثابرة الموشحة بالنَّفَس الطويل، ولتكمل المشوار الذي وكّل بها بحمل أمانة الدعوة والتبليغ حتى وإن اختلفت التقنيات والأساليب. والذي حصل مؤخراً من زوابع عاتية هزت الأمة وكيانها لهو المؤشر الأكيد لبداية نهضة الأمة على طريق عزها من جديد، هذا الطريق هو طريق الإسلام الذي كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وهو في طريقه لتسلم مفاتيح بيت المقدس، ما إن ابتغينا غيره إلا وأذلنا الله

تعالى، وهو ما حصل لنا تماماً طيلة العقود العشرة المنصرمة.

هذا الكتاب الذي بين يديك يوضح لك الخطوات لذلك الصعود الجديد، إن كان على أعين البعض غشاوة أو في قلوبهم مثقال ذرة من شك، كما ويبيّن كيف يرسم القرآن الكريم والسنة المطهرة الأسلوب العام لصعود الحضارات وزوالها، وما هي الاستثناءات الخاصة بالأمة الإسلامية، وأسباب كل ذلك، عسى أن نتعظ ونأخذ الدروس والعبر من أحداث التاريخ والأمم كما يقول الشاعر:

خـــذ من التـــاريخ عِبرة ولا تسكب على التاريخ عَبرة

ولكن قبل أن نوضح الصورة لكل من تشوش عليه البصر واختلت عنده الصور، علينا أن نذكر بأن المسلم تتأتى خبرته وحكمه على الأمور من القرآن الكريم قبل تجربته الشخصية بل وقبل تجارب الأمم والشعوب، فمعلوم أن الرائي من خلال ثقب صغير لا يرى إلا من خلاله فيكون حكمه على ما يرى، وإذا أصبح الثقب نافذة أصبحت زاوية النظر أكبر فكانت الرؤيا أوضح والحكم على الحقيقة أكثر موضوعية، وهكذا كل ما زادت زاوية النظر زادت دقة الحكم على النتيجة حتى إذا ما كانت الزاوية أكبر ما يكون فستكون نتيجة النظر والحكم الأكثر دقة. ومن هذا المفهوم فإن القرآن الكريم يعطيك زاوية النظر الكاملة للحقائق.

فمن المثل والسرد والقانون القرآني نأخذ الحكم الدقيق والخبرة في الحكم على الأحداث بما يغنينا عن نظرتنا المجردة ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾، (آل عمران:١٣٧)، وعندها سنعرف القوانين القرآنية التي أثبت التاريخ صحتها على مر العصور والدهور كي نفهم أين نحن وإلى أين نسير وكيف الحل والأخذ بالأسباب للنهوض.. ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾، (الزمر: ٢٧).

وأخيراً أتوجه بشكري الخالص للأخوة في دار الكتب العلمية ببيروت الذين لم يألوا جهداً في طبع الكتاب وإخراجه بأفضل صورة فجزاهم الله ألف خير.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وتمام الصلاة وأكمل التسليم على من بعث رحمة وإنقاذاً لهذه الأمة وآله صفوة الخلق الطيبين الطاهرين وصحبه الغر المحجلين ومن تبعهم إلى يوم نلقاه أجمعين.

الساعي لرحمة ربه

مؤلف الكتاب

١٥ – شعبان– ١٤٢٤هـ

١١/ تشرين أول/ ٢٠٠٣م

الباب الأول

تمهيد

الفصل الأول

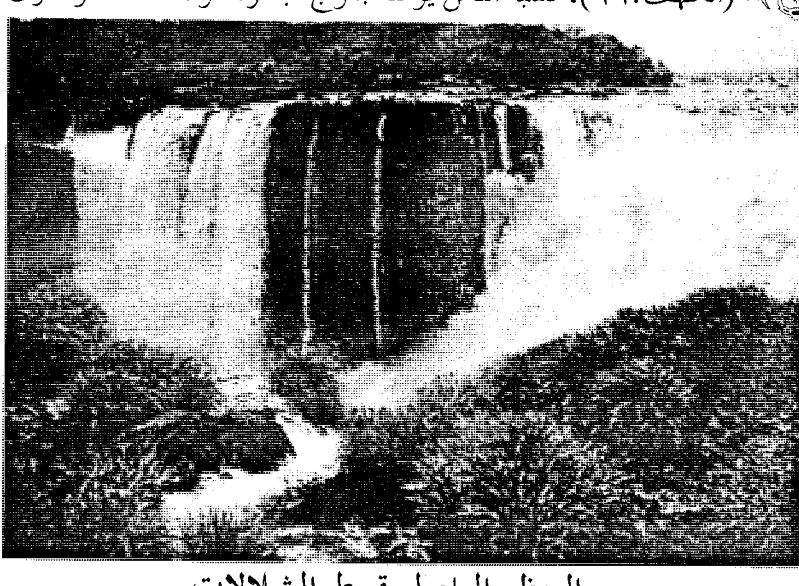
المثل القرآني

المتدبر في الأسلوب القرآني في ضرب المثل يجد أن الله تبارك وتعالى يضرب المثل العلمي فيما حولنا من سماء وماء ومواد وأحياء كمرآة عاكسة لحالة اجتماعية تتعلق بالبشر ليعطي القانون العام الذي يحكم حالتي المضروب والمضروب به. وفي هذا أمثلة كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾، (البقرة:٢٧٥).. ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾، (آل عمران:١١٧).. ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾، (الأعراف:١٧٦).. ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾، (يونس:٢٤).. ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾، (إبراهيم:١٨).. ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾، (الكهف:٤٥)..

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤١)..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾، (الحج: ٧٣)..

من نظرة سريعة للتاريخ تجد أن هناك حضارات تبرز وحضارات تضمحل وأخرى تزول، ثم ما تلبث أن تعاد دورة أخرى لأمة أخرى وهكذا وكأن هناك قانوناً لدورة الحضارة في التاريخ يشبه دورة المياه في الطبيعة. فنظرة إلى شلال المياه سواء كان طبيعياً أو صناعياً من صنع الإنسان تجد مياهاً تسقط بقوة من أعلى إلى أسفل وفي منطقة التقاءها بالبحيرة التي تصب فيها ترى اضطرابات مرعبة من المياه يتملكك الهلع من مجرد النظر إليها لشدة قوتها، ثم تبدأ المياه تدريجياً بالهدوء حتى تصبح رقراقة خلابة تعكس ضوء الشمس يشعر الناظر إليها بالغبطة والمسرة، لتبدأ بعدها رحلة جديدة تصب في الأنهار فالبحار لتتبخر بعدها ثم تنزل مطراً لتصب في الجداول الذي يؤدي إلى الشلال نفسه وهكذا. من هذا المنطلق يمكننا فهم لماذا عبر جل وعلا عن وضع الناس قرب يوم القيامة بقوله سبحانه: ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴾، (الكهف: ٩٩)، فشبه الناس يومئذ بموج البحر، موجة تصعد وأخرى تهبط.



المنظر العام لسقوط الشلالات

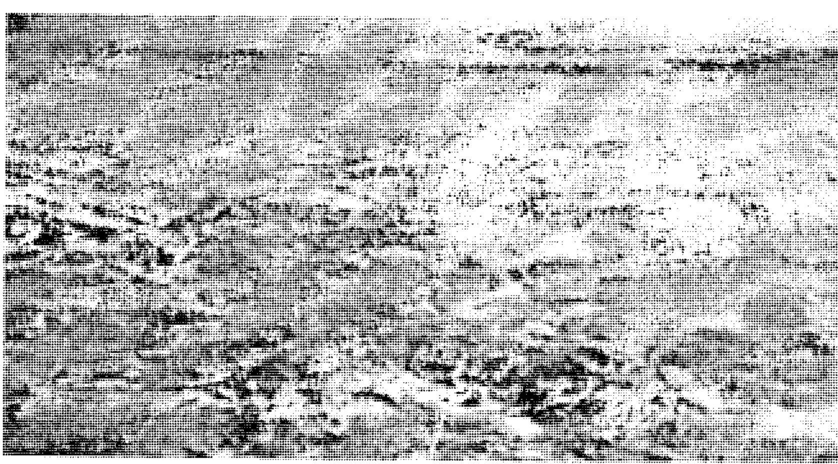
بإمكاننا أن نستخدم طابع التوحيد في الخلق، فالظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تشبه إلى حد كبير الظواهر الطبيعية التي جعلها الله تعالى عبرة لكل ذي عقل سليم. فلو مثلنا المشهد أو المنظر الأول لنزول الشلال هذا بنزول الأقدار والمحن والابتلاءات، ثم مثلنا المشهد أو المنظر الثاني لاضطرابات المياه بين دقائقها عند ارتطامها بالبركة تحت الشلال بصراع الأمم والحضارات والدول، فدولة أو أمة تصعد وأخرى تنزل كما أن الأمواج تصعد وتنزل، ومن ثم يؤول الأمر إلى دولة وحضارة لتسود إلى ما قدر الله من زمن وهذه بالضبط هي تلك الدقائق المكونة للمسيرة الرقراقة في نهاية مطاف الجدول في المشهد أو المنظر الثالث في المثال آنف الذكر، لعلمنا أن زاوية نظرنا للأحداث يجب أن تتسع لتتعدى مجرد النظر لما هو حاصل اليوم إلى ما هو أوسع من ذلك وأشمل.. هذا ما نجده في القوانين الشاملة والخالدة التي أبرزها القرآن الكريم، فلله الأمر من قبل ومن بعد والله غالب على أمره ولكن أكثرهم لا يعلمون.



المشهد أو المنظر الأول: تدفق ونزول المياه من أعلى إلى أسفل



المشهد أو المنظر الثاني: تلاطم أمواج المياه عند الالتقاء بالبركة



المشهد أو المنظر الثالث: استقرار الماء وانسيابيته

الفصل الثاني

الحضارة[1]

الحضارة عموماً:

إن الكلام عن الحضارة يتشعب في كتب التاريخ والفلسفة والآداب والسياسة والجغرافية والعلوم، إذ أحصى عالمي الأنثروبولوجي (علم الإنسان) ألفريد كوبر وكلايد كلوكوهون عام ١٩٥٢م ما يزيد عن ١٦٤ تعريفاً للحضارة في اللغات. وقد اختلف الباحثون تبعاً لمدارسهم الاجتماعية والتاريخية في تحديد معنى الحضارة (Civilization)، والمدنية (Citizen)، والثقافة (Culture)، فهم قد يجمعون بينها وقد يفرقون. بعضهم يعطيها معنى شمولياً كلياً يشمل نشاطات الإنسان كافة، وبعضهم يحصر المضمون الحضاري بمعنى الثقافة، ويستعمل المدنية بمعنى الحضارة التي تمثل الجانب المادي وحده، أي أنهم يذهبون إلى أن الحضارة مرادفة للمدنية، والثقافة تمثل الجانب الفكري والنشاط الإنساني والذوق الفني. والحضارة كل عام يشمل محصلة النشاط الإنساني، ومظاهرها تشمل النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني والفكري والعلمي والسياسي والفني والأدبي وغير ذلك.

كلمة الحضارة نقلت إلى العربية من اللغات الأوربية فانتقل المفهوم الغربي إلى لفظ الحضارة العربي وأيضاً إلى لفظي المدنية والثقافة عبر ترجمة لفظ (Civilization) والتي تعود إلى اللفظ اللاتيني (Civits)، وأيضاً عبر ترجمة لفظ (Culture) والتي تعود إلى الجذر اللاتيني (Cultura). هذين المفهومين تطورا عبر العصور بدءاً من العصر اليوناني والروماني وانتهاءً بالعصور اللاحقة الوسطى والمتأخرة، وقد انتقلا في اللغات الأوربية الإنكليزية والألمانية والفرنسية وغيرها، فمثلا في الإنكليزية وحسب معجم أوكسفورد يعود أول استعمال لهذه الكلمة إلى سنة ١٨٠٥م. ثم انتقلت إلى العربية عبر التراجم العربية للكتب الأجنبية في عهد محمد علي باشا أوائل القرن التاسع عشر الميلادي وتأثر الكتّاب اللاحقين بهذه الكلمة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن

---

(١) بإمكان القارئ الكريم الرجوع إلى كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، ففيه تفاصيل مهمة في موضوع الحضارة وتعريفها.

العشرين. أن المفهوم الغربي خرج من كلمتين تدل إحداهما في أصل معناها على الفلاحة (غرس ثم إنماء ثم حصاد)، وتدل الأخرى على النسبة إلى المدينة، بينما خرج المصطلح العربي (حضارة) من منطلق أن الحضر هم خلاف البدو فكلمة الحضارة تدل على الاستقرار الذي تنشأ عنه المدينة، الأمر الذي لا تحققه البداوة [١]..

يعرف ول ديوارنت الحضارة أنها نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وهي تتألف من أربعة عناصر: الموارد الاقتصادية، النظم السياسية، التقاليد الخلقية، متابعة العلوم والفنون. كما وأن لها عوامل عدة منها العوامل الجيولوجية والجغرافية والاقتصادية والثقافية[٢].

إنَّ الحضارة مفهوم يبحث في النشاط الإنساني وإنجازاته في فترة زمنية بما يحقق ذاته وسعادته ويكيفه مع بيئته ويميزه من غيره، باعتباره مخلوقاً اجتماعياً مختلفاً عن الحيوان، وعليه فإن عناصر هذا المفهوم هي الإنسان – البيئة – الزمن.. محصلة الحضارة البشرية هو المزج بين مصطلحات الحضارة والمدنية والثقافة مع إضافة مصطلح المعرفة الإنسانية (Knowledge) لتلك النشاطات كلها، ولعل مصطلح العمران قد يكون بديلاً يعطي المعنى الصحيح للمفهوم الغربي لهذه الكلمة بدلاً من كلمة الحضارة [٣].

وقد مرت بالبشرية حضارات عظيمة التأثير وأخرى أقل تأثيراً، وكل واحدة لها مميزاتها وسماتها. ولعل أبرز حضارة تعدى تأثيرها الزمني في حقب حكمها ومجدها إلى وقتنا الراهن تبرز الحضارة الإسلامية كعلامة فارقة في تاريخ البشرية.

الحضارات الواردة في القرآن الكريم

وقد ذكر القرآن الكريم قصص بعض الحضارات، فيما أشار إلى بعض آخر، بينما أشار بالعموم حالات وأحوال لحضارات أخرى.. من بين تلك الحضارات التي فصّل فيها

(١) انظر كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، ص (٥٠-٥١).. وانظر وبحث الحضارة للأستاذ خالد أبو الفتوح، مجلة البيان، العدد ١٤٦، شوال ١٤٢٠هـ-يناير/فبراير ٢٠٠٠م، ص١٢٨-١٣٧.

(٢) انظر قصة الحضارة لـ وول ديورانت، ج١، ص ٣، ط ٣، الصادرة عن الإدارة الثقافية للجامعة العربية.

(٣) عن بحث سبيل إخراج الأمة للدكتور محسن عبد الحميد المنشور ضمن كتاب الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد، ص (٤٦٩-٤٧٠) نقلاً عن كتب (قصة الحضارة) لـ ول ديورانت و(روح الحضارة الإسلامية ومميزاتها) للدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، وكتاب (التغيير الحضاري وتنمية المجتمع) للدكتور محي الدين صابر... وبحث الأستاذ خالد أبو الفتوح، بعنوان الحضارة، مجلة البيان، العدد ١٤٦، شوال ١٤٢٠هـ-يناير/فبراير ٢٠٠٠م، ص١٢٨-١٣٧.

الكتاب العزيز كقصص ملوكها مع الأنبياء الذين أرسلوا إليها، الحضارة الفرعونية في قصة سيدنا يوسف وسيدنا موسى وأخاه هارون عليهم السلام أجمعين. وأيضاً الحضارة العراقية القديمة كالآشورية في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وكذلك حضارات الشام والجزيرة واليمن والحبشة في قصص عاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع وأصحاب الفيل. كما أشار إلى حضارة الرومان وأفرد لهم سورة باسم سورة الروم والتي بدأت بذكر معركة فاصلة حصلت بين الروم والفرس انتصر فيها الفرس، ولكن السورة ذكرت أن الروم سيعاودون الكرة وينتصرون في مدة لا تتجاوز بضع سنين، وقد حصل ذلك فعلاً بعد عدة سنوات من تاريخ نزول السورة. كما فصّل الكتاب العزيز في ذكر بني إسرائيل وأنبيائهم، وذكر أيضاً قصص لأصحاب الكهف الذين هم من نصارى الشام عاشوا في زمن الاحتلال الروماني لها، وكذلك ذكر قصة العبد الصالح ذي القرنين الذي اختلف في كونه ملك إغريقي أو فارسي وقيل أيضاً أنه من ملوك اليمن، والذي جاب البلاد حتى وصل أقصى المشرق وأقصى المغرب وقصته مع يأجوج ومأجوج وما قيل عنهم من انهم المغول والتتار الذين يقطنون أقصى الشرق من آسيا[1].. بمعنى أدق أن القرآن الكريم قد غطى جميع حضارات العالم القديم دون استثناء.

المفردة الحضارية والعمرانية في القرآن الكريم

ذكرنا في كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم) تفاصيل عن البعد المكاني في القرآن الكريم، وفيه تفاصيل مهمة عن الحضر والريف والبداوة في مصطلح القرآن والحديث، نجد من المهم ذكر بعض منها هنا.

لقد أعطى القرآن الكريم أهمية كبيرة للمكان باعتباره أحد المحاور الأساسية في حياة البشر. ودين الإسلام في جوهره دين مدني يرتبط ارتباطا وثيق العرى بالمدينة والتحضر والعمران، ومقوماتها وعوامل تطورها الاجتماعية والاقتصادية، إذ ورد أن الأسماء التي علمها الله لآدم حين خلقه قد حوت العديد من المفاهيم والمصطلحات التي تعذّر على الملائكة ـــ وهم من صفوة الخلق ـــ إدراكها، كما وردت على لسان الأنبياء والرسل وفي كتبهم وصحفهم ومنذ الدعوات الأولى لهم اصطلاحات المدنية والتحضر والتي

---

(١) راجع تفصيل الموضوع في كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، الباب الثالث/ الفصل الثالث/ موضوع الحديد.

يوردها القرآن الكريم، إذ ورد فيه مصطلح البنى والبناء (٢٣) مرة، وعمَّر (١٩) مرة، ولفظة دار (٤٨) مرة، ومسكن (٤٣) مرة، وبيت (٧١) مرة. ولقد نشر الإسلام وهو دين الفطرة وعمَّقَ هذه المصطلحات ومنذ ولادته مما يثبت حضريَّته لان هذه المفاهيم لا تنبثق إلا من فكر عمراني زاهر وفي ظل حضارة ذات جذور عميقة.. ويُبرز القرآن الكريم في (٣٩) موضعا لفظة سلطان، وفي (٨٦) موضعا لفظة حكم، وفي (١١٣) موضعا لفظة ملك، وفي موضعين لفظة وزير.. أما اصطلاح الأمن فقد ورد (٤٩) مرة في القرآن الكريم. ومن كل ما تقدم يتضح لنا أن هناك اهتماما كبيرا في آيات القرآن لمعطيات الحياة المدنية من علاقات ومبادئ ونظم وذلك من خلال ذكره لمواضع القرى والبلدان وما آل إليه حالها. ويضيف الباحث أن القرآن الكريم وزع المكان إلى عدة أنواع فمنها التوزيع الجغرافي للمواقع وقد تحدث فيها عن عدة أقوام ومواقع مثل عاد وسبأ والطائف ومكة المكرمة والمدينة المنورة، وكذلك ثمود ومدين وأيلة وسدوم وبيت المقدس وأنطاكية، وأخيراً نينوى وبابل ومصر ومنف.. وكذلك تحدث عن أنماط التوزيع الجغرافي وأشكاله والعوامل المؤثرة في اختيار المواقع وتطورها كالمناخ والسطح والأساس الاقتصادي للمواقع وتطور وظائفها كما تطرق إلى الأهداف المنظورة بذكر القرى والبلدان في القرآن.. أما أهم المصطلحات التي درسها الباحث والتي تطرق لها القرآن الكريم فهي:

١ ــ **القرية:** لفظة يمانية جمعها قرى والنسبة إلى القرية قروي وتطلق على المسكن والبيت يأوي الكائن الحي، وفي الحديث الشريف أن نبياً من الأنبياء أمر بقرية النمل فأُحرقت، وفي الحديث أيضا " **أمرت بقرية تأكل القرى**" وهي مدينة الرسول ﷺ ومعنى أكلها القرى، ما يفتح على أيدي أهلها من المدن ويصيبون من غنائمها. وجاء في قاموس المنجد أن القرية هي الضيعة والقاري ساكن القرية، أما قاموس أكسفورد فيؤكد "القرية هي من يجهز المدينة بالزرع ومشتقات الحيوان"، بينما يبرز وبستر في قاموسه شكل وحجم القرية فيقول انها ذات بيئة ابسط وحجم اصغر من المدن، ويتطابق تعريف أكسفورد مع تعريف ابن خلدون في مقدمته التاريخية إذ يقول عن القرية "ويسكنها من كان معاشه في الزراعة والقيام بالفلح أو من كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر ويسمَّوْن شاويه ومعناه القائمون على الشاة والبقر وهم لا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة.. وللجغرافيين في دراساتهم تأكيد واضح على خصائصها وصفاتها المميزة ووظيفتها التي تعكس تباين أنماطها مع التأكيد على شكل ووظيفة ونشوء القرية.. هذا

وقد ورد ذكر القرية في القرآن الكريم ست وخمسين مرة.

٢ ـــ **الريف:** ويراد به الخصب والسعة في المأكل والمطعم، وأُريفَتْ الأرض أي أخصبت ورأفت الماشية الريف أي رعته. وجاء في قاموس وبستر ان الريف هو المنطقة الحيوية المتصفة ببساطة العمران والنشأة، وفي قاموس أكسفورد انه النطاق الذي يمارس البشر فيه الزراعة والرعي.. ولم ترد كلمة الريف في القرآن الكريم، إلا انها وردت في حديث للرسول ﷺ **"كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف"**، وأراد به أننا من أهل الضرع "البادية" لا من أهل الريف "المدن"، ومن هذا الحديث يتضح لنا وجود ترادف بين معنى القرية ومعنى الريف، وفي الدراسات الحديثة في حقل الجغرافية عن الريف هناك تأكيد على مظهره العام ومكوناته الأساسية الطبيعية والبشرية والعلاقات المكانية الناتجة عنها.

٣ ـــ **البادية:** بدا يبدو أي برز يبرز، ولكنه اسم لزم ذلك الموضع خاصة دون ما سواه والبادية اسم الأرض التي لا حضر فيها وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحارى قيل بدو والبادية خلاف الحاضرة التي يراد بها القوم الذين يحضرون المياه وينزلون عليها، وتبدى الرجل أي أقام بالبادية وتشبه بأهلها أي البداوة ويسكن البادية البدو وهم الخارجون من الحضر إلى المراعي والصحارى قيل بدَوا، أي تباعدوا عن اعداد المياه ذاهبين إلى النجع حيث مساقط الماء ومنابت الكلأ، وكل مُنتجعٍ مبدى وجمع المبدى مباد وهو البدو، وهؤلاء السكان في تنقل مستمر من موضع إلى آخر وقد يلبثون في مواطن ثابتة بعض السنة أو يشرعون في الاستقرار، فيقال لهم شبه رحل أو شبه بداة. ويعرفهم ابن خلدون "بأنهم المقتصرون على الضروري في أحوالهم لذا كان اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والدفيء بالمقدار الذي يحفظ الحياة.. والبدو في القرآن الكريم هم الأعراب، ذكرهم الله تبارك وتعالى في عشرة مواضع في كتابه العزيز، جميعها مدنية النزول، اثنتان منها لغرض المدح (سورة التوبة ٩٧، ١٢٠)، وثمانية لغرض الذم (التوبة ٩٠، ٩٨، ٩٩، ١٠١)، (الأحزاب ٢٠)، (الفتح ١١، ١٦) (الحجرات ١٤).

وجاء ذكر لفظة البدو في عدة أحاديث عن النبي ﷺ من أكثرها تواتراً **"لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية، ولا يبيع حاضر لباد"**.. وينظر الجغرافي إلى البدو على انهم جماعات اعتمدت تربية الماشية دعامة اقتصادية رئيسة لها، لذا تتسم حياتها بطابع الحركة التي تحكمها ظروف مناخية تتأثر بتوزيع الأمطار وتوقيتها.

٤ ـــ **البلد:** كل موضع مُستَحيز من الأرض عامر أو غير عامر، خال أو مسكون، والبلد

الأرض مطلقا ويقال البلد (الدار) يمانية أو المقبرة، ورد ذكره في القرآن الكريم تسع عشرة مرة.. والبلد من الأرض ما كان مأوى للحيوان وإن لم يكن فيه بناء، والجمع بلاد وبلدان، والبلد جنس المكان كالعراق والشام والبلدة الجزء المخصص منه كالبصرة ودمشق والبلد مكة تضخيما لها والبلد ما لم يحفر من الأرض ولم يوقد فيه وَبَلَدَ بالمكان أقام.

ولقد تباين معنى هذا المفهوم حديثا إذ تشير المصادر الحديثة، إن البلد نطاق من الأرض ضخم في مساحته وسكانه منفتح وغير مغلق، يحتوي على بنايات ضخمة ومنازل كبيرة ونشاط غير زراعي للبشر فيها وقد تستعمل بمعنى القطر أو الوطن الواحد.. ويطلق على البلد تسمية الحضرة والحاضرة وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار، ويذكر ابن خلدون "أن الحضر هم الحاضرون، أهل الأمصار والبلدان ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أنمى وأرقى مما دعاهم إلى السكون والدعة وتوسعة البيوت واختطاط المدن والحاضرة الحي العظيم والحاضر القوم ويقال للمقيم على الماء حاضر وجمعه حضور وهو ضد المسافر، وفلان حاضر بموضع كذا أي مقيم به، وكل من نزل على الماء ولم يتحول عنه شتاء ولا صيفا فهو حاضر سواء نزلوا في القرى أو الأرياف.

ويعدّ التعريف الحديث للحضر اكثر تخصيصا لحيز المكان وأدق تميزاً لنشاط السكان إذ تذكر بعض المصادر إن الحضر تجمع سكاني كبير لا أثر فيه للنشاط الزراعي، وهناك اختلاف في القواعد الخاصة في اعتبار سكان منطقة ما حضر ومن بلد لآخر، مما يؤدي إلى اعتبار صنف من الناس بينَ بينْ لأن عددهم قليل ومع ذلك فهم لا يمارسون نشاطاً زراعياً فيقال لهم شبه حضر.

٥ ــ **المدينة:** هي المصر (المصر: الحاجز والحد بين الأرضين) مفعلة من دان أي مَلَكَ أو هيَ مَدَنَ إذا أقام ولغة هي مكان الإقامة أو الاستقرار فمَدَنَ بالمكان أي أقام به، وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم سبع عشرة مرة قصد بأربع منها مدينة يثرب التي نُورت بمقدم الرسول ﷺ عليها بالإسلام. ويتفق الاصطلاحان المدينة والقرية على استقرار وثبات جماعة من السكان في حيز مكاني معين نقيض في نوع النشاط البشري.. والديان من أسماء الله ﷻ معناه الحَكَمُ القاضي والديان القهار والحاكم والسائس وهو فعال أي من دان الناس أي قهرهم على الطاعة فأطاعوا.. ويؤكد الجغرافيون في دراستهم للمدينة على نشأتها وتطورها وتركيبها الداخلي مع تأكيد على نمط التوزيع وعلاقاته

المكانية والخصائص الوظيفية والأشكال العمرانية والإنسان الذي أعدها[(١)].

هذا فضلاً عن مصطلحات أخرى مكملة تتعلق بالنشاط البشري بمختلف صيغه وتشكيلاته، ومن ذلك لفظ الملك والوزير ، وأدوات استخدام النشاطات كالسفن والدواب، والمعرفة والعلم بصيغه المختلفة والتي وردت عشرات المرات في الكتاب العزيز، وغير ذلك من تفاصيل عديدة لا مجال للاستطراد في ذكرها.

واللفظ القرآني لحضارة معينة بالتخصيص أو بالعموم أما أن يكون بلفظ (قرية- قرى)، أو (قرن-قرون)، أو أمة أو بلد أو مدينة أو طائفة وغير ذلك من المصطلحات القرآنية الكريمة التي فصلناها آنفاً.

ولقد أمرنا الله تعالى أن نتدبر ونتعظ من قصص الأمم السالفة كي نعرف كيف نبني الحضارة الحقيقية التي تعتمد عل جمال داخل وجوف الإنسان ليتحقق العدل والخير وكذلك جمال الخارج لتتحقق الروعة والتنسيق والتطور الذي يليق ببني البشر الذي كرمهم الله تعالى بقوله ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ﴿٧٠﴾ ﴾، (الإسراء: ٧٠).. هذا الأمر الإلهي لفهم مسيرة التاريخ تجده في قوله تعالى ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ،(الأنعام: ١١).. ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾، (النمل: ٦٩)... ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾، (الروم: ٤٢).

ولقد ثبّت القرآن الكريم قوانين عامة لحضارة البشر على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم وأفكارهم، وبمراجعة عامة للتاريخ البشري تجد أن هذه القوانين فعلاً كانت السمة البارزة لدورة حياة الحضارات البشرية. هذه القوانين سنستعرضها في الباب القادم.

الحضارة الإسلامية وبعض خصائصها:

الحضارة الإسلامية ينطبق عليها هذا المفهوم أو القانون الاجتماعي والحيوي، فهي لا تخرج عن الأنشطة الإنسانية وتفاعلها لأداء خلافة الله في الأرض من أجل تحويل الوحي

---

(١) راجع كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، ص(١٧٦-١٧٩)، بتصرف.. وانظر بحث المكان في القرآن، للدكتور وليد البدري، الأستاذ بالجامعة الإسلامية ببغداد/ قسم العقيدة.

الإلهي عقيدة وشريعة ونظام وأخلاق إلى تغيير وبناء وعمران في مجالات الحياة كافة، مستفيدة من حركة الأمم والشعوب الحضارية لخدمة بني البشر، مسلمين وغيرهم، من مبدأ أن الخالق هو رب العالمين وليس رب المسلمين حسب[1]، على أن الخلافة للبشر على الأرض تكون عبر شروط استحقوها دون بقية المخلوقات ألا وهي سمة العقل الذي يؤدي بالإنسان إلى الإيمان ومن ثم التقوى والصلاح لكل بني جنسه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾، (الحجرات:١٣).

يلخص علماؤنا الأفاضل المفهوم الصحيح للحضارة إسلامياً بما يأتي:

١- الحضارة بمفهومنا الإسلامي هو أن تكون الحاكمية في المجتمع لله سبحانه وتعالى رب العالمين إله واحد يتوحد إليه الجميع، ودينهم واحد يحكم الجميع هو الإسلام. وأما التقدم الصناعي أو العمراني فلا يسمى في الإسلام حضارة إلا إذا كان هدفه خدمة للإسلام والمسلمين وقوة لهم وتوجيهاً للإنسان كي يعرف طريق السمو الروحي والخلقي وكل ما يؤهله كي يكون خليفة حقيقياً لله في الأرض، ويكون خالصاً لله بعيداً عن أشكال المجون والفسوق والانحلال، وقد أخبر الله تعالى عن مجتمعات جاهلية كانت على مستوى رفيع في البناء والتصنيع. فقبيلة عاد لم يخلق مثل بلدتهم في زمنهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم... وقد كان للمودودي رحمه الله تعالى ولكثير من المفكرين والعلماء كالقرضاوي وجابر العلواني رأي في موضوع الحاكمية منها أن الشريعة قد ختمت بالأحكام العامة التي بينها القرآن والسنة، وأما الفقه وهو جهد بشري لفهم الشريعة فهو مفتوح للفهم والاستنباط لكل الأحكام وخصوصاً ما يستجد في حياة الأمة من الشريعة الكاملة دون المساس بأصل التشريع ومقاصده.

٢- أما التقدم المادي فهو تيسير للإنسان في عمله وحركته ولا يشفع لصانعه إذا كان كافراً: سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن جدعان كان يطعم ويصل الرحم فهل ذلك نافعه؟، فقال «**لا ينفعه أنه لم يقل يوماً ربي اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»، وقوله صلى الله عليه وسلم لابنة حاتم

---

(١) عن بحث سبيل إخراج الأمة للدكتور محسن عبد الحميد المنشور ضمن كتاب الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد، ص (٤٦٩-٤٧٠).

الطائي **«لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه»**.

وعلى هذا الأساس فإن للغرب باتجاهاته المختلفة (الأمريكية، الأوربية، المعسكر الشرقي) مفهوماً مختلفاً للحضارة عنا معشر المسلمين لأسباب أهمها:

أ- إنه لا يحتكم إلى منهج الله ﷻ بل إلى مناهج أخرى من رأسمالية وشيوعية والله يقول ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ ﴾، (المائدة: ٥٠). فالرأسمالية تسحق المجموع لأجل الفرد والشيوعية تسحق الفرد لأجل المجموع وكلاهما مصادمة للفطرة.

ب- لأن الغرب لا يقيد حركته ويوجهها توجيها في الحق وسلام الإنسان، والشبه بينهم وبين قبيلة عاد كبير فقد اخبر الرسول ﷺ **«كان الرجل منهم يأتي على الصخرة فيحملها على الحي فيهلكهم»** (أخرجه ابن أبي حاتم مرفوعاً)، والغرب أيضاً في تفجيره للقنبلة الذرية وقذفها على هيروشيما وناكازاكي وحروبه على أهل آسيا من الكوريين والفيتناميين ومساندته لليهود بذبحهم لأهلنا في فلسطين ولبنان ودعمه للاقتتال بين الاخوة في أفغانستان ومذابحهم في الصومال، ثم ضربهم وقتلهم وتشريدهم للمسلمين في السودان وأفغانستان والبوسنة والهرسك وكوسوفا والشيشان، وكان آخرها جريمتهم الكبرى بحق الأهل والأحباب في العراق وما فعلوه من دمار وقتل وتجويع وتشريد لم يسبقهم به حتى التتار لتبقى هذه الجرائم شاهداً على حيوانيتهم وهمجيتهم وخروجهم عن دائرة الإنسانية إلى دائرة مصاصي الدماء وآكلي لحوم البشر.

ج- لأن تجمعه تجمع قطيعي على أساس من اللون أو الجنس أو الأرض وهكذا البهائم في تمايزها لا تجتمع إلا مع بني جنسها، أما إسلامنا فليس فيه فضل لصاحب لون على لون للحديث **«اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي أقام فيكم كتاب الله»** (أخرجه البخاري)، ولا فضل لصاحب جنسية على غيره لأن أول لبنة بناها رسول الله ﷺ كانت تتكون من أبي بكر القرشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي جنسيات متعددة جمعتها كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

د- لأنه مجتمع لا يعترف بالأسرة قاعدة للمجتمع وإنما يقوم على العلاقات الجنسية المحرمة والنسل غير الشرعي: ففي أمريكا يولد ربع مليون طفل غير شرعي سنوياً، وقد كتب تقرير عن نسبة الطلاق هناك أنه كلما دار عقرب الساعة ثانية هوى بيت أمريكي

وفي كل يوم كان القضاء يمنح ألف حكم بالطلاق. أما في إسلامنا فأساس العلاقة بين الرجل وزوجته الرحمة والمودة قال الله ﷻ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، (الروم: ٢١). مودة في بداية الزواج حيث الشهوة والرغبة ورحمة أكبر إذا كبر العيال وبردت الشهوة وكبرا في السن كانت الرحمة بها من أن يتركها. جاء رجل إلى عمر رضي الله عنه يقول أريد أن أطلق زوجتي، قال: لِمَ؟، قال: لا أحبها فقال عمر: وهل تبنى البيوت إلا على الحب، فأين الرعاية وأين التراحم - أي الرعاية لهم والرحمة بهم- وأين الغيرة من أن يضيعوا بعدك وقد لعن رسول الله ﷺ كل ذواق مطلاق ممن يتزوج مرات لا تعنيه إلا شهوة ولا يفكر في ابتناء أسرة أو تربية ولد.. بل حتى توجههم الفكري مبني على ثلاثة أسس: هي الجنس، النفوذ ويشمل الأملاك والجاه والسلطان، والدم وكلها أسس حيوانية غريزية لا تسمو بالإنسان بل تدفعه نحو رذائل الأمراض والعقد النفسية، وهذا ما نلحظه في أفلامهم وأغانيهم، ومع الأسف بدأت خطواتنا تتبع خطواتهم في هذا المجال ويأتي ذلك مصداقاً لقول رسول الله ﷺ **«لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراع بذراع حتى إذا سلكوا جحر ضب لسلكتموه قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى، قال فمن»** (١).

وفي هذا يقول أنور الجندي: إن محاولة الدعوة إلى المزج بين الحضارتين والثقافتين الإسلامية والغربية لها خطر كبير يؤثر على إيمان المسلم وعقيدته من الداخل، فهي تقود المسلم إلى الوقوع في الخطر الشديد وكالآتي:

أولاً: محاولة أن تكون الهيمنة للعلم التجريبي لا للعلم المنزل.

ثانياً: محاولة إلغاء مفهوم العلاقة بين الخالق والمخلوق.

ثالثا: محاولة إلغاء ثبات الشريعة الإسلامية واعتناق الفلسفة النسبية التي تقرر أن كل شيء يتغير ويتبدل بتغيير الزمان والمكان بما في ذلك حقائق العلوم ومبادئ الشريعة أصول الأخلاق.

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٥٦، مسلم (العلم ٢٦٦٩)، أحمد (باقي مسند المكثرين ١١٣٩١، ١١٤٣٣، ١١٤٨٧). عن كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، ص ٥١- ٥٢. وانظر كتاب (المنهاج)، للشيخ هاشم محمد، ج/٢، ص١١٢.

رابعا: محاولة الإيمان بالحرية ونبذ عقيدة القضاء والقدر، ومعنى هذا التضحية بالآخرة في سبيل الدنيا.. وليتذكر المسلم أن هناك خمس عقائد إسلامية ثابتة بآيات محكمات وهي: هيمنة الوحي على العلم، خلود العقيدة والشريعة، طاعة الله ورسوله ﷺ، الإيمان بالقضاء والقدر، وإيثار الآخرة على الدنيا(١).

بينما يقول الدكتور أحمد شلبي: لعل الجانب الأكثر خطورة هو أن التعليم الجامعي غير الموجه يزيد الهوة بين الطالب ودينه، وأشهد الله أن الطالب في كليات الطب بجامعات أوربا يعرف عن الرازي وابن سينا أكثر من طالب الطب بجامعة القاهرة وغيرها من الجامعات الإسلامية، والنماذج كثيرة في سائر الكليات الجامعية.. نريد أن نضع الأسس الإسلامية ولابد أن ننشئ الكليات المتخصصة في الإسلاميات، وأنا أقول أن الكليات الإسلامية القائمة لا تدرس أهم علوم الإسلام مثل الحضارة الإسلامية ومقارنة الأديان وغيرها، وهي علوم مهمة جداً ترفع شأن الإسلام وتبرزه، فلابد أن يعرف الشباب رأي الإسلام في الشورى والمرأة والعلاقات الدولية وفي سائر جوانب الحياة (٢).

ومن مرتكزات الإمكان الحضاري لهذه الأمة نقاط عدة تمثل الوراثة الحقيقية والتاريخية للنبوة والمؤهلة لاستيعاب التجربة الحضارية للبشر منها:

١. امتلاك النص السماوي السليم وخلوده الذي يرسخ عقيدة التوحيد في نفس الإنسان.

٢. إنسانية الخطاب وعالمية الدعوة من منطلقات رئيسية منها تأسيس الشورى ومعرفة الآخر وسنة الحوار واحترام المقابل فلا إكراه في الدين ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾، (البقرة: ٢٥٦).

من خصائص هذه الحضارة أنها إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن

---

(١) المجتمع على طريق الإسلام، بقلم أنور الجندي، جريدة حديث الصائم الإماراتية، الثلاثاء ١٨ رمضان ١٤١٩هـ، ٥ يناير ١٩٩٩م، ص٢.

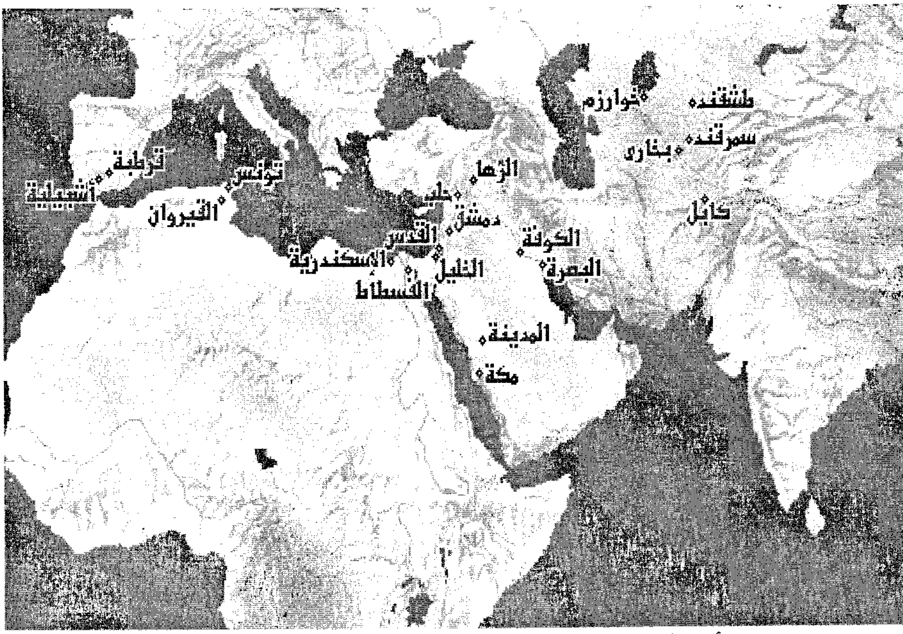
(٢) الدكتور أحمد شلبي، مقالة في جريدة حديث الصائم الإماراتية، الثلاثاء ١٨ رمضان ١٤١٩هـ ٥ يناير ١٩٩٩م، ص٦.

الكريم أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه كما تخبر الآية ١٣ من سورة الحجرات التي ذكرناها آنفاً. وحين أعلن القرآن الكريم هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عقداً تنتظم عنده جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وأمة واحدة، إلا الحضارة الإسلامية، فإنها تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب، فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد والخوارزمي، وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلا عباقرة قدمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتائج الفكر الإنساني السليم.

وإذا كانت الحضارة الرومانية قد اشتهرت بالطرق التي تربط بين أجزاء الامبراطورية، فإنها قد عرفت كذلك بالحواجز التي أقامتها بين الطبقات والفئات المختلفة من رعاياها. إذ فرقت في الحقوق بين سكان روما وسكان سائر إيطاليا، ثم بين الرومان وغيرهم من سائر البلدان التابعة لها، ثم بين الذين خضعوا لنفوذها وبين من كانوا خارجها الذين دعتهم برابرة. أما حضارة الإسلام فقد أزالت الحواجز والمسافات بين البشر فهم سواء بسواء، وكانت مراكز البريد تعين على التنقل في أرجاء دار الإسلام المترامية، ووجدت فيما بعد ما يعرف بالأربطة أو الرباطات بفعل الجماعة ذاتها، إذ يستضاف العابرون ويقدم لهم ولدوابهم الطعام والمأوى، ويذكر الجغرافي المسلم الاصطخري مثلاً عن مسلمي بلاد ما وراء النهر (وأما سماحتهم فإن الناس في أكثر ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة ما ينزل أحد بأحد إلا كأنه داخل دار نفسه). وهكذا أزالت الحضارة الإسلامية الحواجز النفسية والمكانية بين أبنائها في مختلف أنحاء العالم، فكانت بحق إنسانية عالمية[1].

---

(١) موسوعة الحضارة الإسلامية- أقراص مدمجة / الدولة الأموية / القيم.



صحيح أن الفتوحات الإسلامية فتحت أكثر من نصف العالم القديم إلا أن الإسلام استمر بالانتشار فأصبح العالم كله يعرف به فيدخل به ويحترمه كل محب ويبغضه كل مكابر وحاقد

ولئن كانت السنين الأولى قد تطلبت فتوحات عسكرية، إلا أن السمة الأبرز للمتتبع لهذه الحضارة أنها حضارة عقل ومنطق وحجة، لا حضارة همجية وسفك دماء كما يدعي أعداؤها. والدليل أن الفترة الزمنية اللاحقة وإلى اليوم شهدت وتشهد إقبالاً على هذه الحضارة رغم كل العوائق التي وضعت أمامها للحيلولة دون ذلك.

٣. الوحي مصدر القيم والمبادئ والعقل أداة البرمجة.

٤. الطاقة الروحية المتجددة.

٥. امتلاك الطاقة المادية المطلوبة لنمو الحضارة ومنها الرصيد الكبير من الموارد البشرية كالعقول والسواعد.

٦. العمل وفق الأسباب والسنن والنواميس الإلهية في الكون والأنفس والمجتمعات.

٧. إطلاق حرية الاجتهاد الفكري وفق الضوابط الإنسانية.

٨. ضبط العواطف والحماس على وفق مرضاة وتقوى الله تعالى وليس وفق التعصب للأنا والذات والانتماء العشائري والقبلي والقومي.

٩. الشريعة بنيت على أساس يحث الناس على الحكم بالعدل حتى على من هم عدو لهم أو أناس بينهم عداء فكري، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾، (المائدة:٨)، وقول الحق ولو على النفس، ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾، (النساء:١٣٥)[١]...

فيما يذكر المفكران الإسلاميان الدكتور يوسف القرضاوي والدكتور محسن عبد الحميد عن ميزات هذه الحضارة ما مختصره:

أنها حضارة ربانية وحدانية بامتلاكها النص السماوي السليم وخلوده الذي يرسخ عقيدة التوحيد في نفس الإنسان، أي أن الله تعالى هو الإله المعبود والرب المالك والحاكم الملك.. أنها قدوة لكل حضارة تسمو بالبشر ولا تحط منهم.. شمولية في نظام الحياة للبشر بكل أطوارهم واختلافاتهم وثقافاتهم لكل زمان ومكان ولكل تفاصيل الحياة للدنيا والآخرة من العقيدة والعبادة والأخلاق والتشريع والالتزام... عادلة... متسامحة... منفتحة مفتوحة على كل البشر... منطقية وموضوعية واقعية واضحة في كل التطبيقات التشريعية والتكليفية للفرد والمجتمع من باب كونها قابلة للتطبيق ولكل البشر حتى المعاقين والمرضى منهم، إطلاق حرية الاجتهاد الفكري وفق الضوابط الإنسانية... قيمية خلقية... علمية... عقلية... مبدعة وخلاقة... وسطية ومتوازنة تمزج بين العقل والروح والاستقامة على الشرع الحنيف... خالدة... داعية للسلام والحق... أصيلة[٢]..

---

(١) عن بحث عمر عبيد حسنة (الوراثة الحضارية.. شروط ومقومات) ضمن كتاب الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد، ص (٤٠٠-٤٣٦) ، بتصرف.

(٢) مختصر عن كتابي الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوي.. ومذهبية الحضارة الإسلامية للدكتور محسن عبد الحميد – صفحات مختلفة، بتصرف.

وباختصار فإن من مقومات حضارتنا أنها إيمانية خلقية تسمو بالبشر ولا تحط من قدرهم، شمولية إنسانية لا تنحصر بقوم أو مجموعة، عقلانية ومنطقية وعلمية لا مجال للخرافة فيها، عادلة إصلاحية تنموية تعطي لكل ذي حق حقه، تؤمن بالتعددية واحترام الرأي المقابل(١)، فهذا توماس آرنولد أحد كبار المفكرين الغربيين يعترف للحضارة الإسلامية بأنها أول حضارة تعترف وتمارس التعددية في الرأي والفكر والقضاء والتطبيق والسياسة والمذهب الديني، في الوقت الذي لم تقبل أوربا بالرأي الآخر حتى في الدين الواحد، وحصلت فيها مذابح راح ضحيتها ١٠ مليون شخص في حين لم تحصل في تاريخ المسلمين مذابح أو حروب دينية الطابع وانتشر الإسلام في الجزيرة بأقل من ٤٠٠ ضحية، وفي العالم القديم بعدة آلاف فقط.

ولقد اعترفت البشرية بنخبتها المثقفة لهذه الأمة بدورها في تطورها، وهو ما تقرؤه في آراء نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر مثل الدكتور شيرل عميد كلية الحقوق بجامعة فينا، المؤرخ البريطاني توينبي، أستاذ الفلسفة البريطاني بجامعة هارفرد الدكتور هوكنج، الرئيس الفرنسي شارل ديغول، الأمير تشارلز، العالم الإسباني فيلاسبازا وغيرهم الكثير. هذا فضلاً عن العدد الهائل ممن أسلم من مفكري وعلماء الغرب كروجيه غارودي ومراد هوفمان ومحمد أسد (ليوبولد فايس) والقس كلداني وعالم الأجنة كيث أيل مور وغيرهم الكثير.

على أساس تعريف الحضارة السابق الذكر فإن كل الدول التي حملت لواء الإسلام بكل مسمياتها وعناوينها واختلاف ظروفها المكانية والزمانية رغم بعض المآخذ التي أخذت عليها فإنها تدخل تحت تعريف الحضارة الإسلامية. فهذه الحضارة قدر لها الله أن تستمر، فهي إن خبت في مكان ما تلبث أن تصعد في مكان آخر حتى انتهت عند انتهاء الخلافة العثمانية.. كما وإن هذه الحضارة لم تنتهي بانتهاء الدولة الجامعة لأن تعريفها هو كل النشاطات المختلفة للبشر الذين يحملون مسئوليتها وينضوون تحت لوائها، وهم اليوم أكثر رغم تفرقهم في أقطار شتى. فميزة هذه الحضارة أنها استوعبت كل حضارات ومميزات الأمم التي دخلتها وأذابتها فيها بشكل رائع لم يفقدها رونقها وبريقها بل زادها

(١) عن بحث الدكتور أحمد كمال أبو المجد (الإعداد للدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد) ضمن كتاب الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد، ص (٦٩-٧٦)، بتصرف.

روعة وتميزاً، لذلك لا يمكن أن تنتهي فقدرها أن تستمر لينضوي تحت لواءها كل بيت ووبر ومدر من كل لون ولغة وجنس لأنها حضارة خلق وسمو.

لكن بعض المتعصبين من أهل الغرب ظلموها فقالوا، وقد يقول معهم قائلون آخرون، أليست هذه عولمة من نوع قديم؟!. الجواب كلا بالتأكيد، لأن مفهوم العولمة هذا غرضه أمركة تحول العالم إلى مستهلك للبضاعة الأمريكية بفكرها وإعلامها وصناعتها وملابسها وأسلوب كلامها كي تستفيد الرأسمالية الكبرى هناك على حساب الثكالى واليتامى والأرامل والمعوقين والجوعى من أكثر من ٥٠ ٪ من سكان الأرض.. بينما الإسلام أراد للناس كلهم دون تمييز في عرق أو لون أو لغة أو جنس أو عمر كل الخير والعدل والراحة والأمان والعافية في الدنيا والآخرة، كل ذلك لأمر الله الذي أراد به خيراً لخير من خلق "الإنسان".

النظام الاجتماعي الإسلامي

لقد كون رسول الله ﷺ مجتمعاً رائعاً بعد أن طبق النواميس والأوامر الإلهية التي جاء بها القرآن الكريم، فبدء بالنفس والأهل والأقربين صعوداً إلى المجتمع والمدينة والدولة، فكانت تلك الحقبة تمثل أعظم الحقب التي حفظت للإنسان كرامته وعزته عن طريق تطبيق العدل بين الرعية وحفظ حقوقهم بعد أن عرف الناس ربهم واستقاموا على ذلك.

وهنا أسرد قصة لطيفة لأحد الرحالة الأوربيين الذي زار بغداد في العصر العباسي الثاني، فاستأجر منزلاً، وكان يستيقظ كل صباح فيجد القمامة التي رماها في باب بيته ليلة الأمس قد أزيلت، وكان يتعجب للأمر. فقرر ذات ليلة أن يراقب الباب ولا ينام، فإذا بجاره يخرج عند هجيع الليل ليحمل القمامة ويرميها بعيداً. فأتى لجاره بعد ذلك فسأله عن الأمر، فقال له الجار، إني والله لم أكن أتمنى أن تعلم بهذا، أما أنك وقد علمت وسألتني فسأجيبك... إن ديننا قد وصى بالجار، وإنني رجل أخاف العبور على الصراط يوم القيامة، فلم يفهم السائل، فسأله عم عناه بالصراط، ففسر له الأمر، فازداد عجبه. وعندما عاد لبلده روى القصة لأهله وقال لهم متسائلاً: هل استطاعت كل فلسفاتنا أن تضع في الناس خلقاً رفيعاً مثل ما فعله الصراط بالمسلمين؟... ذكرت تلك القصة لأبين لكل من يدعي أن المسلمين أخذوا النظافة من الغرب أن يعود لهذه الحضارة الرائعة وذلك التاريخ المشرف ليعرف إلى أية أمة ينتمي.

ولقد كفلت حضارة الإسلام العظيمة للبشر كل ما يحتاجونه لإقامة الأسس

والمرتكزات التي حددتها، ومن ذلك:

١. **حرمة الدم وحفظ حق الحياة:** ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾، (المائدة: ٣٢).

٢. **حرمة العرض فصان للفرد حق الكرامة:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾، (الحجرات: ١١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾، (الحجرات: ١٢).

٣. **حرمة المال وحق التملك:** في البخاري (الحج ١٦٢٣) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهم عَنْهمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قَالُوا يَوْمٌ حَرَامٌ قَالَ فَأَيُّ بَلَد هَذَا قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ قَالَ فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا قَالُوا شَهْرٌ حَرَامٌ قَالَ فَإِنَّ دمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَة يَوْمكُمْ هَذَا في بَلَدكُمْ هَذَا في شَهْركُمْ هَذَا**)، فَأَعَادَهَا مِرَارًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: (**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهم عَنْهمَا فَوَالَّذي نَفْسِي بِيَدِه إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ فَلْيُبْلِغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ.

٤. **حرمة البيوت وحق الاستقلال الشخصي:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾، (النور:٢٧).

٥. **حرية الرأي والفكر والاعتقاد والتعبير**: وفي هذا يطول الشرح والتفصيل لكثرة ما ورد في ذلك.

٦. **حق المعارضة والنصيحة**: للحاكم والمحكوم، ففي الترمذي (الفتن ٢٠٩٤) عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّهُ قَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ**). وفي صحيح مسلم (الإيمان ٨٢) عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**) قُلْنَا لِمَنْ قَالَ: (**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**).

٧. **حق القضاء والقصاص العدل**: كما ذكرنا في ما سبق من آيات وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾ ، (الأنعام: من الآية١٦٤).. ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾، (النجم:٣٨)..

٨. **حق التعلم حتى وقت الحرب**: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾، (التوبة:١٢٢)... وقد حث النبي ﷺ على طلب العلم في عدة أحاديث كما في حديث النسائي في الطهارة (١٥٨) عَنْ عَاصِمٍ أَنَّهُ سَمِعَ زِرَّ بن حُبَيْشٍ يُحَدِّثُ قَالَ أَتَيْتُ رَجُلاً يُدْعَى صَفْوَانَ بن عَسَّالٍ فَقَعَدْتُ عَلَى بَابِهِ فَخَرَجَ فَقَالَ مَا شَأْنُكَ قُلْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ قَالَ إِنَّ الْمَلائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ فَقَالَ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ تَسْأَلُ قُلْتُ عَنِ الْخُفَّيْنِ قَالَ كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ أَمَرَنَا أَنْ لاَ نَنْزِعَهُ ثَلاَثًا إِلا مِنْ جَنَابَةٍ وَلَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْمٍ.

٩. **حق العمل**(١): فقد دعا الإسلام للعمل لأنه من أهم وسائل الارتزاق، وهو أساس الاقتصاد، والدعامة الأساسية للإنتاج، وهو عبادة من أجلّ العبادات مع النية الخالصة، وكل قطرة عرق تبذل فيه تكون في ميزان المسلم مع صلاته وصيامه وزكاته.. والمسلم لا يعمل من أجل الدنيا والحرص عليها وعلى فتنها ومتاعها، بل لأن العمل أساس كل شيء بل هو أساس التقرب إلى الله تعالى.. يقول العلامة أبو الأعلى المودودي رحمه الله (إذا تعاطيت التجارة والصناعة أو اشتغلت بالخدمة، وأديت ما عليك من الواجب بكل أمانة وصدق اتقاء لله تعالى، ثم كسبت الحلال وتجنبت الحرام، كان كسبك هذا وسعيك في سبيله عبادة لله تعالى، مع أنك ما قمت بكل ذلك إلا لتكسب الرزق لنفسك).. لذلك تجد أن القرآن الكريم قد قرن العمل بالإيمان في آيات كثيرة، فجاء الحث عليه في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفي أقوال السلف الصالح. يقول الله تعالى في دعوة صريحة للعمل والارتزاق وطلب الرزق والكسب والسعي لكسب المعاش ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾، (الجمعة:١٠).. ويقول تعالى أيضاً ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾، (الملك:١٥).. وكأن القرآن يصرخ بالناس أن اعملوا لتأخذوا ثمرة عملكم، واتعبوا وانصبوا لتجدوا لذة كسبكم. فالسعي إذن هو الوسيلة إلى الكسب.. كما وقرن القرآن الكريم السعي في التجارة بالجهاد في سبيل الله تعالى لإعلاء دينه، فيقول تعالى ﴿...وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ.....﴾، (المزمل: من الآية٢٠).. والآيات في هذا المعنى كثيرة، إذ

---

(١) هذه النقطة عن مقالة رائعة للأستاذ الفاضل الشيخ الجليل إبراهيم النعمة بمجلة التربية الإسلامية بعنوان العدالة الاجتماعية، السنة ٣٥- العدد ١٢، ص٤١-٤٥، بتصرف.

أحصى بعض الباحثين المحققين الآيات القرآنية الداعية إلى العمل والسعي لكسب العيش فكانت تزيد على ١٦٠ آية، والتي ذكرت مطلق العمل بلغت ٣٦٠ آية، كما وردت معاني أخرى للعمل في ١٠٩ آية.

وفي الحديث الشريف نجد الأحاديث الكثيرة التي ترغب بالعمل، منها قوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في باقي مسند المكثرين (٨٠٦٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**خَيْرُ الْكَسْبِ كَسْبُ يَدِ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ**).. وقوله ﷺ فيما ينقل البخاري رحمه الله تعالى في كتاب البيوع (١٩٣٠) عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ عَنِ الْمِقْدَامِ رَضِي اللَّه عَنْهم عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**).. وقوله ﷺ في حديث الطبراني في الأوسط والأصبهاني من حديث ابن عباس ﷺ: (من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له).. وأخرج الترمذي في كتاب البيوع (١١٣٠) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (**التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ**).

ويسمو الإسلام بالعمل حتى يجعله بمنزلة الجهاد في سبيل الله، فقد روى كعب بن عجرة ﷺ قال مر على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه، فقالوا يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله!، فقال ﷺ: (**إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً أو مفاخرة، فهو في سبيل الشيطان**)، رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.. وقد نهى النبي ﷺ عن المسألة وحث على القوة الاقتصادية فاليد العليا خير من السفلى، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى كما قال ﷺ، وحث على الدقة والإتقان في العمل وقرنه بحب الله للعبد، وحث على إعطاء العامل والأجير أجره بسرعة دون إبطاء.

أما أقوال السلف الصالح رضي الله عنهم في هذا المعنى كثيرة، منها ما يذكره الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء (٢/٦٤) وهو قول سيدنا عمر ﷺ (ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب إلي من موطن أتسوق فيه لأهلي: أي أبيع وأشتري)، وقوله ﷺ (إني لأرى الرجل فيعجبني فأسأل: أله حرفة؟، فيقال: لا، فيسقط من عيني).. وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (المغزل بيد المرأة خير من الرمح في يد المجاهد).. ويقول بعض الصالحين (ليست العبادة أن تصف قدميك – يعني للعبادة– وغيرك يقوت لك: إبدأ

برغيفيك فاحرزهما ثم تعبد).. وقال ابن خلكان (لو يعلم المسلمون وأبناء المسلمين ما أعد الله تعالى للمسلمين في إحياء الأرض، ما ترك مسلم بقعة دون إحياء رجاء الثواب المدخر عند الله تعالى).

ويسمو الإسلام بالعمل أيضاً حتى يجعله فوق الكثير من العبادات، فالرجل الذي يعمل ويعول أخاه العابد يصير أعبد منه، وهناك من يفضل الصناع على العباد كالشيخ الشعراني وهو من المتصوفة، ذلك لأن نفع العبادة تعود على صاحبها وحده، بينما نفع الحرف فيعود على الناس جميعهم بالخير.. وإذا كان الإسلام قد دعا إلى العمل فقد نهى عن الجلوس قي البيت من غير عمل، فهذا سيدنا عمر ﷺ يدخل المسجد بعد الصلاة، فيرى فيه قوماً قابعين بدعوى التوكل على الله، فما كان من فاروق الإسلام إلا أن علاهم بدرته، وقال كلمته المشهورة (لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأن الله تعالى يقول ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾).. وهذا الإمام أحمد ﷺ سئل عمن يجلس في بيته من غير عمل بحجة أن رزقه سيأتيه فأجاب السائل (هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ (..**جعل رزقي تحت ظل رمحي..**)، وقوله حين ذكر الطير (..**تغدو خماصاً وتروح بطاناً..**)).

١٠. **حق التجمع لعمل الخير ونبذ التجمع للشر:** ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾، (المائدة: من الآية٢). وهكذا كان العمل الجماعي للخير أمر فيه خير. ففي الترمذي (الفتن ٢٠٩٢) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ: (**يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ**). وتعاون الجماعة في الإسلام من أعظم القربات إلى الله تعالى، فعن عَبْدَاللَّهِ بن عُمَرَ ﷺ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ**

الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ... ».

١١. **ثبت حقوق الزواج والمرأة والميراث ونظام الأسرة:** كما سنفصل لاحقاً.

النظام القضائي والتشريعي الإسلامي(*)

إذا ما تدبرنا آيات الله الخالدات من وجهة نظر تشريعية قانونية واجتماعية واقتصادية، فماذا نرى؟:

- المسلم الغني مستخلف في مال الله وملكه، والثروة أمانة في عنق حاملها يسأل عنها يوم القيامة، من أين جمعها وفيمَ أنفقها.
- الكسب الحلال يؤدي إلى أسرة كريمة طيبة، والكسب الحرام يترك أثره في الجوارح والسلوك ليكون أسرة فاسدة مفسدة كالطفيليات والمكروبات المدمرة.
- توزيع عادل للثروات بحيث لا يبقى فقير أو محتاج، وهذا ما حققه الخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.
- ردع لكل متطاول بشكل لا يتجرأ بعده الآخرون على التقليد وهذا ما أثبته التطبيق العملي في المجتمع الإسلامي - كقطع يد السارق مثلاً-.
- نظام عظيم للزواج وتكوين الأسرة وتربية الأولاد.
- القانون فوق السلطة، ولا يستثنى الحاكم والمحكوم من عدالة القضاء، فالإسلام هو أول من وضع هذا الشعار وطبقه.
- تكريم لا يدانيه تكريم للمرأة بدءاً من ولادتها وتحريم الوأد الذي كان شائعاً بين العرب قبل البعثة الشريفة، مروراً بحث الوالدين على تربية البنات على أصول الخلق الرفيع والعلم النافع، ثم أهمية المرأة في البيت والقضاء والعلم والحرب والسلم وغير ذلك مما تزخر به كتب الفقه الإسلامي في أهمية دور المرأة في أن تكون بانية للأسرة والمجتمع لا أن تكون مدمرة له وفق المفهوم الغربي الذي يجعل من المرأة عبارة عن جسد يباع ويشترى بأبخس الأثمان، وما يتبع ذلك من اتباع الشهوات للجنسين، وترك الطريق

(*) لتفاصيل أكثر يراجع كتابنا (الاقتصاد والاجتماع)، ضمن سلسلة (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية)، ففيه تفاصيل مهمة.

الأمثل في الزواج وتكوين الأسر إلى الطريقة الغرائزية الحيوانية في تصريف الشهوة.

إن نظرة ثاقبة إلى سورة النساء فقط وتدبر مدى الروعة العظيمة في تقسيم الميراث في الإسلام وحقيقة إعطاء النصف والربع والثلث والسدس لحالات مختلفة يريك مدى الترابط بين القانون وعلم الاجتماع والاقتصاد والرياضيات. فإذا تأملت لماذا هذه الكسور وحقيقة تقسيمها بهذه الدقة وربطها مع الحالات الاجتماعية المختلفة لكل تقسيم، لعلمت الدقة في مراعاة الله تعالى لحقوق الأسرة برمتها ومنها المرأة بأصنافها الثلاث الزوجة والبنت والأم، من جهة ودقة التقسيم الرياضي من جهة ثانية.

قام المهندس الأستاذ مولود مخلص الراوي بتقديم بحث رائع في هذا الموضوع إلى المؤتمر الأول للإعجاز القرآني الأول المنعقد بمدينة السلام بغداد للفترة ٢١-٢٦ رمضان ١٤١٠هـ الموافق ١٦-٢١ نيسان ١٩٩٠ م، وأسماه (الإعجاز في علم المواريث) والذي يتضمن إعداد برنامج حاسوبي للقسّام الشرعي يمكنه حل جميع مسائل الميراث مفردةً كانت أم مناسخة (متعددة الوفيات) بأعداد صحيحة أو ما يعرف بالتصحيح وبنفس الأسلوب الشائع في تنظيم القسّامات الشرعية. وقد جرى اختبار البرنامج عملياً من قبل لجنة شرعية متخصصة ثم تم اعتماده من قبل وزارة العدل العراقية للاستخدام عملياً في المحاكم العراقية(١).

يقول أحد الحقوقيين الغربيين وهو يعلق على ما جاء في سورة النساء: (لا يمكن أن يكون هذا القرآن من عند محمد لأننا الآن وفي عصر التطور الهائل لا نستطيع أن نعطي تشريعاً بهذه الروعة والتفصيل والدقة والعدالة لكل أفراد الأسرة دون استثناء).

وقد اعترف الراسخون في العلوم القانونية من رجالات الغرب بأن التشريع الإسلامي يعد في طليعة المصادر الصالحة لسد حاجات التشريع الحديث. ونطق بذلك قرار مؤتمر القانون المقارن المنعقد في مدينة لاهاي، في شهر آب من سنة ١٩٣٧م، الموافق لجمادى الآخرة من سنة ١٣٥٦هـ، وقد دعي إليه الأزهر، فمثله مندوبان من كبار علمائه فحاضرا فيه عن المسؤولية الجنائية والمسؤولية المدنية في الإسلام، وعن نفي أية علاقة مزعومة بين القانون الروماني الوضعي والشريعة الإسلامية الغراء. وقد خرج المؤتمر على

(١) الإعجاز في علم المواريث، المهندس مولود مخلص الراوي، الإعجاز القرآني، المؤتمر الأول للإعجاز القرآني الأول المنعقد بمدينة السلام بغداد للفترة ٢١-٢٦ رمضان ١٤١٠هـ الموافق ١٦-٢١ نيسان ١٩٩٠ م، ص٦٥٩-٦٧٦.

أثر ذلك بقرار تأريخي خطير بالنسبة إلى رجال التشريع الأوربي، جاء فيه:

١. اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً مهماً من مصادر التشريع العام.
٢. اعتبارها حية قابلة للتطور.
٣. اعتبارها تشريعاً قائماً بذاته، ليس مأخوذاً من غيره[1].

كان النظام القضائي الإسلامي أول من جاء بفكرة القضاء والقانون فوق الحكم والسلطان، وطبقها فعلاً في كثير من الحالات منها القصة المعروفة للأمام علي كرم الله وجهه مع اليهودي الذي اشتكى إلى القاضي بأن أمير المؤمنين –حاشاه– قد سرق درعه، فحضر الطرفان أمام القاضي وانتهت القضية بإعلان اليهودي إسلامه لما رأى من عدل الإسلام.. وهكذا أخذ الغربيون منا هذا التراث العظيم وصدروا لنا دكتاتورياتهم التي كانت في عصور ظلامهم، ثم ادعوا أنهم متحضرون لأنهم ديمقراطيون، فتنبهوا معشر السلمين لهذه المغالطة.

وها هو الأمير تشارلز يدلي باعتراف خطير خلال مؤتمر عقد بلندن عام ١٩٩٦م من أن ٦٠٪ من القضاء البريطاني يعتمد في روحه وبعض نصوصه على التشريع الإسلامي[2].

لقد كثر الحديث هذه الأيام عن حقوق الإنسان في دول العالم وفي دول الغرب بالذات وتحديداً في الولايات المتحدة، فبدأت تسوق هذه الحقوق وكأنها بضاعتها أو أنها وصية عليها، وأصبحت ذريعة في إخضاع من هم دونها وإيذاء الأمم والشعوب تحت دعوى الدفاع عن حقوق الإنسان. لكن الواقع يشير ومنذ ما يربو عن الـــ ٥٠ عاماً أن الدول الغربية نفسها هي أول من لا يطبق هذه الحقوق إلا في الأمور التي تفيد مصالح ضيقة لجماعات معينة دون غيرها، والأمثلة في هذا أكثر من أن تذكر. إن الكلام عن حقوق الإنسان لا يأخذ مداه ما لم يكن هناك تنفيذ وتفعيل لتلك الحقوق. فبدون منهجية تفعيل حقوق الإنسان وضماناتها الحقيقية يصبح الكلام عنها والسعي إليها ﴿..كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ..﴾، (الرعد:من الآية ١٤).. فلا ينفع الكلام والتأشير والتعداد ما لم تقترن بالتطبيق.

---

(١) الشريعة الإسلامية ومكانة المصلحة فيها، القاضي فاضل دولان، مطبعة أنوار دجلة، بغداد، ١٤٢٣هـــ،٢٠٠٢م، ص٢٤.

(٢) انظر كتاب (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، للمؤلف.

يذهب علماء القانون العام إلى تقسيم حقوق الإنسان إلى مجموعات من أجل تيسير دراستها، فقسموها إلى مجموعة الحريات الشخصية التي تشمل الحرية الشخصية للفرد وحرية التنقل والسكن والمراسلات، ثم تأتي مجموعة حريات الفكر وتشمل حرية العقيدة والتعليم والصحافة والرأي. القسم الثالث هي مجموعات حريات التجمع مثل حرية التظاهر وتأليف الجمعيات والأحزاب والحركات، ثم مجموعة الحقوق والحريات الاجتماعية مثل حق العمل واختيار نوعه والراحة والفراغ والمعونة عند العجز والمرض والشيخوخة. ثم تأتي مجموعة الحريات الاقتصادية، مثل حق التملك والتجارة والصناعة. ومجموعة الحقوق السياسية مثل حق الانتخاب والترشيح وتقرير المصير... وقد سبق الإسلام وكما فصلنا آنفاً إلى تشريع هذه الحقوق بل أضاف إليها حقوقاً أخرى.

ورغم أن هذه الحقوق والحريات جاءت تعداداً ومناشدة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان غير أنه لا توجد وسائل فعالة لتفعيلها ونقلها من النظرية إلى التطبيق. وفوق ذلك فإنها باتت معرضة لأن تعصف بها العولمة بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من جهة أخرى، وتحكّم الدول الكبرى المتغطرسة التي تشن الإرهاب الدولي تحت غطاء الدفاع عن حقوق الإنسان. وبقي ميثاق حقوق الإنسان حبراً على ورق ولم ينفذ منه شيء، فالعالم اليوم يعيش حالة غالب ومغلوب، وتفرد قوة عظمى بالهيمنة على العالم، بل إنها اختطفت الأمم المتحدة وميثاقها وجعلتهما ألعوبة في يدها، فكان حق الفيتو سيئ الصيت لصالح مصالح خاصة ضيقة بمجموعة بشرية معينة قمة الإساءة للمنظومة الدولية وحقوق الإنسان، ثم جاء تشكيل المحكمة الجنائية الدولية ليسهم في تعزيز الظلم والاستبداد في جعل جرائم أميركا وأعوانها في منأى عن المسائلة والعقاب.. لكن الأمر يختلف بالنسبة للشريعة الغراء، التي يستنبط منها نظام كامل متكامل لحقوق الإنسان لا يهتم بالدرج والتعداد، بل جعل حقوق الإنسان منهجاً وفعلاً وتطبيقاً. وحين كانت أوربا تغط في نوم عميق وتعيش قرونها الوسطى المظلمة تحت جبروت القساوسة والنبلاء والسلطات المطلقة للحكام، جاء الإسلام بتصور شامل لحقوق الإنسان، وكانت دولة الإسلام تنشر العدل والإحسان، على أسس ومبادئ شرعية قانونية لم تعرفها البشرية من قبل، وكان الخليفة مقيداً بأحكام الكتاب والسنة، ملتزماً باحترام حقوق الإنسان والأفراد وحرياتهم التي نص عليها الإسلام، ووضع الضمانات التي تكفل حمايتها من كل جور واعتداء.. إن المنهج الإسلامي يقوم على إقامة العدل وتقديمه على السلم عند التقاطع

بينهما، ولا يحترم السلم المبني على الظلم، وأعلن القرآن الكريم أن إقرار العدل في الأرض هو أعظم هدف بعد عبادة الله تعالى، والتي هي أعلى غاية على الإطلاق ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾، (الحديد:٢٥). وقوله تعالى ﴿..فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ..﴾(الحجرات: من الآية٩).. وبعد فإن الإسلام أسس على الأرض أول دولة قانونية تخضع فيه السلطة خضوعاً تاماً لقيود تسمو عليها، لأن مصدرها كتاب الله وأساسها الفكري العقيدة، لا تقبل التلبس بالظلم والباطل وكما ذكرنا في قصة الإمام علي عليه الرضوان والسلام مع اليهودي، ترعى حقوق الإنسان من خلال منظومة كاملة من الأحكام، وحقوق الإنسان في الإسلام ذات صفة دينية تقوم على العقيدة والعبادات، وهي ليست منحة من بشر وإنما هي منح إلهية واجبة على الجميع، ولا مجال فيها لاستثناء أو تمييز ما بين حاكم ومحكوم[(١)].

منزلة المرأة والأسرة في الإسلام:

لقد أعطى الإسلام حقوقاً للمرأة وتكريماً لم يشهد التاريخ البشري مثيلاً له من قبل، فقد كانت البنت محتقرة، ومحل سخرية وتذمر لأهلها في أغلب المجتمعات البشرية قبل الإسلام، ولا يقتصر ذلك على عرب الجزيرة كما يظن البعض وإن كان يبدو أن الأمر لدى العرب يأخذ منحى أكبر، فقد كانت توأد وتدفن حية لمجرد كونها أنثى، فكانت هذه الأفعال وغيرها من أشد الأفعال التي ردّها الإسلام وحرمّها بقوله تعالى ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾، (الإسراء: ٤٠).. ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾،(النحل).. ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ

---

(١) عن مقالة للأستاذ الدكتور أكرم عبد الرزاق المشهداني بمجلة التربية الإسلامية بعنوان حقوق الإنسان بين الشريعة والقوانين الوضعية، السنة ٣٥- العدد ١٢، ص٤٩-٥٣، بتصرف.

أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (الزخرف)..
﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾، (التكوير).

وهكذا نزل القرآن الكريم ليعطي المرأة المنزلة الراقية التي تستحق، فأفرد لها سورة باسمها (سورة النساء) والتي ثبتت حقيقة مهمة في بداياتها وهي مساواة المرأة للرجل في النشأة والخلق والعبودية لله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾، (النساء:١). فكلمة زوج تعني المقابلة، فللزوجية في القرآن عدة معاني وهنا تعني التقابل أو التكامل أو المساواة وليس التضاد... كذلك جمع الله تعالى بين الجنسين في مهمة استخلاف الله البشر على إدارة الأرض وإصلاحها وهو يقصد جنس البشر ذكراً كان أو أنثى (البقرة:٣٠)، وسوّى بين الجنسين في التكريم والتفضيل الذي خصّ به الإنسان (الإسراء: ٧٠)، وساوى بينهما في الخلق من طين (ص: ١٦)، ونفى الإسلام عن المرأة مسؤولية الخطيئة الأصلية. كما ركزت الآيات والأحاديث على المساواة في العمل ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾، (النحل:٩٧). هنا تجدر الإشارة إلى أن تقديم الذكر على الأنثى لا يفيد التفضيل كما يظن البعض، فكما يعلم من قواعد اللغة والأحكام الشرعية أن التغليب هنا يفيد المساواة، فالقرآن كان يمكن أن يشير إلى النساء بصيغة جمع المذكر الذي يفهم على أنه يعني الإناث أيضاً، وهذا يعرف لغة بالتغليب، ولكن القرآن فضل الوضوح منعاً للبس وتأكيداً للمساواة. كذلك ساوى الشرع الحنيف بين الجنسين في اكتساب الأجر ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾، (النساء:٣٢). كما ساوى الإسلام بين الجنسين في الولاية وتولي المسؤوليات كالدعوة إلى الله وعمل الخير والنهي عن الشر والجهاد وغير ذلك من المسؤوليات التي تقيم المجتمع والدولة بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ

بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ ﴾، (التوبة: ٧١).

وقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها من كبار رواة الحديث وعنها قال عروة بن الزبير (ما رأيت أحداً أعلم بفقه أو طب أو شعر من عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها). ويروى أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ ولّى (أم الشفاء بنت عبد الله) على مرفق اقتصادي مهم هو حسبة السوق. كما أن سمراء بنت نهيك الأسدية كانت تمر بالسوق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وهناك أميرات ولّين الحكم في التاريخ الإسلامي كشجرة الدر وقت المماليك في مصر.

كما ساوى الإسلام الجنسين بمسؤولية تحمل النتائج بغض النظر عن الفاعل: ﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾، (المدثر:٣٨).. وأخرج البخاري في صحيحه (كتاب الجمعة ٨٤٤) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّهم عَنْهمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:(**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّته الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّته وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْله وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّته وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْت زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّده وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّته وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّته**).

أما عن العقوبة لجرم كالسرقة فقد قدم الرجل السارق على المرأة السارقة لأنه الأقدر على ذلك: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾ ﴾، (المائدة:٣٨). بينما في الزنا قدمت المرأة الزانية في العقوبة على الرجل لأن بيدها إتمام الجرم من عدمه، فهي تستطيع منع الجرم إن أرادت حتى وإن أراد الرجل الزاني ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾، (النور:٢). والقاعدة الفقهية في هذا الباب الذي يعنى بالعقوبات والمعروف قانوناً بالمساواة القانونية بين الجنسين تقول (النساء شقائق الرجال). ولكن الإسلام غلّظ العقوبة في الدنيا والآخرة على الذين يدّعون أمر الزنا على المرأة دون بينة ويتهمونها جزافاً وبهتاناً، إذ عليهم بأربعة شهود على دقة ادعاءهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ

ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾، (النور:٤).. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾، (النور:٢٣).

أما في المعاملة فقد أمر الشرع الحنيف الرجال بحسن المعاملة مع النساء، فها هو رسول الله ﷺ يوصينا بالنساء في كل الأوقات، بل وحتى قبل وفاته ﷺ كان آخر كلامه أن استوصوا بالنساء خيراً، وكان أحن الناس على أزواجه، ففي الحديث الذي أخرجه الترمذي (المناقب ٣٨٣٠) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي**).. وفي بعض أسفاره كان يأخذ أحدى زوجاته ﷺ فحصل أن ساق الحادي الجمل بقوة فوبخه ﷺ على هذا الفعل وأمره أن يرفق بالقوارير أي بالنساء، وسماهنّ كذلك لرقتهن، فقد أخرج البخاري في باب الأدب (٥٧٤١) عَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَسِيرٍ لَهُ فَحَدَا الْحَادِي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**ارْفُقْ يَا أَنْجَشَةُ وَيْحَكَ بِالْقَوَارِيرِ**). والمتتبع لسيرة المصطفى ﷺ وسير الصحابة والتابعين يجد القصص الرائعة التي تذرف لها الدموع من فرط المحبة والإخلاص وحسن التعامل والمودة بين الزوجين في البيت المسلم وبين الحاكم والمحكوم في حالة الدولة والقضاء.

أما قدسية الزواج فقد كرّم الإسلام الزوجة أيما تكريم منذ خطبتها وحتى أقرب الأجلين الموت أو التفريق إن حصل وما يتخلل ذلك من معاملات، وفي كلتا الحالتين لا يجوز للزوج أن يأخذ من الزوجة ما قدمه لها إلا إذا أتت بفاحشة ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾، (النساء:٢٠). وأما الزوجة الصالحة فقد جعلت أعظم كنز يعطى للرجل في دنياه. ففي سنن أبي داود (الزكاة ١٤١٧) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ... ﴾، قَالَ كَبُرَ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ عُمَرُ ﷺ أَنَا أُفَرِّجُ عَنْكُمْ فَانْطَلَقَ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّهُ كَبُرَ عَلَى أَصْحَابِكَ هَذِهِ الآيَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضِ الزَّكَاةَ إِلاَّ لِيُطَيِّبَ مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا فَرَضَ الْمَوَارِيثَ لِتَكُونَ لِمَنْ بَعْدَكُمْ**)، فَكَبَّرَ عُمَرُ ثُمَّ قَالَ لَهُ (**أَلاَ أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ الْمَرْءُ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ وَإِذَا**

غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ).

أسس الشرع الحنيف أسساً رائعة للأسرة فجعلها اللبنة الرئيسية لتكوين المجتمع الذي يرمي لإنشائه. وما أكثر الآيات والأحاديث الشريفة التي تؤسس هذه الحقيقة، فقد جعل الله تعالى وكما ذكرنا ونذكر دائماً الميثاق الغليظ الذي أخذ على أولي العزم من المرسلين عليهم السلام صوناً للعلاقة الزوجية بين الزوجين، فما أروع تلك العلاقة وما أكبرها عند الله تعالى..

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾، (الروم).

لنتدبر النعم التي ذكرت في هذه الآيات المباركات:

١- نعمة خلق الناس وتكوينهم.

٢- نعمة سنة الزواج للتكاثر والحفاظ على الجنس مع ما فيها من متعة ولذة ارتضاها الله لعباده.

٣- نعمة جعل المودة والرحمة بين الزوجين.

٤- نعمة خلق السماوات.

٥- نعمة خلق الأرض.

٦- نعمة اختلاف الألوان والأشكال والأذواق واللغات واللهجات لتسيير شؤون

العباد.

٧- نعمة النوم في الليل.

٨- نعمة السعي لكسب الرزق في النهار.

٩- نعمة البرق وما فيها من فوائد ذكرناها في كتاب النبات فضلاً عن تأثيراتها النفسية والعقلية التي ذكرت في كتاب المادة والطاقة وكتاب الفلك.

١٠- نعمة إنزال المطر لمصالح البشر والحيوان والنبات والتي تصب أيضاً في مصلحة البشر.

١١- نعمة التحكم بقوانين الكون وسماواته الطباق التي فصلناها في كتاب الفلك لمصلحة البشر التي خلق الكون من أجلهم ولأنها معدة لتكوّن الجنان والنيران عندما يأتي أمر الله تعالى، والله أعلم. وجميع قوانين الكون تسير بنظام لا تحيد عنه أعده الله تعالى لها فلا تعصي الله تعالى ما أمرها.

ولعل المتدبر لما جاء في سورة الروم من تعداد لأهم آيات الله تعالى على خلقه يجد أن نعمة تكوين الأسرة جاء بعد نعمة الخلق والتكوين أي ضمن التسلسل الثاني من مجموع أحد عشرة نقطة عددتها الآيات في سياق الذكر للسورة، ومعروف في علوم القرآن أن السياق والسباق يعتبران دليل على أهمية الأمر ضمن تسلسله، وهذا دليل مضاف على أهمية هذه الرابطة، وكأنها محور الكون وأساس وجوده، فلا عجب أن يهتم الشارع بها أيما اهتمام.

لقد فصلنا في سلسلة (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية – الكتاب الثاني عشر (الجملة العصبية والطب النفسي)، والكتاب الرابع عشر (الاقتصاد والاجتماع)- الشيء الكثير عن الزواج وما يتعلق به، إلا أن الحديث هنا سيتركز حول مراعاة القرآن والسنة للحالات النفسية للزوجين، وكيفية إدارة ومعالجة النزاع إن حدث بينهما.

بدءاً وضع القرآن الكريم والسنة المطهرة قوانين تمنع حصول النزاع وهي قوانين الاختيار بين الزوجين، فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾، (النحل:٧٢).. قال بعض أهل التفسير رزق الطيبات في الآية يدخل فيه الرزق بالولد الصالح وهم البنين والحفدة المقصودون فيها وهو دليل على صلاح

الزوجين، ويعضد ذلك تفسير ما كان في قصة موسى والخضر عليهما السلام مع اليتيمين وأبوهما الصالح في سورة الكهف، وكذلك قوله تعالى ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾، (الأعراف:١٨٩). وقوله تعالى ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾، (الإسراء:٧٠).. قال بعض أهل العلم إن من التفضيل الرزق بالولد الصالح، ومنه أن من بعض ما فسرت به قوله تعالى ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾، (الأنعام:٩٥).. ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾، (يونس:٣١).. ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾، (الروم:١٩).. أن إخراج الكافر والطالح (الميت) من صلب المؤمن والصالح (الحي) أو بالعكس هو من أمر الله تعالى وفضله على خلقه.

أما قوله تعالى ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾، (النور:٢٦)، فهو قانون بين واضح جلي لكل ذي عقل وبصيرة أن الزوجين الصالحين هما فعلاً المقربون إلى الله تعالى وإلى الناس لما سينتجوه من عيال بررة صالحين، والعكس يصح أيضاً.

وفي أحاديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه نجد الكثير من الأحاديث التي تشكل لنا القوانين المؤسسة للأسرة الصالحة:

أخرج ابن ماجة (النكاح ١٩٥٨) قال حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّه بن سَعِيد حَدَّثَنَا الْحَارِثُ بن عِمْرَانَ الْجَعْفَرِيُّ عَنْ هِشَامِ بن عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ وَانْكِحُوا الأُكْفَاءَ وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِمْ).

وفي مسند الشهاب (ج: ١ / ص: ٣٧٠ / ٦٣٧) قال أخبرنا هبة الله بن إبراهيم الخولاني ثنا علي بن الحسين بن بندار ثنا أحمد بن عبيد الله يعني الدارمي ثنا عبد الله بن الحسين بن جابر مولى عقيل بن أبي طالب ثنا إسماعيل بن أبي أويس ثنا إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة يعني عن عمه موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ **(ثم قيدوا العلم بالكتاب/أقل من الدَّين تكن حرا وأقل من الذنوب يهن عليك الموت وانظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس)**.. ونفس الحديث رواه الديلمي والبيهقي وغيرهم، كما ونجده في كتب (الفردوس بمأثور الخطاب)، و(عين المعبود)، و(فيض القدير)، و(كشف الخفاء)، و(العلل المتناهية)، وغيرها.

وفي الحديثين السابقين دليل مهم لكل من كان له عقل ولب أو ألقى السمع فهو شهيد حول مسألة التأني في اختيار الزوجة الصالحة لأنها كالأرض إن صلحت صلح النبت وهو الولد، والعكس صحيح.. وأما أسلوب الاختيار الذي يأتي ضمن مرحلة التأني هذه فهو ما تبينه الأحاديث الشريفة أدناه:

١. لعل من أهم ما جاء في هذا ما علمنا إياه رسول الله ﷺ بما أخرجه الترمذي في سننه (النكاح ١٠٠٤) من طريقين: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ)**، قَالَ وَفِي الْبَاب عَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ وَعَائِشَةَ قَالَ أَبو عِيسَى حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ قَدْ خُولِفَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بن سُلَيْمَانَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ وَرَوَاهُ اللَّيْثُ بن سَعْد عَنِ ابْنِ عَجْلاَنَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُرْسَلاً قَالَ أَبو عِيسَى قَالَ مُحَمَّدٌ وَحَدِيثُ اللَّيْثِ أَشْبَهُ وَلَمْ يَعُدَّ حَدِيثَ عَبْد الْحَمِيد مَحْفُوظًا... و في نفس الباب (النكاح١٠٠٥) عَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ فِيهِ قَالَ إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ)**. قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ وَأَبُو حَاتِمٍ الْمُزَنِيُّ لَهُ صُحْبَةٌ وَلاَ نَعْرِفُ لَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرَ هَذَا الْحَدِيثِ.. يقول بعض أهل الحديث إن من معنى الحديث التفرقة بين الدين والخلق، فالدين غير الخلق، الدين يقصد به هنا العبادات والعلاقة مع الله لأن الزوج إن أحب المرأة أكرمها وإن كرهها لم يظلمها. وأما الخُلُق فيقصد به أدب التعامل مع الخَلق، وهو ما يؤدي لحسن التعامل مع

الزوجة، وهنا إشارة إلى تربية الزوج في بيته وأسرته والعادات التي اكتسبها منهم.

٢. في حديث أنواع النكاح للنساء الذي اتفق عليه أغلب أهل السنن (النسائي، الدارمي، أحمد، ابن ماجه،) يذكر لنا رسول الله ﷺ قانوناً مهماً لبقاء الحياة الزوجية وديمومتها وهو أن المرأة ذات الدين هي التي تحفظ لك ديمومة الأسرة والتربية الصالحة ولا يمنع ذلك أنها قد تكون جميلة أو ذات مال أو حسب. يقول ﷺ في الحديث الذي أخرجه النسائي (النكاح ٣١٧٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**تُنْكَحُ النِّسَاءُ لأَرْبَعَةٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**).. قال أهل الحديث أي ثبت زواجك كما يثبت التراب على اليد إن أصابته.. ويعضد ذلك قوله ﷺ في حديث كنز الحياة الدنيا وهو ما صح عن الإمام مسلم في صحيحه (الرضاع ٢٦٦٨) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (**الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**)، وفي سنن أبي داود (كتاب الزكاة ١٤١٧) عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ قَالَ كَبُرَ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَا أُفَرِّجُ عَنْكُمْ فَانْطَلَقَ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّهُ كَبُرَ عَلَى أَصْحَابِكَ هَذِهِ الآيَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضِ الزَّكَاةَ إِلاَّ لِيُطَيِّبَ مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا فَرَضَ الْمَوَارِيثَ لِتَكُونَ لِمَنْ بَعْدَكُمْ**)، فَكَبَّرَ عُمَرُ ثُمَّ قَالَ لَهُ (**أَلاَ أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ الْمَرْءُ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ**)(١).

فإذا ما كان الاختيار مدروساً متكافئاً حسب ما جاء في القوانين القرآنية والنبوية التي بينا بعضها آنفاً فستكون الزيجة عندئذ ناجحة بكل المقاييس، أما إذا اختلت المعادلة لسوء تقدير أحد الأطراف فلا يلومن إلا نفسه.

وعلى كل حال فقد وضع القرآن الكريم الحلول المناسبة التي تحاول منع المشاكل المؤدية إلى الانفصال، فجعل من سورة النساء، الأحزاب، النور، الطلاق، وغيرها من السور والآيات وكذلك أحاديث المصطفى ﷺ مدرسة لذلك.

تدبر معي أخي الكريم كيف يراعي القرآن الكريم الحالة النفسية للزوج والزوجة،

---

(١) انظر كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، الباب الثالث/الفصل الرابع (سقف من فضة وبيوت من زخرف) ففيه تفاصيل واسعة حول هذا الموضوع.

فالزوج يمر بمشاغل الحياة وتعبها وهم العيال واللهث وراء الرزق وطرق أبوابه وما يصاحب هذا من تعب جسمي ونفسي وذهني وجسدي ليؤثر ذلك على نمط سلوكه وتصرفه، وقد يلاقي من التوبيخ والتقريع والإهانة من رب العمل، أو المنغصات من الناس ما يجعله يعود لبيته منهكاً ليحول كل ذلك إلى أسرته وزوجه وعياله... وتلك المرأة المسكينة تمر بمراحل تغير من نفسيتها بل وحتى من نمط تفكيرها وتبعاً لذلك عمل هرموناتها، فمن رهبة الدخول لقفص الزوجية، مروراً بالحمل والولادة والرضاعة والنفاس والحيض وما يصاحب كل ذلك من تأثير على الحالة النفسية والجسدية والذهنية لها، فضلاً عن أنها مسؤولة عن مراعاة مزاج الزوج وتقلباته وتربية الأطفال ومعاناته وواجبات البيت وإفرازاته مع تحمل أمراض المجتمع وإرهاصاته... فقد أثبتت البحوث الحديثة أن الحيض لوحده (وهو كما يعرفه الأطباء والمختصون بأنه إسقاط مصغر) يجعل من حال المرأة كحال المجنونة أقرب منها إلى العاقل لما له من تأثيرات سلبية على كل خلية فيها، فيتغير المزاج والتفكير وتتدهور الصحة والتركيز وتضعف السيطرة على الأعصاب وما إلى ذلك من تغييرات تم تثبيتها خلال التجارب والبحوث الحديثة، وقد ذكرنا بعض الإعجازات القرآنية في موضوع الحيض في الكتاب التاسع من سلسلة ومضات (كتاب الطب).

إلى كل تلك الأسباب وغيرها شرع القرآن الكريم والسنة المطهرة أساليب للعلاج النفسي والاجتماعي لمراعاة حالات الخلاف والاختلاف بين الزوجين منعاً للكارثة، ومن ذلك ما جاء في سورة الطلاق بأسرها وكيف أن الخطاب فيها جاء – لمن يتدبر – وكأن الله تعالى بعظمته وجلاله يتقدم بالرجاء للزوج أن يعرض عن فعلة الطلاق فيخاطبه تعالى، وما أعظم الخطاب، بعد كل تفصيل في السورة بعبارة ﴿.. ومن يتق الله..﴾، أي من يخاف ربه فعلاً فلا يطلق زوجه مهما كانت الأسباب إلا التي يستوجب الطلاق فيها كفعل القبيح والعياذ بالله، فقد جاءت هذه العبارة ثلاث مرات في السورة للتأكيد على هذا الطلب، تخيل أخي الكريم أن الله تعالى يتقدم إليك بالرجاء، فأي منزلة للأسرة والمرأة تلك التي رسمها الإسلام، وليسمع كل أعدائه عظمة هذا الدين، وليفهم كل الأدعياء والجهلة كم هي الرقة ودفيء المشاعر التي يرسمها لنا شرعنا الحنيف في أحلك الظروف التي تمر بها الأسرة، اسمع يا أخي وتدبر:

- **الرجاء الأول بعدم الطلاق حتى إن كان الأمر قد وصل إليه، فالتراجع عنه أقرب لمحبة الله ورضوانه حفاظاً على رباط الأسرة التي هي عند الله تعالى ميثاق غليظ،**

رجاء جزاءه تفريج الهم: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ﴾، (الطلاق: ٢).

• **الرجاء الثاني بعدم الطلاق، رجاء جزاءه فتح أبواب الرزق مع تيسير الحال في الدنيا:** ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾، (الطلاق: ٤).

• **الرجاء الثالث بعدم الطلاق، وجزاءه أعظم من سابقيه وهو تكفير السيئات وتعظيم الأجر في الآخرة:** ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾ ، (الطلاق: ٥).

والأمثلة في هذا المقام أكثر من أن تضرب، ولكن دعونا نتدبر ما جاء في سورة النساء حول الإجراءات الاحترازية والوقائية والنفسية في منع حدوث الخلاف المؤدي للهدم والطلاق، يقول تعالى:

١- ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾، (النساء: ٣٤)[1].

٢- ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن

---

(١) تطرقنا إلى معنى القوامة للرجال على النساء في كتابنا هذا ولكننا فصلنا في كتاب (الاقتصاد والاجتماع) من سلسلة (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية)، فإليه أحيل القارئ الكريم... كما وأن معنى النشوز أي الإعراض عن واجب المطاوعة لا يعني هنا تسلط الرجال واستغلالهم لهذه الصلاحية في التعدي على الزوجة لأقل تقصير قامت به، وإنما فصّل أهل العلم في هذا، ولكن الجهل الغالب على الناس في أمور دينهم وتغييب التعليم الصحيح لمفاهيم الشريعة بل والتهكم بها في وسائل الإعلام المغرضة جعل أكثر الناس يلومون الدين ويحولون المباح بشرط إلى حلال مطلق، فنعيب زماننا والعيب فينا.....

يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾ ﴾، (النساء:٣٥).. ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ ﴾، (النساء:١٢٨).. فعملية إدخال عنصر الإصلاح من قبل آخرين هو الدور الذي يمثله اليوم وفي زماننا المتطور هذا المصلح الاجتماعي أو قل المراقب والباحث الاجتماعي، واختيار الأقرباء والعقلاء منهم هو لحرصهم على الإصلاح أكثر من غيرهم. إذ عندما تصل الأمور بين الزوجين بأن يتملكهما الغضب ويأخذهما الاعتداد بالنفس والعزة بالإثم كل مأخذ فعندئذ لا يمكن للنصح أن يفعل فعله، فلا بد من طرف متعقل يتصدى للأمر ويأخذ بزمام المبادرة لفعل الصلح الذي جعله الله تعالى واحداً من أهم أنواع الحديث الدائر بين الناس لأن أكثره في أمور تافهة أو باطلة أو لا تؤدي لسمو البشر، فقال تعالى ليبين عظمة فعل الصلح والإصلاح ﴿ ۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ ﴾، (النساء:١١٤).

ولعلنا لا نعطي للموضوع حقه ولا نفيه كل تفاصيله مما جاء في هذا الأمر من آيات وأحاديث، وحسبنا أننا بينا عظمة السبق القرآني في علاج حالات الخلل النفسي والاجتماعي في الأسرة وأعضاءها. ونترك الإفادة لأهل الاختصاص والإجادة.

أما تعدد الزوجات والتي أخذها الغرب حجة على الإسلام كما توهموا، فهي اختيارية وشرعت لأسمى غرض وهو الخوف على النساء من الضياع خصوصاً أولاء الأطفال منهن والذين لا يجدون من يعيلهن، فهي اختيار وبشروط مهمة أهمها إقامة العدل بينهن فإذا تعذر ذلك فزوجة واحدة تكفي ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ ﴾، (النساء:٣). تدبر الآية وانظر أنها شرطية ابتدأت بـــ (وإن) أداة شرط. أي إن خفتم ألا تعطوا اليتامى حقوقهم فلكم أن تتزوجوا من أمهاتهن لترعوهم، ثم تعود الآية لتقول، فـــ (إن) مرة أخرى خفتم ألا تعدلوا بين النساء

فزوجة واحدة فقط. ويدل على صعوبة القدرة على العدل بين النساء قوله تعالى ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾، (النساء:١٢٩).

وكان رسول الله ﷺ دائماً ما يطبق العدل بين الزوجات في الأمور الدينوية والمعيشية فيوزع عليهن الرزق بالتساوي وكذلك كان يعطيهم حق الزوجية دون تمييز، أما في الأمور العاطفية فقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها أحب زوجاته إلى قلبه وأمور القلب ليس للإنسان عليها من سلطان. فقد أخرج الترمذي (النكاح ١٠٥٩) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِه فَيَعْدِلُ وَيَقُولُ: (**اللَّهُمَّ هَذِه قِسْمَتِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلاَ تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ**)، قَالَ أَبو عِيسَى حَدِيثُ عَائِشَةَ هَكَذَا رَوَاهُ غَيْرُ وَاحِد مُرْسَلاً. وَمَعْنَى قَوْله لاَ تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ إِنَّمَا يَعْنِي بِهِ الْحُبَّ وَالْمَوَدَّةَ كَذَا فَسَّرَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْم.

ولك أخي الكريم أن تعرف سماحة الإسلام في التشريع الذي ينظر لكل الناس صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم ليحقق العدل. فكل تلك التفاصيل لتبين لك عظمة الزواج ومكانة الزوجة، كيف لا وقد جعلت وثيقة الزواج ميثاقاً غليظاً يشبه الميثاق الغليظ الذي أعطي لأولي العزم من الأنبياء عليهم السلام[(١)].

ولقد ذكرنا بعض الحالات التي ساهمت فيها المرأة في الحرب والسلم والتمريض في كتاب آخر[(٢)]، ونضيف أن الإسلام أعطى حقاً للمرأة في أمور عديدة اقتصادية واجتماعية وعلمية وغيرها. ولكن الشرع الحنيف ثبّت حقائق واضحة لا يمكن تجاوزها، ألا وهي أن الرجل أفضل من المرأة لا لغرض التفضيل المتعصب، ولكن لأن الرجل يمتلك من المقومات الخلقية والخلقية ما يجعله كذلك.

على أن الجهال وأصحاب الأغراض والمصالح الضيقة والفهم القاصر للدين استغلوا هذه الحقيقة فقدموا نماذج صارخة لظلم والمرأة واستغلالها السيئ عبر التاريخ قديمه وحديثه، فحصلت ردة فعل طبيعية للمرأة معتقدة أن الثورة على التقاليد الشرعية ونفي الدين وإبعاد الشريعة عن واقعنا هو الحل، فتسممت الأفكار بدعاوى الغرب في تحرير

---

(١) وكما فصلنا في كتاب الطب من سلسلتنا (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية).

(٢) وكما فصلنا في كتاب الطب من سلسلتنا (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية).

المرأة، والتي جاءت بعد عقود الظلم التي عاشتها هناك.

يبين الله تعالى أن للذكر أحقية عن الأنثى من أوجه عدة لا لتحقير المرأة بل لتكريمها. فكما أن الملك أو المسؤول يحمى من قبل أناس متخصصون أقوى منه خوفاً من غدر الغادرين، وكما أن الجواهر تحمى في زجاج خاص خوفاً من السراق، كذلك المرأة جعلت بهذه المواصفات كي تكرّم وتحمى لأنها لا تقدر على معترك الحياة القاسية لوحدها دون رجل يقوم عليها ويحميها ويوفر لها سبل العيش الرغيد، تماماً كما أن الرجل القوي لا يقدر على هذه الحياة بدون المرأة..

وهنا نريد أن نعكس الحالة فنقول مثلاً لماذا أحل الله الفضة للمؤمنين من الذكور في الدنيا وحرّم الذهب، بينما أحلهما للإناث، هل ليحقّر الرجال مثلاً دون النساء، أم في المسألة اعتبارات أخرى؟!.

لقد أثبتت البحوث الطبية أن الذهب يؤثر على كريات الدم الحمراء للرجال دون النساء بسبب وجود طبقة شحمية بين الجلد واللحم للنساء تمنع الإشعاعات الناتجة من معدن الذهب. والذي يبلغ عمر النصف فيه ٢,٧ يوماً، بينما لا تؤثر إشعاعات معدن الفضة على الرجال والنساء، كما أثبتت البحوث الطبية العديدة أن إشعاعات الذهب لها دور سلبي على الهرمونات الجنسية الذكرية. وعن كتاب أطلس الكون الذري للدكتور أنيس الراوي، فإن جسم الإنسان لا يحوي على الفضة في تركيبه بينما يحوي الذهب واليورانيوم والحديد وأغلب العناصر الأخرى، كما وان الفضة والذهب كأوانٍ يتفاعلان مع مركبات الطعام لتكوين مركبات تتفاعل مع الأنزيمات البشرية فتكون مادة تؤذي صحة الجسم.. وهذا بالضبط ما اخبرنا به ﷺ بقوله «**الذهب والحرير حرام على ذكور أمتي حل لإناثها**» (١)، وقد نهانا ﷺ عن الشرب بآنية الذهب والفضة ولبس الحرير والديباج وقال «**هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة**» (٢)، كما وأن الفضة ارخص بكثير من الذهب وهي تلائم حالة الأمة الوسط التي ارادها الله لأمتنا. وهذا ما يثبت لنا مدى الفائدة العظيمة من تحريم الذهب على الرجال من أمة سيدنا محمد ﷺ بسببها وكم أن

---

(١) أخرجه النسائي (الزينة ٥١٤٤)، أبو داود (اللباس ٤٠٥٧) ابن ماجة (اللباس ٣٥٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (كتاب الأتربة —٥٦٣٢) مسلم (اللباس والزينة —٢٠٦٧) والترمذي والنسائي وآبو داود وابن ماجة.

الإسلام يراعي الناس بكل أحوالهم، فما من تحريم لشيء إلا وجاء بسبب فائدة إما صحية أو اجتماعية أو نفسية أو غيرها.

إذن، هنا اختصاص لحالة عامة إذ أن التحريم للذهب جاء للذكور لأسباب عدة منها صحية ومنها نفسية واجتماعية وغيرها وليس تحقيراً لهم بل تكريماً وفائدة، فنفس الكلام ينطبق على التفاصيل الشرعية في حقوق المرأة وواجباتها.

هذه الحقيقة تؤكد أن تكريم المرأة وعلو شأنها في الإسلام جاء لعظمة دورها في المجتمع الإسلامي، وكما أن الذهب يتعب لاستحصاله فهو إما في باطن الأرض أو عند الجواهري فلا يستحصل إلا بمال كثير فكذلك المرأة المسلمة كنز لا يرى إلا لصاحبه ولا يستحصل إلا بتعب وثمن غال وكل من يريد أن يغير هذه السنة الا وهي كرامة المرأة وسترها وحجابها وعدم ظهور زينتها إلا لزوجها والمحارم فقد ساهم في تغيير سنة الله في خلقه وتناغم مخلوقاته ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ ﴾، (النساء: ٢٧)، والله اعلم[1].

جاءت الآيات التي تؤكد على حقيقة قوامة الذكر على الأنثى كما يلي:

١. **في المجال القضائي:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ

(١) المنظار الهندسي للقرآن الكريم، للمؤلف، ص (٥٧٢-٥٨٢)، بتصرف.

كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾، (البقرة:٢٨٢).. ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾، (النساء:١١).. في هذه الآيات المباركات دلائل واستنباطات عديدة منها اقتصادية في أهمية الاكتتاب والعقد والشهود ، ومنها اجتماعية لغرض تثبيت الحقوق لكل الأطراف في الميراث والعقود، ومنها حقائق علمية في أن حقل الذاكرة في دماغ الرجل أكبر منه عند الأنثى لذلك يتم الاعتماد في الشهادة على الرجال أكثر من النساء، وقد فصلنا في هذا في كتاب الجملة العصبية.

٢. **في المجال الفيزيائي والجسماني:** ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾، (آل عمران:٣٦)..﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾، (النساء:٣٤).. تبين الآيات أن الرجال أكثر قوة في أمر العمل والمشاق الجسمانية من المرأة. وكان لهذا التفضيل السبب الرئيسي الذي جعل للرجل القيومية على الأسرة.

معنى القوامة في الإسلام: لكي نفهم المسألة علينا فهم الآية المتعلقة بالقوامة من خلال علوم القرآن الكريم من حيث الإعراب وسبب النزول والتفسير لغة واصطلاحاً ومعنى. وذلك من خلال مراجعتنا لما ذكرته المصادر التالية:

١. **التبيان في إعراب القرآن** (ج: ١ ص: ١٧٨): قوله تعالى (قوامون على النساء)، على متعلقة بكلمة (قوامون) و بما متعلقة به أيضاً، ولما كان الحرفان بمعنيين جاز تعلقهما بشيء واحد فعلى على هذا لها معنى غير معنى الباء ويجوز أن تكون الباء في موضع الحال فتتعلق بمحذوف تقديره مستحقين بتفضيل الله إياهم وصاحب الحال الضمير في قوامون وما مصدرية فأما ما في قوله وبما أنفقوا فيجوز أن تكون مصدرية فتتعلق بمن أنفقوا، ولا حذف في الكلام ويجوز أن تكون بمعنى الذي والعائد محذوف أي وبالذي أنفقوه فعلى هذا يكون من أموالهم حالا فالصالحات مبتدأ قانتات حافظات خبران عنه وقرىء فالصوالح قوانت حوافظ وهو جمع تكثير دل على الكثرة وجمع التصحيح لا يدل على الكثرة بوضعه وقد استعمل فيها كقوله تعالى وهم في الغرفات آمنون بما حفظ الله في ما ثلاثة أوجه بمعنى الذي ونكرة موصوفة والعائد محذوف على الوجهين ومصدرية وقرىء بما حفظ الله بنصب اسم الله وما على هذه القراءة بمعنى الذي أو نكرة والمضاف محذوف والتقدير بما حفظ أمر الله أو دين الله وقال قوم هي مصدرية والتقدير حفظهن الله وهذا خطأ لأنه إذا كان كذلك خلا الفعل عن ضمير الفاعل لأن الفاعل هنا جمع المؤنث وذلك يظهر ضميره فكان يجب أن يكون بما حفظهن الله وقد صوب هذا القول وجعل الفاعل فيه للجنس وهو مفرد مذكر فلا يظهر له ضمير واللاتي تخافون مثل قوله واللاتي يأتين الفاحشة ومثل واللذان يأتيانها وقد ذكرا واهجروهن في المضاجع في وجهان أحدهما هي ظرف للهجران أي اهجروهن في مواضع الاضطجاع أي اتركوا مضاجعهن دون ترك مكالمتهن.

٢. **العجاب في بيان الأسباب** (ج: ٢ ص:٨٦٨- ٨٦٩): قوله تعالى الرجال (قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض)، الآية. أخرج ابن أبي حاتم من طريق أشعث بن عبد الملك عن الحسن قال جاءت امرأة إلى النبي تستعدي على زوجها أنه لطمها فقال رسول الله ﷺ القصاص فأنزل الله تعالى الرجال قوامون على النساء الآية فرجعت بغير قصاص وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر من طريق حماد بن سلمة وأخرجه الواحدي من طريق هشام كلاهما عن يونس وأخرج ابن المنذر من طريق جرير بن حازم كلاهما عن الحسن أن رجلا لطم امرأته فخاصمته إلى النبي فجاء أهلها معها فذكر نحوه وفيه فجعل رسول الله يقول القصاص القصاص ولا يقضي قضاء فأنزل الله هذه الآية فقال النبي أرادوا أمرا وأراد الله غيره ونقل الثعلبي عن الكلبي قال نزلت في

سعد بن الربيع وامرأته عميرة بنت محمد بن مسلمة وذكر نحو القصة الآتية عن مقاتل... ونقل عن أبي روق أنها نزلت في جميلة بنت عبد الله بن أبي وزوجها ثابت بن قيس بن شماس كانت نشزت عليه فلطمها فاستعدت عليه فنزلت قلت وقد تقدم ذكر هذه الأخيرة في تفسير البقرة في قوله تعالى فيما افتدت به وكان ذلك ٣٦٨ الخلع أول خلع في الإسلام وقال مقاتل نزلت في سعد بن الربيع كان من النقباء وامرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير وهما من الأنصار وذلك إنها نشزت عليه فلطمها فانطلق أبوها معها إلى رسول الله فقال أفرشته كريمتي فلطمها فقال لتقتص من زوجها فانصرفت مع أبيها لتقتص منه فقال النبي ارجعا هذا جبريل أتاني فأنزل الله تعالى الرجال قوامون على النساء الآية، فقال النبي أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذي أراد الله خير ورفع القصاص وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة صك رجل امرأته فأتت النبي فأراد أن يقيدها منه فنزلت وأخرجه عبد بن حميد من رواية سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بلغنا فذكر.

٣. **لسان العرب**(ج: **١٢** ص: **٤٩٧، ٥٠٣– ٥٠٥**): و القامة جمع قائم عن كراع قال ابن بري رحمه الله قد ترتجل العرب لفظة قام بين يدي الجمل فيصير كاللغو ومعنى القيام العزم كقول العماني الراجز للرشيد عندما هم بأن يعهد إلى ابنه قاسم

قل للإمام المقتدى بأمه ما قاسم دون مدى ابن أمه فقد رضيناه فقم فسمه

أي فاعزم ونص عليه، ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ ﴾ أي لما عزم وقوله تعالى ﴿ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي عزموا فقالوا قال وقد يجيء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح ومنه قوله تعالى ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗا ﴾ أي ملازما محافظا، ويجيء القيام بمعنى الوقوف والثبات. يقال للماشي قف لي أي تحبس مكانك حتى آتيك وكذلك قم لي بمعنى قف لي وعليه فسروا قوله سبحانه ﴿ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ ﴾ قال أهل اللغة والتفسير قاموا هنا بمعنى وقفوا وثبتوا في مكانهم غير متقدمين ولا متأخرين ومنه التوقف في الأمر وهو الوقوف عنده من غير مجاوزة له ومنه الحديث المؤمن وقاف متأن. ومنه قامت الدابة إذا وقفت عن السير و قام عندهم الحق أي ثبت ولم يبرح ومنه قولهم أقام بالمكان هو بمعنى الثبات. ويقال قام الماء إذا ثبت متحيرا لا يجد منفذا وإذا جمد أيضا، وقامت السوق إذا نفقت ونامت إذا كسدت وسوق قائمة نافقة وسوق نائمة كاسدة وقاومته قواما قمت

معه صحت الواو في قوام لصحتها في قاوم. والقومة ما بين الركعتين من القيام قال أبو الدقيش أصلي الغداة قومتين والمغرب ثلاث قومات وكذلك قال في الصلاة وقام الرجل على المرأة مانها وإنه لقوام عليها مائن لها وفي التنزيل العزيز ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ وليس يراد ههنا والله أعلم القيام الذي هو المثول والتنصب وضد القعود إنما هو من قولهم قمت بأمرك، فالرجال متكفلون بأمور النساء معنيون بشؤونهن وكذلك قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي إذا هممتم بالصلاة وتوجهتم إليها بالعناية وكنتم غير متطهرين فافعلوا كذا. وأقام الصلاة إقامة و إقاما فإقامة على العوض و إقاما بغير عوض وفي التنزيل ﴿ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ومن كلام العرب ما أدري أأذن أو أقام يعنون أنهم لم يعتدوا أذانه أذانا ولا إقامته إقامة لأنه لم يوف ذلك حقه فلما ونى فيه لم يثبت له شيئا منه إذ قالوها بأو ولو قالوها بأم لأثبتوا أحدهما لا محالة وقالوا قيم المسجد وقيم الحمام قال ثعلب قال ابن ماسويه ينبغي للرجل أن يكون في الشتاء كقيم الحمام وأما الصيف فهو حمام وجمع قيم عند كراع قامة قال ابن سيده وعندي أن قامة إنما هو جمع قائم على ما يكثر في هذا الضرب والملة القيمة المعتدلة والأمة القيمة كذلك وفي التنزيل ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ أي الأمة القيمة وقال أبو العباس والمبرد ههنا مضمر أراد ذلك دين الملة القيمة فهو نعت مضمر محذوف. وقال الفراء هذا مما أضيف إلى نفسه لاختلاف لفظيه، قال الأزهري والقول ما قالا وقيل الهاء في القيمة للمبالغة ودين قيم كذلك وفي التنزيل العزيز ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، وقال اللحياني وقد قرىء دينا قيما أي مستقيما قال أبو إسحاق القيم هو المستقيم و القيم مصدر كالصغر والكبر إلا أنه لم يقل قوم مثل قوله ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ لأن قيما من قولك قام قيما وقام كان في الأصل قوم أو قوم فصار قام فاعتل قيم وأما حول فهو على أنه جار على غير فعل وقال الزجاج قيما مصدر كالصغر والكبر وكذلك دين قويم و قوام ويقال رمح قويم و قوام قويم أي مستقيم، قال إلا أن القيم مصدر بمعنى الاستقامة. وأما قوله قد قامت الصلاة فمعناه قام أهلها أو حان قيامهم وفي حديث عمر في العين القائمة ثلث الدية هي الباقية في موضعها صحيحة وإنما ذهب نظرها وإبصارها.. وفي حديث أبي الدرداء (رب قائم مشكور له ونائم مغفور له)، أي رب متهجد يستغفر لأخيه النائم فيشكر له فعله ويغفر للنائم بدعائه وفلان أقوم كلاما من فلان أي أعدل كلاما و القوم الجماعة من

الرجال والنساء جميعا وقيل هو للرجال خاصة دون النساء ويقوي ذلك قوله تعالى ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ أي رجال من رجال ولا نساء من نساء فلو كانت النساء من القوم لم يقل ولا نساء من نساء، و قوم كل رجل شيعته وعشيرته وروي عن أبي العباس النفر و القوم والرهط هؤلاء معناهم الجمع لا واحد لهم من لفظهم للرجال دون النساء وفي الحديث إن إنساني الشيطان شيئا من صلاتي فليسبح القوم وليصفق النساء قال ابن الأثير القوم في الأصل مصدر قام ثم غلب على الرجال دون النساء ولذلك قابلهن به وسموا بذلك لأنهم قوامون على النساء بالأمور التي ليس للنساء أن يقمن بها. الجوهري القوم الرجال دون النساء لا واحد له من لفظه قال وربما دخل النساء فيه على سبيل التبع لأن قوم كل نبي رجال ونساء والقوم يذكر ويؤنث لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت للآدميين تذكر وتؤنث مثل رهط ونفر وقوم قال تعالى ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ ﴾ فذكر وقال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ فأنث قال فإن صغرت لم تدخل فيها الهاء وقلت قويم ورهيط ونفير وإنما يلحق التأنيث فعله ويدخل الهاء فيما يكون لغير الآدميين مثل الإبل والغنم لأن التأنيث لازم له وأما جمع التكسير مثل جمال ومساجد وإن ذكر وأنث فإنما تريد الجمع إذ ذكرت وتريد الجماعة إذا أنثت ابن سيده وقوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ إنما أنث على معنى كذبت جماعة قوم نوح وقال المرسلين وإن كانوا كذبوا نوحا وحده لأن من كذب رسولا واحدا من رسل الله فقد كذب الجماعة وخالفها لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل وجائز أن يكون كذبت جماعة الرسل وحكى ثعلب أن العرب تقول يا أيها القوم كفوا عنا وكف عنا على اللفظ وعلى المعنى وقال مرة المخاطب واحد والمعنى الجمع والجمع أقوام و أقاوم و أقايم كلاهما على الحذف قال أبو صخر الهذلي أنشده يعقوب

فإن يعذر القلب العشية في الصبا ... فؤادك لا يعذرك فيه الأقاوم

ويروى الأقايم وعنى بالقلب العقل وأنشد ابن بري لخزر بن لوذان

من مبلغ عمرو بن لأ ... ي حيث كان من الأقاوم

وقوله تعالى ﴿فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾ قال الزجاج قيل عنى بالقوم هنا الأنبياء عليهم السلام الذين جرى ذكرهم آمنوا بما أتى به النبي ﷺ في وقت مبعثهم وقيل عنى

به من آمن من أصحاب النبي وأتباعه وقيل يعنى به الملائكة فجعل القوم من الملائكة.

٤. **تفسير البيضاوي**(ج: ٢ ص: ١٨٤): الرجال قوامون على النساء يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية وعلل ذلك بأمرين وهبي وكسبي فقال بما فضل الله بعضهم على بعض بسبب تفضيله تعالى الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة في الأعمال والطاعات ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر والشهادة في مجامع القضايا ووجوب الجهاد والجمعة ونحوها والتعصيب وزيادة السهم في الميراث والاستبداد بالفراق وبما أنفقوا من أموالهم في نكاحهن كالمهر والنفقة.

إذن يفهم من معنى القوامة من كل ما سبق أنها تعني الاهتمام، العناية، الرعاية، توفير الأمن والسكن والطعام والملبس وكل شؤون الحياة، تقديم المشورة والنصح. وكل تلك المعاني تتطلب الخلق الحسن وحسن المعاملة والعشرة والإحسان والصبر على المرأة إن حصل منها تقصير في شؤون معينة بل وحتى في شؤون الطاعة لقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾، (طـه:١٣٢). ويتبين من مراجعة المصادر أعلاه أن من ضمن أسباب التنزيل للآية أن رجلاً قد ضرب امرأته فجاءت تشتكي إلى النبي ﷺ لأنها تعرف أنه ﷺ سيأخذ لها الحق، وقد همّ بأخذ القصاص لها لولا أن جبريل عليه السلام جاء بالأمر الإلهي أن الرجال أحق بالقوامة. ولا يظن البعض هنا أن الرجال من حقهم ضرب المرأة لأي سبب، وإنما جاءت الآية لتعطي معنى أنه في حالة استخدام الضرب كحل أخير بعد انتهاء كل الأساليب الأخرى يكون تأديبياً وألا يكون مبرحاً ويتجنب الوجه كما جاء في الأحاديث، ولكي يعطي قناعة أنه في حالة الحصول لا يفترض القصاص المقابل من قبل المرأة للرجل بضربه لأنه لو شرع ذلك فلك أن تتخيل أن المرأة تضرب زوجها، فهل تبقى بعد ذلك قيمة للزوج كقيّم عليها واجب الاحترام. وبالمقابل على الزوج أن يتجنب الضرب والإهانة ويستخدم الحجة ويتحلى بالصبر.

القوامة التي عنتها الآية الكريمة لا تكون للرجل بوصفه ذكراً على المرأة بوصفها أنثى لقوة جسمه وتحمله المشاق حسب، ولكن يكون له بما يكتسبه من أخلاق، ويمارسه من أدوار على المرأة بما تكتسبه من أدوار وأخلاق، فقد خلق الله تعالى الذكر وفيه استعداد فطري لكي يكون رجلاً مسؤولاً وراعياً كما خلق المرأة ولها استعداد فطري لتكون حانية راعية مهتمة بشؤون أولادها وزوجها. واكتساب القوامة للرجل لغة بقيامه على شؤون الأسرة بكافة احتياجاتها كالأمن والعيش وغيره. وعلى هذا الأساس تفهم القوامة من فهم المسؤولية والرعاية والإدارة والإشراف التي أرشد لها الحديث (كلكم راع)،

وليس التحكم والسيطرة. فالقوامة إمارة لا من باب الولاية السياسية والسلطة الاستبدادية، من باب (تفضل على من شئت تكن أميره)، دون منٍ أو تطاول[1].

ولغرض فهم أشمل للفروقات بين الجنسين من النواحي الجسمانية والذهنية والفيزيائية بإمكان القارئ الكريم العودة إلى كتابنا المتعلق بهذا الموضوع ضمن سلسلة كتب (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية-الكتاب الرابع عشر/ الاقتصاد والاجتماع) ففيه تفاصيل مهمة تكمل الصورة التي بينا بعضها في مقامنا هذا.

منزلة الوالدين في الإسلام:

أما عن الوالدين واحترامهما فإنه لا يوجد تشريع أرضي أو سماوي أعطى لهما أهمية قدر اهتمام الإسلام بهما، فيكفي أن القرآن الكريم قد قرن في غير موضع الإشراك بالله بعقوقهما ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾، (الإسراء).. هذه الآية تحديداً عندما قرأها الأمير تشارلز الشخصية البريطانية المعروفة وأمير ويلز تغيرت نظرته تماماً عن الإسلام، فامتدحه بخطبة مشهورة أمام البرلمان البريطاني عام ١٩٩٦م.

وبعد خير الكلام كلام الله يأتي خير الهدي هدي رسولهﷺ في مسألة الوالدين، وقد جعل بر الوالدين مفضلاً على الجهاد في سبيل الله وهو ما قاله ﷺ للصحابي الذي أراد الجهاد «**ألك والدان**»، قال نعم، قال ﷺ «**ففيهما جاهد**»، وعَنِ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺأَيُّ الأعْمَالِ أَفْضَلُ قَالَ «**الصَّلاةُ لِوَقْتِهَا وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»، وفي حديث قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّ الأعْمَالِ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ قَالَ «**الصَّلاةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا قُلْتُ وَمَاذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ قُلْتُ وَمَاذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**».

ولنا عودة على هذا الموضوع عند حديثنا عن قوانين البناء السلوكي والدعوة بالخير في الباب الثاني.. وبعد فهذا غيض من فيض رحمة الإسلام الشاملة لكل خلق الله تعالى

---

(١) مجلة الأسرة السعودية، العدد١٢٤، رجب ١٤٢٤هـ، ص (٢٢ — ٣٦)، بتصرف.

والتي لم تتميز بشموليتها وخصائصها أية حضارة أخرى باعتراف كبار منظري ومستشرقي الغرب (*). وتلك مقارنة بسيطة لأجل وضع القارئ الكريم بالصورة المطلوبة للدخول في قوانين القرآن الكريم في الحضارات.

النظام الاقتصادي في الإسلام

إن ما يشهده العالم من ظلم اقتصادي لفئات كبيرة من المجتمع البشري يؤكد ضرورة ملحة ألا وهي إيجاد كيفية وأسلوب لتكوين نظام اقتصادي يجعل العدالة هي السمة الأبرز لمفرداته، ويطرد كل الأفكار التي من شأنها أن تكون دولاً غنية وأخرى فقيرة أو على الأقل أن يكون الفرق بسيطاً مقبولاً وليس ساحقاً للغالبية الفقيرة.

إن أهم مبدأ جاء به التشريع الاقتصادي الإسلامي هو إزالة تلك الهوة بين الفريقين الأغنياء والفقراء ومحاولة تقليصها قدر الإمكان. يقول الله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾، (الحشر:٧).

أي لكي لا تكون الغنائم محصورة بين مجموعة الأغنياء فقد شرع التوزيع للجميع دون استثناء، فالمبدأ إذن منع الاحتكار المالي والسلعي كي لا يحصل الخلل والمن ثم المظالم والمآسي التي تؤدي إلى الاقتتال من أجل المال. وإنك لتجد في التشريع الحنيف ما أغنانا عن ذكره الكثير من الباحثين والمتخصصين في هذا الشأن المهم، وما ذكر في الكتب والمؤلفات والمجلدات ما يجعلنا نبتعد عن التفصيل ونقترب من الاختصار. دائماً ما يحث الإسلام وكتابه رسول الله ﷺ الناس على التكامل والتكافل الاقتصادي، وينهاهم عن الاحتكار والغش والسحت والسرقة وأكل مال اليتيم واليمين الفاجر والربح الفاحش وغير ذلك من القيم الرائعة في التعامل التجاري والاقتصادي بين الأفراد والدول، كما شرعت الزكاة وجعلت من دعائم النظام الإسلامي لما لها من أثر إيجابي على المجتمع، وكذا والصدقات والمكوس ونظم بيت المال للحفاظ على التوازن بين الغني والفقير في

(*) لتفاصيل أكثر في هذا الموضوع يراجع كتابنا (الاقتصاد والاجتماع)، ضمن سلسلتنا (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية).

الأمة. وقد فرض على الأغنياء ما يغني الفقراء وهدد الممانعون بأشد العقاب في الدنيا والآخرة لأن الفقر كاد أن يكون كفراً، كما جعل الدّين ثقيلاً على النفس لأنه يمنع الحي من الراحة والميت من نيل الأجر حتى يسدد عنه دّينه. وقد طبق كل ذلك في عهود كثيرة وأثبت نجاحه وتميزه.

الناحية الاقتصادية في نظام الحكم الإسلامي تستند على مسألتين، الأولى هي كيفية أخذ الدولة للمال من الأمة، والثانية كيفية إنفاقه. أما الأولى، فكانت الدولة الإسلامية تأخذ الزكاة على الأموال والأراضي وعروض التجارة والمواشي والزروع والثمار، باعتبار أن الزكاة عبادة، لتقوم بتوزيعها على مستحقيها من الأصناف الثمانية المقررة شرعاً، كما تأخذ الخراج والجزية وضرائب الجمارك بحكم إشرافها على التجارة في الصعيدين الداخلي والخارجي، وكانت تقوم على إدارة ما هو داخل في الملكية العامة أو ملكية الدولة كالمعادن والقنوات وغيرها من موارد بيت المال. أما من حيث إنفاق هذه الأموال فإنها توزعها حسب الأحكام الشرعية، وقد طبقت أحكام النفقة على العاجز وحجزت على السفيه والمبذر، وأوجدت أماكن الفقراء والمعسرين، ونفذت أحكام العمل والعمال، ومنعت الاحتكار والغش والاستغلال والرشاوى وكل وسائل الكسب غير المشروع. ومن الحق أ ن نقول أن بعض الحكام كانوا يسيئون تطبيق أحكام الشرع في هذه الناحية، وكان البعض الآخر يحسن غاية الإحسان في رعاية هذه الناحية، تبعاً لنفسية الحاكم ومدى التزامه بالأحكام الشرعية، وموقف الأمة منه وخصوصاً العلماء، فإذا حصل لبعض الحكام أن يقصر ويسيء فلا يعني هذا عدم التطبيق(١).

لا أريد هنا أن أدخل في تفاصيل هذا العلم الواسع وعظمة التشريع الإسلامي في الزكاة والصدقات والتدابير الاقتصادية الإسلامية العظيمة الأخرى والتي تحتاج إلى مجلدات كثيرة لتفصيلها وهذا يترك لأهل الاختصاص(٢). إلا أنني سأركز على أمر غاية في الخطورة بل هو أخطبوط مرعب التهم العالم كله بسبب نظام اقتصادي غير عادل حذر الإسلام منه أيما تحذير ألا وهو (الربا).

---

(١) الإسلام بين العلماء والحكام، الشيخ الشهيد عبد العزيز البدري، ألفه عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م، مطبعة أنوار دجلة، بغداد، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص١٣-١٤.

(٢) بإمكان القارئ الكريم الرجوع إلى مصادر مهمة في النظام الاقتصادي الإسلامي، وأفضّل كتاب (المعاملات المالية المعاصرة في ميزان الفقه الإسلامي)، للمؤلف الدكتور علي أحمد السالوس لأهميته وأسلوبه المميز.

الربا لغوياً هو مطلق الزيادة والنمو، وهو حسب ما فصله الإمام الرازي رحمه الله في مختار الصحاح: (رَبَا) الشيء زاد وبابه عَدَا. والرابية ما ارتفع من الأرض وكذا (الربوة) بضم الراء وفتحها وكسرها والرباوة أيضاً بفتح الراء. والربو النفس العالي يقال ربا من باب عدا إذ أخذه الربو. قال الفراء في قوله تعالى: ﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾، (الحاقة: ١٠)، أي زائدة كقولك أربيت إذا أخذت أكثر مما أعطيت. ورباه تربية وترباه أي غذاه وهذا لكل ما ينمي كالولد والزرع ونحوه. والربا في البيع وقد أربى الرجل والربية مخففة لغةً في الربا وهو في حديث صلح أهل نجران. قال الفراء: هو ربية مخففة سماعاً من العرب والقياس (رُبوة) بالواو(١).

يقول الله تعالى في محكم كتابه:

١- ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾، (البقرة).

٢- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾، (البقرة).

٣- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾، (آل عمران: ١٣٠).

٤- ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾، (النساء: ١٦١).

---

(١) مختار الصحاح، الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ص٢٣١-٢٣٢.

٥- ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ۝٣٩﴾، (الروم: ٣٩).

فإن الآيات المباركات تبين ما لخطورة هذا الأمر وعظمة تأثيره السلبي على الاقتصاد للفرد والمجتمع، كما تبين مدى التهديد العظيم الذي هدد به الله تعالى المتعاملين بالربا ألا وهو حرب من الله ورسوله، وهذا ما نراه اليوم.

ولقد اكتشف علمياً أن للقلق الذي يحدث نتيجة تراكم الثروات تؤدي إلى إفراز مادة الأدرينالين التي بدورها ترفع ضغط الدم وتؤدي إلى الحزن والألم، وهذا يؤدي إلى مرض البول السكري، ويتعرض الإنسان إلى الانفعالات العصبية فيرى الدنيا في عينيه سوداء قاتمة لا أمل فيها. يؤدي ذلك بالتراكم إلى تخبط الإنسان فيصبح بحال غير طبيعي كأن به مساً من جن أو كأنه مجنون، وهذا ما وصفه تعالى في كتابه الكريم في الآيات التي استعرضناها آنفاً من الآية ٢٧٥ من سورة البقرة والتي تصف حالة المتعاملين بالربا: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ....﴾. كما وأنك تجد نسبة عالية من الناس قد أصابهم من الربا أما مباشرة أو أصابهم من رشاشه تماماً كما تنبأ رسول الله ﷺ فيما سيكون من أمر الناس عند آخر الزمان[1]، فاختلطت أموالهم الحلال بحرامه بسبب البنوك والتعاملات الربوية من جهة وبسبب تداخل المصالح العالمية اليوم بشبكة عنكبوتية والتي أصبح معها من الصعب بمكان الانفكاك منها شئنا أم أبينا. فماذا كانت النتيجة أننا أكلنا في بطوننا بعض هذا الحرام المتأتي من الربا المفروض علينا فرضاً، فأصبح الرجال والنساء يرقصون ويتمايلون في الملاهي والطرقات كأنهم بهم مس من الشيطان، إلا من رحم ربي، فصدق الله ورسوله.

ذكرنا تلك المشاكل الصحية المتأتية من الربا رغم أنه يفترض أن ندرجها ضمن المواضيع الطبية، ولكن الموضوع يقتضي الإشارة المباشرة. ولا أريد هنا الدخول في الأسباب التي أوصلتنا إلى هذه النهاية لأن الشرح يطول، ولكنني سأذكر بعض الأمور من كتاب ألفه رجل أمريكي اسمه **وليم غاي كار** وترجمه إلى العربية سعيد جزائرلي وطبعته

---

(١) راجع الأحاديث التي وردت في ذلك في كتابنا الأخير من سلسلة (آخر الزمان) للمؤلف.

بالنسخة العربية دار النفائس للطباعة والنشر. اسم الكتاب (أحجار على رقعة الشطرنج) دفع المؤلف حياته ثمناً له وكان قد استغرق في تأليفه وجمع وثائقه وحقائقه حوالي أربعين عاماً وقد أحدث ضجة كبيرة في خمسينات القرن العشرين ولا يزال من المصادر المهمة التي تقض مضاجع اليهود وفضائحهم التي تزكم الأنوف. يذكر المؤلف في هذا الكتاب حقائق مذهلة توصل إليها ببحث واستقصاء مضنيين مفادها أن سبب ما نعانيه هو المشكلة الاقتصادية التي أكلت العالم بسبب ما فعله المرابون اليهود طيلة أربع قرون من الزمن سيطروا فيها على المال العالمي ومصادره وأمسكوا بزمام الشريان الاقتصادي العالمي فتحكموا به وبنوا إمبراطورية اقتصادية مهولة أساسها الربا بأضعاف مضاعفة ومن ثم تحولت سيطرتهم إلى سيطرة إعلامية واجتماعية وسياسية وعسكرية وهذا ما نراه اليوم من سيطرتهم على أعقد العقد السياسية فيما يسمى الدول الكبرى في العالم، ألا وهو الكونغرس الأمريكي وبالتالي سيطرتهم على تعيين الرئيس الأمريكي نفسه، (وأضيف هنا أن أكثر من ٨٠٪ من الحكومة الأمريكية منذ عام ١٩٩٢م وحتى اليوم هم من اليهود المؤصلين وهذه أكبر نسبة لليهود في تاريخ الحكومات الأمريكية)، بل إن المحافظون الجدد الذين يرسمون السياسة الأمريكية الحالية هم صهاينة أو متصهينون، فشتان بين جورج واشنطن الذي سمى اليهود بالحشرات التي يجب أن تسحق وتطرد، وبين ما وصلت إليه أمريكا اليوم، وكذلك شتان بين الملك إدوارد الأول الذي طرد ما تبقى من اليهود بعد ذبحهم ذبح الشاة وبين ونستون تشرشل الذي يقول أنا صهيوني ابن صهيوني، وكل من جاء بعده.

إن حب اليهود للمال جاء منذ عهد سيدنا موسى عليه السلام بعد حادثة العجل الذي عبدوه بعدما نجاهم الله تعالى من فرعون وكما أخبرنا القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿...وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ...﴾، (البقرة: من الآية ٩٣)، أي جعل الذهب والفضة والمال الإله الذي يحكمهم بعدما كفروا بالله تعالى وسمحوا لأنفسهم بأن يعبدوا عجلاً مصنوعاً من الحلي الذي أخذوه من أهل مصر القديمة. هذا العقاب الإلهي لهم بأن أصبحوا عبدةً للمال جعلهم لا يتورعون عن فعل أي شيء ومن ذلك الربا الذي حرم عليهم في التوراة بنص الآية القرآنية التي ذكرناها (النساء: ١٦١).

إن الكتاب الذي أشرنا إليه يذكر أسماء هؤلاء المرابين وانتساباتهم ومؤسساتهم وأين وصلوا الآن بعد أربعة قرون من العمل الأخطبوطي الدؤوب توارثوه جيلاً بعد جيل، وهو

كتاب غاية في الأهمية والروعة يعطي لقارئه الفكرة الواضحة حول خبث هؤلاء الناس ومكرهم ودهائهم الذي جعل من كل دول العالم مقلداً لهم أو طائعاً ذليلاً بسبب الحبال التي أوثقوها حول رقاب الشعوب وما فعلوه من أسلوب اقتصادي خنق العالم وكبله بالديون والمشاكل الاقتصادية التي لا تنتهي وما صندوق النقد الدولي إلا ذراع واحد من أذرع هذا الأخطبوط المرعب.

لنتحول الآن إلى كاتب آخر وهو الدكتور حسين مؤنس، إذ كتب بحثاً في مجلة أكتوبر المصرية (العدد ٤٧٥، ديسمبر، ١٩٨٥، ص٥٠-٥٢)، توصل فيه في النهاية إلى تعبير نصه: «إذن فالربا يعني خراب الدنيا فعلاً»، قال فيه: «خلال السنوات الماضية تجلى بوضوح أكثر فأكثر أن العالم كله يسير بسرعة متزايدة نحو كارثة اقتصادية بلا حدود، وأن تلك الكارثة لا ترجع إلى أن موارد الخير والرزق في الأرض قد قلّت ولم تعد تكفي الناس، لأن الحقيقة عكس ذلك فقد ازدادت هذه الموارد خلال السنوات الماضية بصورة تخطت كل التوقعات والدراسات، فإنتاج العالم من الغذاء يبلغ اليوم أضعاف حاجة البشرية جميعاً إذا هي دُبرت بعدالة، ففي بعض بلاد الدنيا مقادير من الغذاء تكفي أهل الأرض جميعاً، فهذه أمريكا تتحدث عن جبال القمح، وهذه أوربا تحدثت عن جبال الزبد، بينما في قارة أفريقيا يموت ١٠٪ من سكانها سنوياً في حين أن الملوك والأمراء يعملون موائد تكفي إنقاذ أضعاف هذا الرقم من موتهم وهلاكهم ولا أحسب هذا التفاوت إلا من جراء الربا».

وقد ساق الرجل أمثلة عديدة بالأرقام حول موضوع الربا فمثلاً نراه يقول «إن القلم الذي أكتب به الآن يكلف من مواد وصناعة وهندسة ونقل وأمور أخرى رقماً يساوي عشر المبلغ الذي أشتريه به»، وأمثلة أخرى عديدة، ويقول أيضاً متسائلاً بعد هذه الأمثلة، (ما الذي يجعل هذا الفرق الهائل بين الواحد والعشرة؟! فيجيب، الوسطاء والبنوك، ثم يتساءل في نهاية البحث ما الذي يعطي الدولار كل هذه القوة؟!، إنه الربا، إنها المعاملات الربوية التي هي أساس الاقتصاد الغربي كله. لأن الثروة الأمريكية التي لا تصدق والتي يصل قيمة المداورة اليومية لها مئات البلايين من الدولارات لا يمكن أن تكون قد تكدست بهذه الصورة الرهيبة عن طريق التجارة الحرة الشريفة، لأن أرباح المعاملات التجارية مهما بلغت فإن للمكاسب التجارية حدوداً، والشطارة والمهارة مهما

بلغت فهي لن تسمح لك ببيع منتجاتك بأكثر من أربعة أو خمسة أضعاف تكلفتها، فإذا أنت بعتها بمائة ضعف فأنت هنا تدخل في ميدان السرقة، والسرقة تسمى في عرف التجارة الغربي (Intrest) أو (Benifet) والترجمة العربية الفصيحة للكلمتين هو الربا». وتوصل في نهاية بحثه إلى أن مأساة البشرية التي نعيشها الآن هو أساسها أن «عالمنا الراهن يقوم على الربا من البداية حتى النهاية».. فشتان بين عدل الاقتصاد في الإسلام وشريعته السمحاء التي ملأت العالم رحمةً وعدلاً طيلة ثمانية قرون وبين بربرية حضارة العم سام.

تعلق بعض المتأخرين بكلمة (أضعافاً مضاعفة) التي وردت في قوله تعالى في الآية ١٣٠ من آل عمران التي أوردناها آنفاً، وقالوا أن الربا المحرم هو ما كان أضعافاً مضاعفة، أما ما كان بسيطاً وقليلاً فلا حرمة فيه. إن هذا الفهم الخاطئ للآية

الرد على هؤلاء كما يذكر الأستاذ صلاح الدين عبد المجيد هو أن هذا من باب التدرج في التشريع تماماً كما تدرج حكم تحريم الخمر، والعبرة دائماً بالحكم الأخير، فكما يلاحظ من آيات الربا التي أوردناها أن هناك تدرجاً في الحكم بتحريمه حتى وصل إلى درجة الحرب من الله ورسوله على فاعليه والعياذ بالله.. والأحاديث الشريفة الصحيحة في ذلك كثيرة، نذكر منها:

١. أخرج البخاري في الوصايا (٢٥٦٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ(**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات**)، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّه وَمَا هُنَّ قَالَ (**الشِّرْكُ بِاللَّه وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَت**).

٢. أخرج الإمام مسلم في المساقاة (٢٩٩٥) عَنْ جَابِرٍ قَالَ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ وَقَالَ هُمْ سَوَاءٌ

٣. أخرج أبو داود في البيوع (٢٨٩٦) عَنْ سُلَيْمَانَ بن عَمْرٍو عَنْ أَبِيه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ فِي حَجَّة الْوَدَاعِ يَقُولُ (**أَلاَ إِنَّ كُلَّ رِبًا مِنْ رِبَا الْجَاهِلِيَّة مَوْضُوعٌ لَكُمْ رُءوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ أَلاَ وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ مِنْ دَمِ الْجَاهِلِيَّة مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُ مِنْهَا دَمُ الْحَارِث بن عَبْد الْمُطَّلب كَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي لَيْث فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ**)، قَالَ (**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**)، قَالُوا نَعَمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، قَالَ (**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**)، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ

ولقد أصدر المؤتمر السنوي لمجمع البحوث الإسلامية الذي عقد عام ١٩٦٥م قراراً هذا نصه: (الفائدة على أنواع القروض كلها ربا محرم، لا فرق في ذلك بين ما يسمى بالقرض الاستهلاكي وما يسمى بالقرض الإنتاجي، وإن كثير الربا وقليله حرام). إن الربا له أضرار كثيرة في جوانب ثلاثة: الجانب الخلقي والجانب الاجتماعي والجانب الاقتصادي.

يرى عميد الاقتصاديين الأوربيين (كينز) أن الربا هو سبب الكساد، وأن المجتمع النامي لكي يحقق آماله في التنمية عليه أن يصل في تعامله الاقتصادي إلى الدرجة التي تصير درجة الفائدة (الربا) صفراً.. وإن نظرة واحدة إلى ديون العالم النامي التي وصلت إلى أرقام مرعبة، هي كلها ديون ربوية، ومهما عملت الدولة لتسديد تلك الديون تراها تغرق فيها أكثر، السبب ببساطة أن المبدأ هو مبدأ إيغال في المشكلة وليس حلها.

على أن هناك فوائد لا تنكر من عمل المصارف الإسلامية كتيسير التبادل وتعزيز طاقة رأس المال وتحويل النقود بين الدول وبيع وشراء العملات وإصدار الشيكات وتحصيل الديون وبيع أسهم الشركات وتأجير الخزائن الحديدية وتسهيل التعامل مع الدول الأخرى.. ومن هنا بدأت فكرة البنوك غير الربوية في خمسينيات القرن العشرين الميلادي، وقد أثبتت نجاحاً باهراً مما دفع إلى تطوير الفكرة وانتشارها حتى وصل إلى أوربا وأمريكا[1].

في بدايات العقد التسعيني من القرن العشرين الميلادي عقد مؤتمر عن الاقتصاد الإسلامي في جامعة ليفيبوروه البريطانية بحضور كبار اقتصاديي العالم، واستمعوا إلى شروح عن آيات القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ﷺ المتعلقة بتنظيم الشؤون الاقتصادية، فكان الانبهار العظيم من الجميع، وتم الاتفاق على تدريس الاقتصاد الإسلامي في الجامعات البريطانية في البكالوريوس والماجستير والدكتوراه... وفعلاً في عام ١٩٩٦م تأسس معهد ماركفيلد للدراسات الإسلامية الاقتصادية تحت إشراف أساتذة مسلمين متخصصين أمناء وأوفياء، وليس المستشرقين الذين شوهوا الإسلام وكتابه وسنة رسوله، ودسوا لنا السم في الدسم. وقد قام هؤلاء الأساتذة بالإشراف على الطلاب من مختلف المراحل الجامعية ولأربعة جامعات بريطانية كمرحلة أولى. وهاهي

---

(١) بحث للأستاذ صلاح الدين عبد المجيد في مجلة التربية الإسلامية، السنة ٣٥، العدد ١٢، ص ٢٧-٣٠، بتصرف.

المصارف الإسلامية غير الربوية تبدأ بالانتشار في أمريكا وأوربا وتدر بالربح الوفير باعتراف الغربيين أنفسهم، وهاهي الإنجازات تترى لتكون بداية الخير، فأول الغيث قطر كما يقولون، والحمد لله رب العالمين[١].

الذوق والسلوك الراقي في الإسلام[٢]

بيّن الإسلام الحنيف أن الكون يسير وفق نواميس وموازين وضعها الله تعالى بأمره فهي لا تخطأ مقدار حبة من خردل، ومن ضمن هذا الكون البشر فهم سائرون على منهج الله ونواميسه فيما يتعلق بالأمور المادية شاءوا أم أبوا، أما الأمور الفكرية والعقائدية والأحكام والمعاملات والعلاقات فهم مخيرون في اختيار منهج الله من عدمه. فاسمع إلى قول الله تعالى في هذا الأمر: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾، (الأنبياء: ٤٧).. وفي قوله تعالى ﴿...مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾، (الحجر: من الآية١٩).. ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾، (الرحمن)، إشارة إلى التوازن الذي خلقه الله تعالى للكون والأرض، هو ما يطلق عليه علمياً التوازن البيئي..

وفي قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾، (البقرة). يتجلى لنا واضحاً معنى الفساد الذي يتأتى من البشر إذا هم عملوا على تغيير خلق الله من النبات والحيوان والإنسان والطبيعة، فمهما كان الإنسان عالماً وعارفاً ومتحدثاً لبقاً فلا يجوز له أن يعمل على فساد الأرض وما فيها سواءً كان الفساد بيئياً وطبيعياً أو اجتماعياً ونفسياً وفكرياً، وقد صرح القرآن بوضوح بأن الله لا يحب الفساد، وما أكثر الفساد في عصرنا هذا.

---

(١) لتفاصيل أكثر في موضوع الاقتصاد في الإسلام يراجع كتابنا (الاقتصاد والاجتماع)، ضمن سلسلة (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية)، ففيه تفاصيل مهمة.

(٢) انظر كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، الباب الثاني- الفصل الخامس-هندسة البيئة.

وبمناسبة الحديث عن البيئة وتلوثها نعود بأدراجنا إلى الباب الأول قليلا ونتحدث عن الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾، (الروم: ٤١).. في هذه الآية العظيمة نستطيع أن ندخل إلى بعض جزيئاتها لنفهم ما فعله إنسان اليوم من تلاعب غير منظم وغير مدروس بالبيئة المحيطة سواء كانت برية أم بحرية، وكيف أن الاضطرابات البيئية والبيولوجية وظهور أمراض فتاكة عديدة وانقراض حيوانات وتلوث هواء وماء وفتحات في الأوزون وغيرها كثير من المشاكل البيئية وانعكاساتها على الأمور الحياتية اليومية للمجتمعات وكيف أنها أصبحت مجتمعات متخبطة مضطربة برغم كل تقنيات العصر كل ذلك بسبب ما عملته يد الإنسان (العصري) وسوء استخدامه لنعم الله وبطره في المعيشة وعدم وضوح أهدافه وسوء استخدامه الثروات وتوزيعها على المجتمعات بما يحقق العدالة وسعادة البشرية وانفراد دول كبرى معدودة بتقرير مصائر باقي الشعوب وما إلى ذلك.

وكثيرة هي مواقف رسول الله ﷺ والمسلمين المتعاطفة مع الطبيعة، والمحبة لها، المتعطشة لجمالها، الودودة لعطائها الكريم.. إنه يقول مشيراً إلى أحد «**أحد جبل يحبنا ونحبه**»[(١)]. ويقول أبو الدرداء وهو يرنو إلى شجيرة جميلة في قلب الصحراء «ليتني كنت شجرة تعضد»[(٢)].. إنها المحبة إذن.. محبة الإنسان للبيئة التي تحتضنه وترضعه وتقدم له الكثير.. وهذه المحبة التي لم يذق طعمها الغربيون من الذين نزعتهم العملية الذرائعية (البراغماتية) إلى تحديد مواقفهم من الأشياء على ضوء مصلحتهم الصرفة وحدها[(٣)].

وفي قوله تعالى في سورة الدخان، ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾، إشارة إلى ربط الأذى والألم الذي يسببه الدخان للناس وللمخلوقات ويتضمن تحذير الناس من مخاطره، وهذا هو ما تبحثه البيئة والهندسة البيئية من أن المنشآت التي تصدر دخاناً كالمداخن والمعامل تكون خارج المدن لئلا تسبب ضرراً وأذى للناس.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، صحيح البخاري، باب خرص التمر حديث رقم (١٤١١)، صحيح مسلم، باب أحد جبل يحبنا ونحبه حديث رقم (١٣٩٢).

(٢) خرجه هناد بن السري في كتاب الزهد، وهو قول لأبي الدرداء، ١/٢٥٨.

(٣) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، ص٤٨-٤٩، بتصرف.

ولا أعتقد أن واحدةً من حضارات العالم تكلمت عن النظافة في الإنسان باطنه وظاهره والبيئة بكل تفاصيلها أكثر من حضارة الإسلام وكتابه وسنة رسوله ﷺ، ولعل قصة الرحالة الأجنبي مع صاحبنا البغدادي وموضوع الصراط التي ذكرناها قبل صفحات قليلة تمثل إحدى الدلائل العملية والتطبيقية على ذلك. في وفي هذا يطول الشرح، ومن يريد التفصيل يستطيع الرجوع إلى كتب الفقه الإسلامي ليرى كم أعطى الإسلام من المساحة لهذا الموضوع وكيف أن مواصفاته البيئية سبقت المواصفات البيئية العالمية الحديثة في كل تفاصيل الحياة حتى وصل الأمر إلى المياه المستخدمة في الوضوء أيها نجس وأيها طاهر، وكذلك قدور وأواني الطبخ ووجوب تغطيتها، وكذلك الطعام الذي أصابته رطوبة أو عفونة أو أي ضرر وعدم جواز وضعه تحت الطعام الجيد بقصد الغش أو التمويه لتمرير السلعة وكذلك حتى لا يفسد الطعام الجيد، بالإضافة إلى النظافة الجسمانية والنظافة في الملبس والأثاث والمسكن والشوارع والقرى والمدن وغيرها. فمثلاً ترى أن نتف الإبط وتقليم الأظافر وقص الشعر والتطهر والتطيب والغسول وأنواع التنظيف من الحيوانات النجسة كالكلب مثلاً وغيرها من الدقائق كلها اعتنى بها الإسلام الحنيف عناية فائقة، ولنضرب أمثلة بسيطة:

١- إذا جاء الرجل ليأكل فعليه أن يسمي الله ثم يجلس ويأكل بيمينه وإذا شرب الماء شربه جالساً وبيمينه أيضاً ولا يشربه عباً بل يشربه مصاً ولا ينفث في الإناء، وإذا أكل لا يتخم نفسه فيترك ثلث معدته للطعام وثلثها للشراب وثلثها للنفس فإذا أتم حمد الله وشكره على نعمائه ، وأن لا ينسى جاره والفقراء من المسلمين.

٢- إذا عطس حمد الله فيشمّته من يجلس معه ويقول له "يرحمكم الله"،فيجيبه "يهديكم الله ويصلح بالكم" فإذا عطس ثلاثاً قال له صاحبه "شافاكم الله".

٣- إذا رام زيارة أحد الأخوة أو الأصدقاء أو الأقارب ووصل باب داره طرق الباب مرة ثم مرتين ثم ثلاثة، فإن أجابه أحد وأذن له بالدخول فعل، وإلا انصرف.

وهكذا تفاصيل عديدة في كل مجالات الحياة فكان الإسلام سباقاً لوضع كل ما يطلق عليه اليوم الآداب العامة والأصول والإيتيكيت ليعطي نظاماً بيئياً واجتماعياً متكاملاً، ولكننا ويا للأسف تركنا هذا الخير ولهثنا وراء الأساليب الغربية الجاهزة.. وهذا رسول الله ﷺ يختصر لنا عظمة الإسلام في نظافة الإنسان والمنزل والبيئة بقوله: «**إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا —**

أراه قال: **أفنيتكم- ولا تشبهوا باليهود»**، رواه الترمذي.

لقد بين الإسلام ممثلاً بكتابه الكريم وسنة رسوله ﷺ أن لله قوانين وسنن في المجتمعات البشرية واقعة لا محالة في حالة تمرد البشر وعصيانهم عن إطاعة أوامر الله التي أوصاهم بها عن طريق أنبيائه وكتبه وآخرها كتابه الخاتم القرآن الكريم ورسوله الخاتم ﷺ، فلذلك نرى في عصرنا هذا كمّاً من الأمراض الاجتماعية والفسلجية والاقتصادية أصابت البشرية بكوارث لم تكن تعرف من قبل، وما مرض الإيدز وغيره من الأمراض الحديثة، وما الكوارث البيئية والمجاعات وغيرها من المآسي التي نسمع عنها ونراها إلا نقطة في بحر هذه الابتلاءات التي عمّتنا بسبب ابتعادنا عن منهج الله سبحانه وتعالى.. لنسمع إلى قول رسول الله ﷺ:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ: **(خمس بخمس)**، قيل يا رسول الله وما خمس بخمس، قال **(ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر ولا طففوا المكيال إلا حبس عنهم النبات وأخذوا بالسنين)**(١).

٢- روى ابن ماجه والبزار والبيهقي من حديث ابن عمر ولفظ البيهقي أن رسول الله ﷺ قال: **«يا معشر المهاجرين خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم)**(٢).

وغيرها من الأحاديث التي تؤكد أن كل تلوث يحصل في الإنسان ظاهراً وباطناً يأتي من بعده تلوث في المجتمعات ثم في الثروات والنعم التي وكّلت ببني البشر من قبل خالقهم، فترفع البركة من الرزق ويجوع الناس وتنتشر الأمراض وتكثر الحروب والصراعات

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، ج/١١، ص٤٥، رقم (١٠٩٩٢)، وانظر مجمع الزوائد للهيثمي، ج/٣، ص٦٥، والكبائر للذهبي، ص٣٥، والترغيب والترهيب، ج/١، ص٣١٠.

(٢) الترغيب والترهيب، ج/١، ص٣٠٩.

والكوارث الطبيعية.

لذلك إن ما يعرف اليوم بالذوق أو الإيتيكيت هو فعلاً سبق إسلامي ولكن أكثر المسلمين لا يعلمون أو لا ينتبهون إلى هذه الحقيقة.

المواصفات القرآنية للنفس البشرية(*)

ذكر الله تعالى لنا في القرآن الكريم حالات النفس البشرية وأمراض القلوب، وفصلت ذلك السنة المطهرة. وقد نحتاج إلى عدة مؤلفات لتفصيل ذلك، ولكننا آثرنا أن نختصر قدر الإمكان.

هناك سورة كاملة تسمى سورة الإنسان في القرآن الكريم، كما ذكرت كلمة الإنسان معرفة (٥٨) مرة، وكلمة إنسان نكرة (٦٥) مرة، وكلمة نفس نكرة (٤٧) مرة، وكلمة النفس معرفة (٧) مرات، كل ذلك يدل على أهمية الموضوع، وأن معالجة هذه النفس الإنسانية هي الأساس في نزول القرآن.. سوف نستعرض أدناه وبإيجاز بعض الحالات التي تطرق إليها الكتاب العزيز في هذا الموضوع مع تعليق مقتضب، مع التذكير بأننا سنذكر تفاصيل أكثر في هذا الموضوع في كتاب الاقتصاد والاجتماع من هذه السلسلة خصوصاً ما يصاحب البشر من قلق جراء تصرفات اجتماعية بعينها:

١. ضعف الإنسان اتجاه الشهوات:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ (آل عمران:١٤)... ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾، (النساء:٢٨).

٢. حاجة الإنسان إلى رب يلتجئ إليه وقت الشدائد، ومن ثم إنكار فضل الله تعالى عليه:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾،

(*) يراجع كتابنا (الجملة العصبية والطب النفسي)، ضمن سلسلة (ومضات إعجازية من القرآن والستة النبوية)- الكتاب الثاني عشر.

(يونس)... ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ ﴾ (هود:٩)... ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (إبراهيم:٣٤)... ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾، (الإسراء:٦٧)... ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾ (الزمر:٨)... ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾، (الزمر:٤٩)... ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾، (فصلت:٥١)... ﴿..وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾، (الشورى:من الآية٤٨).

٣. كفره بالنعمة:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ (الشورى:٤٨)... ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾، (عبس:١٧).

٤. أنانية الإنسان، بخله، خوفه، سرعة جزعه، وحبه لذاته:

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ (الإسراء:١٠٠)... ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾، (الفجر)...

﴿ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ ﴾، (المعارج).

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرًا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ ﴾، (التغابن:١٦).. والشح أعلى مراحل البخل، فمن يتخلص من مرض الشح هذا فإنه مؤكد سيكون من المفلحين في الدنيا والآخرة، لذلك مدح الله تعالى أهل المدينة من الأنصار الذين استقبلوا إخوانهم من المهاجرين وأعطوهم كل ما يتمنون عن طيب خاطر، فكانوا بحق من الذين انتصروا على مرض الشح والبخل فتسلقوا سلم السمو الروحي والنفسي والفكري ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩ ﴾ (الحشر:٩).

عجالة الإنسان:

﴿ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولًا ١١ ﴾، (الإسراء:١١).

٥. ميله للإحباط واليأس:

﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ٨٣ ﴾ (الإسراء:٨٣)... ﴿ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ٤٩ ﴾، (فصلت:٤٩).

٦. مكابرته وحبه للجدل وعناده:

﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلًا ٥٤ ﴾ (الكهف:٥٤)... ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ٦٧ ﴾، مريم... ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ﴾

(الحج:٨)... ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾، (الأحزاب:٧٢).

٧. فطرة الإنسان على محبة أولاده وأهله ووالديه، وتوصية الإنسان بوالديه:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (العنكبوت:٨)، ومثلها في لقمان... ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾، (الأحقاف:١٥).

٨. وسوسة النفس وحديثها:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾، (ق:١٦).

٩. اغترار الإنسان وميله للدنيا:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾، (الانفطار:٦).

١٠. تذكير النفس بلقاء الله تعالى مهما طال العمر:

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾، (النازعات:٣٥)... ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾، (الانشقاق:٦).

١١. تعجب الإنسان وذهوله عند حصول ما لا يرغب:

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ (الزلزلة).

١٢. عظمة خلق الإنسان:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾، (التين: ٤).

١٣. أمراض الحسد والسحر ووسوسة الشياطين

وهو ما ذكر في سورتين من أعظم ما أنزل على المصطفى ﷺ ألا وهما المعوذتان (الفلق والناس): ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾.. ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾... هذه الأمراض قد تكون من جراء أسباب تربوية أو اجتماعية أو بيئية معينة، سنتحدث عن بعضها عند كلامنا عن قوانين التسخير والفتن والابتلاءات في فصل قادم.

١٤. تقسيمات النفس البشرية:

ولقد قسم القرآن الكريم النفس البشرية إلى نفس مطمئنة مؤمنة ينحصر همها في الآخرة ولا تنظر إلى الدنيا إلا كمحطة سفر. والنوع الثاني هي النفس اللوامة التي تستمر بالمحاسبة على الأعمال، والنوع الثالث الخبيثة الأمارة بالسوء.

كما وذكر القرآن أن النفس في صراع دائم بين الفجور والتقوى، وأن الذي يفوز هو الذي يدربها على محاربة الهوى والشهوات المحرمات. وهذا ما نجده في قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾، (الفجر)... ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾، (القيامة)... ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾، (يوسف: ٥٣)... ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى

ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾، (النازعات).

والناس على أصناف ثلاثة كما فصل الكتاب العزيز في عدة مواضع ومنها بداية سورة البقرة، المؤمن والكافر والمنافق، وقد أعطى القرآن كل صنف حقه من التفصيل.

وأما أمراض النفس والقلب فهي على نوعين أمراض الشك وأخطرها الشك بالغيب الذي أخبر عنه الله تعالى، وأعلى مراحله الكفر بالله والعياذ بالله، والنوع الآخر هو أمراض الشهوة ومنها شهوات الحواس كالفرج والبطن واللسان، وفي هذا تفصيل كبير، إذ تتفرع من هذين النوعين أنواع أخرى يطول المقام بشرحها.

١٥. تأثير نقض العهود وخلف الوعود على تصرفات وسلوك الشخص:

ثبّت القرآن الكريم حقيقة مهمة مفادها أن من ينقض العهد والوعد مع الله ومع الناس فإن مصيره ونتيجة عمله ستؤثر على سلوكه. هذا التأثير مفاده نفاق وتخبط بالتصرف يتبعه اختلال في الشخصية، وأما في الآخرة فعذاب مهين ما لم يستدرك بالتوبة ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾، (التوبة). هذه الآيات كما تحدثنا كتب السيرة نزلت في الصحابي ثعلبة الذي أطلق عليه رسول الله ﷺ حمامة المسجد، إذ كان لا يحضر ﷺ إلى المسجد يوماً إلا ورآه قبله. لكن هذا الصحابي طلب من النبي ﷺ أن يسأل الله له كي يصبح غنياً، فلما ألح بالطلب عاهد الله ورسوله ﷺ والمؤمنين أن إذا ما آتاه الله المال ليعطين كل ذي حق حقه. فلم دعا له النبي ﷺ بما أراد آتاه الله مالاً وغنماً، ولما طلب منه دفع زكاتها رفض ونقض عهده، فدعا عليه النبي ﷺ فحرّم ماله على المسلمين ولم تؤخذ منه زكاة رغم ندمه لا في عهد النبي ﷺ ولا في عهد الخلفاء الثلاثة الذين تولوا أمر المسلمين من بعده أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ومات في عهد عثمان ولم تقبل منه زكاة فمات على الكفر.

وهنا نركز على أن نقض العهد يورث نفاقاً في القلب وتخبطاً في السلوك، وهو قوله تعالى ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾، (التوبة:٧٧).

١٦. الأساليب القرآنية للنقاش وتأثيرها على نفسية المقابل:

كذلك فإن القرآن الكريم ينوع أسلوب التحدث والمناقشة والنصيحة مع الناس، وذلك لاختلاف أصناف نفسياتهم وتركيباتها، فالدين النصيحة كما يعلمنا ﷺ. اسمع إلى قوله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾، (النحل:١٢٥). ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾، (الأعراف:١٩٩)... ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾، (القصص:٥٥)... ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾، (النساء:٣٥)... ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾، (النساء:١٢٨)... ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾، (آل عمران:١٣٤).. ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾، (الزمر:١٠)... ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾، (الحجرات).

من خلال تدبر الآيات أعلاه وغيرها نستنتج أن الدعوة إلى الله تعالى والمناقشة العامة وأساليب الإصلاح تكون بأحد الأساليب الآتية أو بها جميعاً وحسب الحالة:

١. **الدعوة والمناقشة بالحكمة:** وهذه تكون لأصحاب العقول النيرة، والقلوب الشفافة.

٢. **المناقشة بالموعظة الحسنة:** وهذه تكون لأصحاب الآراء المترددة واللامنتمية.

٣. **المناقشة بالجدال الحسن:** وهذه لأصحاب الأهواء والعقول البعيدة عن المنطق والرأي العلمي السديد.

٤. **الابتعاد عن الجاهلين:** وعدم مناقشتهم لجهلهم وسفههم وانعدام إمكانية هدايتهم.

٥. **حالة الاستحضار والنية تمكن من إنجاز الهدف:** فحالة إرادة الصلح لطرفي النزاع هي التي تمكن من إنجاز الصلح بأن يوفقهما الله تعالى لذلك، وهو قوله تعالى ﴿... إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ...﴾ .

٦. **استخدام أطراف أخرى:** تكون أكثر حكمة ودراية وروية لتساعد في حل المشكلة، ومنها أطراف من أهل وذوي أصحاب المشكلة لأنهم أكثر إحساساً واهتماماً وأحن من غيرهم على أولادهم وأقربائهم.

٧. **آخر الدواء الكي:** استخدام كافة أساليب الهداية والإصلاح ثم يأتي العقاب الجسدي كحل أخير يستخدم إذا أعيت الناصح كل الأساليب النفسية والإصلاحية النقاشية.

٨. **الصبر أولاً:** في كل الأحوال يدعوا الله تعالى إلى الصبر وعدم التعجل بالرد، فكانت جائزة الصابرين أعظم الجوائز وهي دخولهم الجنة بغير حساب في يوم الحساب.

وفي علم النفس الخاص بتربية الأولاد، يعلمنا المصطفى ﷺ أن تربية الأولاد تكون بمراحل وحسب العمر، ولكل فئة عمرية نصيبها من المعاملة، كما وينهانا ﷺ عن التفريق بين الأولاد في العطايا والتعامل، ونهانا أيضاً عن الضرب المبرح، ويأمرنا بتقبيل الأولاد والترفيه عنهم وتقديم الهدايا لهم، ففي صحيح البخاري (بَاب الْهِبَةِ لِلْوَلَدِ) يقول: وَإِذَا أَعْطَى بَعْضَ وَلَدِهِ شَيْئًا لَمْ يَجُزْ حَتَّى يَعْدِلَ بَيْنَهُمْ وَيُعْطِيَ الآخَرِينَ مِثْلَهُ وَلاَ يُشْهَدُ عَلَيْهِ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**اعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلاَدِكُمْ فِي الْعَطِيَّةِ وَهَلْ لِلْوَالِدِ أَنْ يَرْجِعَ فِي عَطِيَّتِهِ وَمَا يَأْكُلُ مِنْ مَالِ وَلَدِهِ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ يَتَعَدَّى**)، وَاشْتَرَى النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عُمَرَ بَعِيرًا ثُمَّ أَعْطَاهُ ابْنَ عُمَرَ وَقَالَ اصْنَعْ بِهِ مَا شِئْتَ. بل إن المتتبع لقصة سيدنا يوسف عليه السلام في سورة

يوسف يجد أن السبب الرئيسي في كل ما جرى من مآسي له جاءت بسبب حقد أخوته عليه لإحساسهم أنه مفضل دونهم عند أبيه.

وفي كل هذا الأساليب التربوية النبوية الشريفة من الروعة والدقة للتقسيم العمري للأولاد ما يغني عن التفسير والتفصيل، ويكفي أن نقول أن علم النفس الحديث وبعد تجارب لسنين طويلة أثبت صحة كل ذلك.

واسمع كيف يجمع لك القرآن صفات عديدة للنفس البشرية مع علاجات اجتماعية وقضائية لظواهر عديدة في كلمات معدودات: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾، (الشورى)..

فقد جمعت الآيات المباركات الدعوة للزهد بالدنيا لأن ما في الآخرة أفضل من حيث النوع وأكثر دواماً، ولكن لمن يحمل مواصفات خاصة في مواقف صعبة، وهم:

١- أهل الصبر والتحمل في تجنب الشهوات من كبائر الإثم والفواحش والفتن إذا ما تعرضوا له.

٢- الذين يغفرون أثناء الغضب، وياله من موقف.

٣- المستمرون على العبادات بأكمل صورها.

٤- أهل المشورة والتشاور وعدم الاستبداد في أوقات الشدة والفرج.

٥- الذين ينفقون من أموالهم للمحتاجين في أوقات العسر واليسر.

٦- الذين ينتصرون للمظلوم أمام الظالم أياً كان نوعه ومهما بلغت قوته.

٧- أهل العفو والعدل في جميع المواقف ولو على أنفسهم والأقربين.

٨- كما تشكل لنا الآيات نفسها قانوناً للدفاع عن الحقوق للفرد والجماعة، ومتى يتحتم الصبر ومتى يجب الاقتصاص من الظالمين.

والآيات المعالجة للحالات النفسية والاجتماعية كثيرة جداً في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، يمكننا إن تبحرنا فيها أن نصل للحقيقة الساطعة وهو أن ما جاء به الإسلام من العدل وطبقه على مدار قرون عديدة في البلدان التي حكمها، خصوصاً عندما طبق الشرع الحنيف بشكل كامل، لم تستطع أية تشريعات أخرى على مدى التاريخ من أن تدانيه في ذلك.

إن النفس البشرية تبقى أكثر الأمور غموضاً وسبب ذلك يعود لجهلنا بهذه اللطائف الإلهية العظيمة، العقل أو الدماغ، الروح ومكنوناتها وأسرارها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء:٨٥)[١].

الفرق الرئيس بين مفهوم الإسلام للوجود مع ما جاء به الآخرون

يمكننا حصر الفرق الرئيس بين التوازن الذي جاء به الإسلام وبين إما الإفراط أو التفريط الذي جاءت به المدارس الأخرى، سواء أكانت العلمانية منها أو مدارس الأديان السماوية -المحرفة- الأخرى، أو حتى المدارس الفلسفية الأخرى قديمها وحديثها، بمسألة المفهوم الإسلامي للدنيا، وهل هي جديرة بأن تكون محل الحب المطلق فيصرف من أجل عيونها كل شيء، ويسحق الناس لأجل مجموعة معينة بذاتها تنعم برغد العيش، أم أن في الأمر مسألة أخرى؟!.. لنأخذ كل فريق وما جاء به:

١. أهل الديانات الرئيسية (اليهود والنصارى): تقول اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه فالجنة لنا وهي مضمونة، وتقول النصارى جاء عيسى (عليه السلام) فأخذ كل ذنوبنا فمهما أذنبنا فنحن من أهل الفردوس ولن ندخل النار، هذا طبعاً زعمهم بعد أن حرفوا دينهم الحق، والأنبياء عليهم السلام من قولهم هذا براء، وقد بين القرآن الكريم زعمهم

(١) انظر كتابنا الثاني عشر (الجملة العصبية والطب النفسي) والثالث عشر (الأحلام والباراسايكولوجي) والرابع عشر (الاقتصاد والاجتماع) ضمن سلسلة (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية)..

الباطل هذا ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾، (المائدة:١٨).. ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾، (التوبة:٣٠)... وعلى أساس اعتقادهم الباطل هذا يقولون (ما دامت الآخرة مضمونة فعلينا أن نعمل للدنيا فقط، فنأكل ونتمتع ونفعل ما نشاء)، فأباحوا كل شيء ومنه قتل كل من يقف أمام سيطرتهم المطلقة على المال والنفوذ والجاه وغيره من الشهوات. وقد يستثنى من ذلك بعض الراسخين بالعلم منهم ممن عرفوا الحق فأنكروا التحريف وعملوا بما كان عندهم من الدين قبل تحريفه، وقليل ما هم.

٢. اللادينيون والعلمانيون والوجوديون والملاحدة: وهؤلاء وإن اختلفت اتجاهاتهم إلا أنهم يشتركون بنكران الغيب والآخرة ويفسرون الوجود على أساس الملموس من الحياة التي نعيش، فلا اعتراف لديهم بحساب بعد الموت أو جنة أو نار إنما يقودهم الفكر البشري، فترى فيهم الطيب، وترى فيهم اللئيم وكل أصناف البشر، منهم العالم ومنهم الجاهل المتبع ومنهم الضال، وقد صنفتهم الآية الكريمة من قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾، (الحج:٨).. ولا يعتقد هؤلاء بأن الموبقات مثل الخمر أو الزنا أو الكذب وغيره من سوء الخلق، بل يظنون أنها من موجبات الحياة الحديثة، لأن تعاريفهم أصلاً لا تقر إلا بما هو دنيوي مرئي أو ملموس.. وعلى هذا الأساس فنظرتهم للدنيا مقدسة، يعملون من أجلها ومن أجل شهواتهم وملذاتهم الخاصة أو العائلية، ولا يهمهم غيرهم أيجوع أم يذل أم يموت؟، فتراهم يستهزئون ويتهكمون بالمؤمنين ويسمعوهم مر الكلام وقبيح التعابير بقلوب حاقدة وعقول ميتة وأفواه ضاحكة.. على أن فيهم ممن تحس أنه ذو فطرة سليمة إلا أنه يحتاج لإزالة الغشاوة والشك عن قلبه، وذلك بالحجج الدامغات والمنطق السليم لأن منهم أهل علم ومنطق وحجة.

٣. هناك فئة ثالثة هي فئة الفوضيين واللامنتمين والعشوائيين الذين يهتزون مع كل

ريح ويصفقون لكل آت كما يصفهم سيدنا الإمام علي كرم الله وجهه.. وهؤلاء كالأنعام بل هم أضل، وهم من الجهلة والعوام وعبدة الهوى وغيرهم من الأصناف الكثير، ويشكلون الأغلبية من سكان العالم، وصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ ﴾، (الفرقان:٤٣).. ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾، (الجاثية:٢٣).. وقد تجد فيهم من هو مسلم بالهوية، ولكنه لا يفقه شيئاً عن عظمة وروعة دينه. فتجد هؤلاء يهرعون للتقليد الأعمى لكل صيحة وتقليعة، ويتبعون كل ما تأمرهم به أحلامهم حتى وإن كانت الحيوانات نفسها تعافه وتنفر منه.

أما الإسلام فيبين للناس أنهم ميتون يوماً ما مهما طالت بهم الآجال، فمقبورون فمبعوثون للحساب.. والدنيا هذه التي يعيشون هي مزرعة الآخرة، فمن يعمل فيها صالحاً يوف إليه ما عمل وهو لا يبخس بل يضاعف له الأجر، وأما من يعمل سوءاً فلا يجز إلا بمثله، ورحمة الله فوق ذلك، ولا ضمان لأحد من عقاب أو ثواب، ولا يزكى على الله أحد إلا أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. وقد حبَّب الإسلام العمل الصالح للناس من عبادات ومعاملات وأخلاق كي يجدوا نتيجته في الدنيا أو في الآخرة أو في الاثنين معاً، لكن مشكلة الناس أنهم يعجلون النتائج، وقد ذكرنا صفة العجالة هذه ضمن صفات النفس البشرية التي شخصها القرآن الكريم. والمسلم المؤمن يتوسط بعمله بالأخذ بالأسباب المادية من السعي للرزق والإخلاص بالعمل وغيره مع كل ما يتعلق بما تتطلبه الآخرة من عمل، فيجعل كل سعيه في الدنيا لأجل نيل الآخرة التي يؤمن بأنها الدائمة الباقية التي لا موت بعدها ولا تبديل، وعلى هذا فحب الدنيا عنده ليس لذاتها وعلى حساب تعاسة الآخر، بل هي إن كان ولا بد منها فإن ذلك لأجل أسباب معينة، ومنها أنها مخلوق من مخلوقات الله. ومنها أنها دار امتحان لا تكره فتكوّن الإحباط واليأس، ولا تعبد لذاتها فيهون أمام ملذاتها كل شيء، بل هي مكان وزمان محددين بأمد طال أم قصر، والسعيد من استغله بالصالحات من العبادة والمعاملة والأخلاق. فعمل صالح يجلب الابتسامة لبشر مثلك، أو يروي عطشاً أو يدفع جوعاً ، أو يحل مشكلة لملهوف، فيها سعادة نفسية لا توصف، قد يفهمها العلماني بأنها شفافية في المشاعر،

ولكن المسلم له بعد آخر في التفكير وهو الأهم، فمطلبه مرضاة الله تعالى، ومنها منبع كل السعادات.

ولا يطلب المسلم الصادق من الدنيا جاهاً أو مالاً أو نفوذاً أ وسلطاناً أو شهرة أو غير ذلك، وإنما همه أن يخرج منها ليستقبل في عالم الخلود استقبالاً مرضياً يؤهله لنيل الفوز الأكبر الذي يحلم به وهو مرضاة ربه ومن ثم نيله الجائزة ألا وهي الخلود في الجنة، فلا تعب بعدها ولا نصب، وهنيئا لمن نال ذلك:.﴿...فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾، (البقرة)..﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾، (النساء: ١٣٤).

وعلى أساس هذا الفرق الرئيسي في المفاهيم والذي تتفرع منه فروقاً تفصيلية كثيرة، تجد الصراع بين الثقافات والحضارات موجوداً ومستمراً حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فللجنة أهلها وللنار أهلها.. وقانون الصراع هذا والذي سنفصله في الباب القادم هو من ضمن القوانين التي سنها الله لعباده ليس حكماً تنزيلياً مسيراً له الناس، ولكنه اختيار الناس في الاختلاف والابتعاد عن منهج الله الذي أنزله لهم ليعلمهم حقيقة الوجود، ولكن أكثر الناس للحق كارهين وللهوى متبعين وللدنيا عابدين إلا عباد الله العالمين المتقين:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾، (البقرة: ٢١٤).

❁❁❁

وبعد أن ذكرنا بعض التفاصيل والخصائص المتعلقة بالحضارة الإسلامية ندخل في الباب اللاحق في موضوع القوانين التي وضعها القرآن الكريم لحضارات الشعوب والأمم ومنها أمة الإسلام.

الباب الثاني

القوانين القرآنية للحضارات

الفصل الأول

الأمر القرآني بإقامة الحضارة البشرية

(قوانين استخلاف البشر وعمارة الأرض)

وجد البشر على هذه الأرض تكريماً لهم، ليعمروها وفق النواميس العادلة لخالقهم وخالق كل شيء، ولكي يكونوا مستخلفين ومؤتمنين على هذه الأمانة الثقيلة وهذا الحمل الصعب الذي يثقل كاهل أثقل الجمادات في هذا الكون ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾، (الأحزاب:٧٢).

هذه الأمانة هي أمانة ومسؤولية الاستخلاف والتكليف لجعل الأرض النموذج العبادي الذي يريده الله تعالى ليباهي بها ملائكته المخلوقين والمجبولين على فطرة العبادة فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، أما البشر فقد خلقوا من تصارع قوتين الطاعة والشهوة ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾، (الشمس).. وهي نفسها التي جعلت إبليس اللعين الذي كان جليس الملائكة لفرط تقواه قبل خلق سيدنا آدم عليه السلام يتحول إلى مخلوق حاسد عاص لأمر الله تعالى بتكريم الإنسان، إذ أمر تعالى الملائكة بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام، سجود تكريم لا سجود عبادة، فأبى حسداً وتكبراً وعصياناً فاستحق غضب الله تعالى عليه. إلا إنه طلب من الله طلب يدل على استمرار بغضه لهذا المخلوق المكرم، وهو أن يبقى حياً حتى يوم القيامة ليضل الآدميين عن طريق ربهم فيدخلهم في سخطه والنار –أعاذنا الله وإياكم من شرها وحرها-. فاستجاب له الله تعالى، وبدأت منذ ذلك التاريخ وستستمر قصة بل وفلسفة الابتلاء والصراع بين الخير والفضيلة والحق من جهة، وبين الشر والباطل والرذيلة من الجانب الآخر. كل ذلك قصه علينا كتاب الله تعالى في سورة البقرة وسور أخرى عديدة:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا

وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾، (البقرة).. ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾، (الأعراف: ١١).. ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾، (الإسراء: ٦١).. ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾، (الكهف: ٥٠).. ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾، (طـه: ١١٦).. ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾، (الأعراف).. قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾، (الحجر).. ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾، (ص).

من ثم بعد عصيان سيدنا آدم عليه السلام لتعاليم ربه جل وعلا ندم واستغفر فتاب الله عليه، ولكن أنزله للأرض ليعيش وذريته من الإنسان العاقل حياة الامتحان والاستخلاف حتى يأذن الله تعالى بالحساب يوم القيامة.

لذلك ففكرة الخلق هي لعبادة الله وعمارة الأرض والتعاون بين الأمم والحضارات المختلفة بما يرضي الله تعالى ويقيم شرعه الذي يعدل بين عباده على اختلاف ألوانهم وأشكالهم، وعليه يكون استخلاف البشر في الأرض يحمل السمات الآتية:

١- قانون العبودية والعبادة لله رب العالمين: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾، (الذاريات:٥٦): والعبادة لله بمفهومها الشمولي هي الأعمال التعبدية والأعمال الصالحة التي تشمل مصالح العباد والمجتمعات والأمم.

٢- **التكريم:** ولكي يكون مهيأً لحمل الاستخلاف يجب أن يحمل هذا المخلوق البشري خصائص فريدة غير موجودة في غيره، وهو ما نجده في قوله تعالى ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾، (الإسراء: ٧٠).. ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾، (التين:٤)..

٣- **قانون الابتلاء والامتحان (المشهد الأول لمثال الشلال):** وهي فلسفة الوجود وسبب خلق البشر، فالله تعالى إنما خلق الناس ليبتليهم أيشكرون ويؤمنون أم يكفرون ويشركون ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾(الإنسان).. والآيات والأحاديث الدالة على هذا كثيرة.. نزول الأقدار بالابتلاءات والمحن هذا هو بالضبط ما مثلناه في نزول المياه من أعلى إلى أسفل في مثال الشلال الذي ذكرناه في البداية.

هذا الابتلاء والامتحان واسع المعاني والدلالات، إذ يشمل كل أنواع التنافس سواء أكان لمرضاة الله تعالى أم لأغراض دنيوية. ومنه تشتق كل أنواع المنافسات والخلافات والصراعات لأنها جزء من مسيرة الخلق والحضارات.

كما تبين آيات أخرى أن فكرة خلق الكون مرتبطة بتكريم هذا الكائن لحمله الأمانة التي لم تتحملها كل المخلوقات الأخرى: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾، (الجاثية:٢٢)، فربطت الآية الكريمة خلق السماوات والأرض مع ابتلاء الإنسان وحمله الأمانة لتجزى بعد ذلك كل نفس بما كسبت، فكأن المسألة برمتها مرتبطة بهذه العلاقة التي مفادها أن أصل خلق الكون ووجوده هو ذلك الإنسان الذي يوجد ليبتلى ويمتحن أيطبق أوامر ربه أم لا؟. تلك الأوامر التي تقتضيها حقيقة الخلافة والعمارة التي تشكل أصل الوجود.

٤- **قانون تشكل الأمم والحضارات**: وبها تتكون وتلتقى وتتلاقح النشاطات

البشرية التي تشكل بمجموعها تعريف الحضارة على أسس خلقية وفكرية راقية تختلف عن المجاميع الحيوانية وسماتها الدونية الشهوانية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾، (الحجرات:١٣).

٥- **قانون الخلافة والاستخلاف:** وهو المبدأ الذي يبين أن وجود الإنسان على هذه السفينة الفضائية مؤقت محكوم بزمن من جهة ومؤتمن على الحفاظ على أسباب وجوده وكينونته من جهة ثانية، وكذلك ترقباً للقاء ربه من الجهة الأهم ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾، (البقرة:٣٠).. ﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾، (الأنعام:١٣٣).. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾، (الأنعام:١٦٥).. ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ ﴾، (هود:٥٧).. ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾، (ص:٢٦)..﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾، (النمل:٦٢)...﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ ﴾، (فاطر:٣٩).. ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ ﴾، (الحديد:٧).

والاستخلاف أمانة في عنق كل إنسان على هذه البسيطة، وليست المسألة جماعية حسب، فنحن مؤتمنون ومستخلفون على المال والولد والأهل والمتاع والفكر والخلق وغير ذلك. وأما الاستخلاف الجماعي للأمم فهو على ثروات الأرض وتوزيعها وحمل لواء الحق والخير والدعوة إليهما.

٦- **قانون عمارة الأرض بما يرضي الله ويقيم مصالح العباد:** وهي الزيجة بين الرقي الجمالي والرقي الفكري والرقي الخلقي الذي يتسم به البشر ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝ ﴾، (هود:٦١).. ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ﴾، (الروم:٩).

وعمارة الأرض بالخير والاستفادة من كل ما عليها وما بجوفها من خيرات لإقامة مصالح العباد والتعاون بين الأمم في ذلك من زراعة وصناعة وتقدم تقني هو مما أوجبته هذه الآيات المباركات وما أوجبه الإسلام عموماً.

ومن هنا نجد أن قوانين الاستخلاف هذه هي أصل وجود كل البشر بكل حضاراتهم على اختلاف مشاربها وطرق عيشها وتفنن تقنياتها وفي كل أزمانها.. ولكن القرآن الكريم قد حكم ذلك الوجود والاستخلاف والائتمان بقوانين عامة نجدها شاخصة في القصص والمثل واللفظ القرآني، الأمر الذي سنبحثه في الفصل القادم.

الفصل الثاني

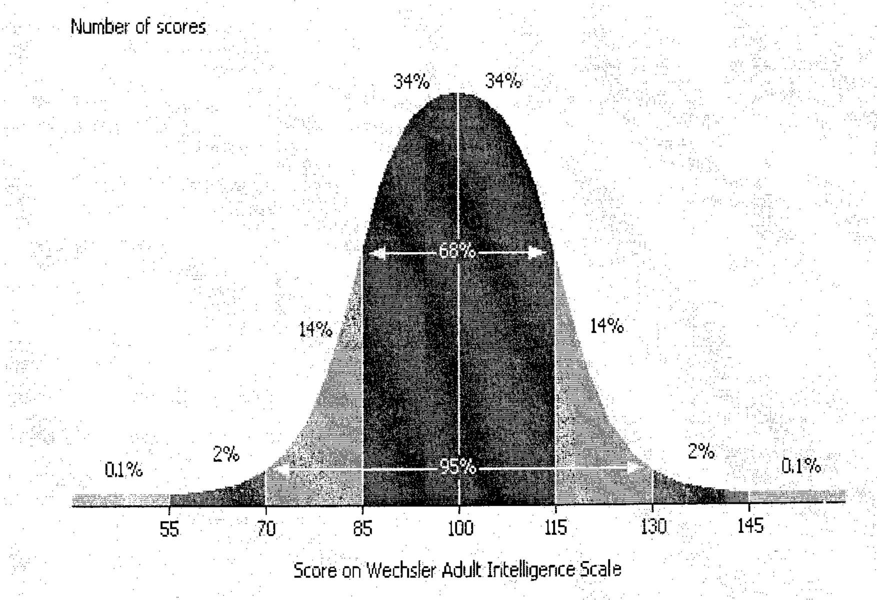
القوانين العامة للحضارات والأمم

(القرى والقرون) في القرآن الكريم

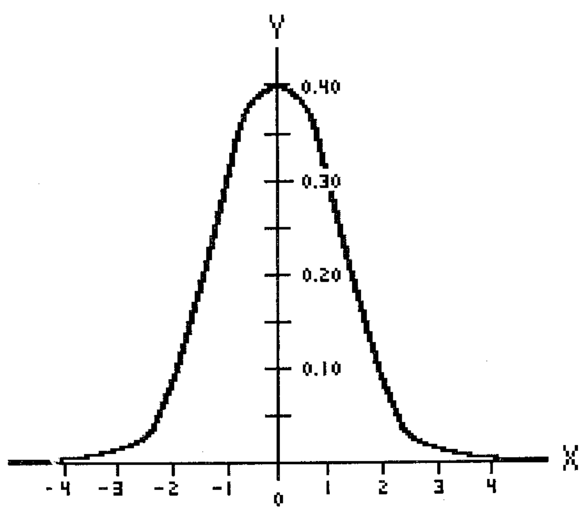
ذكرنا في الباب الأول ما جاء في الأسلوب القرآني للحضارة ومفرداتها، وفي هذا الفصل سنذكر ما ثبته القرآن الكريم من قوانين عامة لكل الحضارات دون استثناء، بينما نذكر في فصل لاحق ما استثنى به الإسلام وحضارته لأهميتها في إقامة العدل الذي يريده الله لعباده.

١- قانون الآجال المؤقتة:

إذا ما تدبرنا مسيرة الحضارات الكبيرة في جميع الحقب التاريخية للبشر (بلاد الرافدين، وادي النيل، الصينية، اليابانية، الهندية، الفارسية، الإغريقية، الرومانية، الفينيقة، الأوربية الحديثة) تجد أن لها صعوداً إلى القمة ثم تدحرج وانهيار لأسباب عديدة منها داخلية وأخرى خارجية يمكن إجمالها بأنها سياسية اقتصادية، خلقية اجتماعية، عسكرية. هذا الصعود والنزول يشبه لحد كبير المنحنى الطبيعي في علم الإحصاء أو دالة التوزيع الاحتمالي الذي يذكر بعض العلماء أنه يفسر كل الظواهر حولنا. وقد ذكر القرآن الكريم بعض حالات هذه الحضارات كحضارة مصر وبلاد الرافدين وعاد وثمود وحضارة اليمن في آيات معروفة.

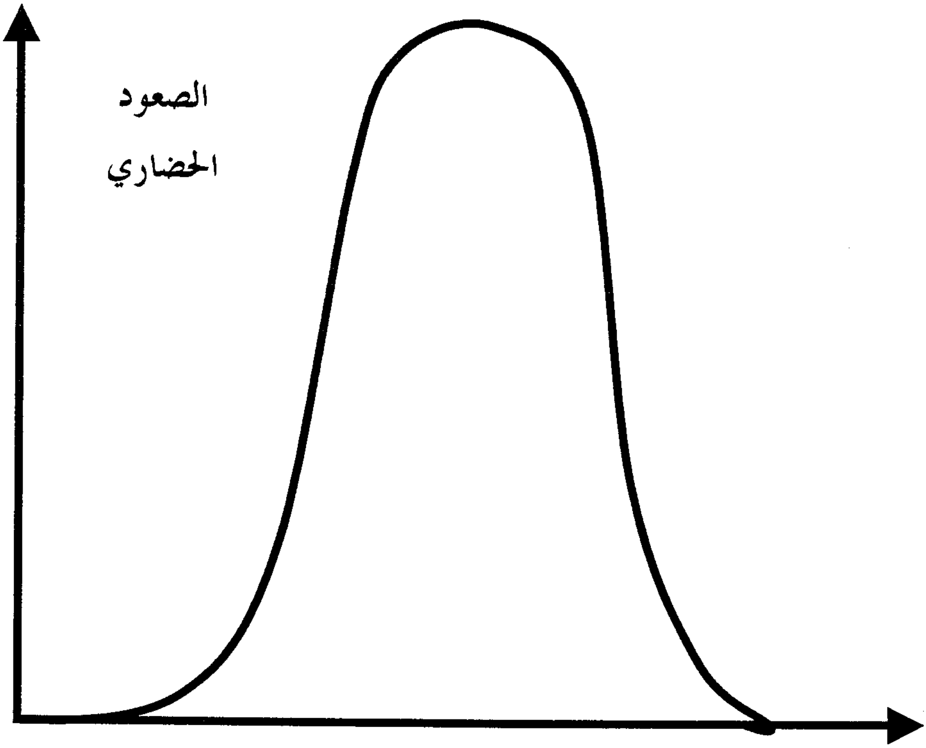


رسم دالة التوزيع الطبيعي



The normal probability curve.

رسم دالة التوزيع الاحتمالي



قانون التوزيع الطبيعي للحضارات

صعود الحضارات والأمم أو القرى يكون تبعاً لقانون التوزيع الطبيعي في علم الإحصاء أو قانون التوزيع الاحتمالي ضمن علم الاحتمالات

لا يمكن استثناء حالة أو دولة من هذا القانون صغرت أم كبرت، على مستوى الأفراد في داخل الدولة أم على مستوى الدول العظمى عبر التاريخ أو ما يعرف بالإمبراطوريات، ولكل أمة أو إمبراطورية مدة زمنية وأجل محتوم[1] ضمن هذا القانون العام وهو ما صرح به القرآن الكريم بقانون واضح المعالم: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾، (الأعراف:٣٤)... ﴿...لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ

(١) وها هي خمسة حضارات عظيمة تنهار في القرن العشرين الميلادي لوحده، وهي العثمانية، البريطانية، الفرنسية، الألمانية، وأخيراً السوفياتية، وكما أشار أكبر مؤرخي الولايات المتحدة بول كينيدي في كتابه (نشوء وسقوط الامبراطوريات).

إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾، (يونس: من الآية٤٩)... ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾، (الحجر:٥، المؤمنون:٤٣).

أي أن الأمم لها وقت وأجل محتوم في بروزها على مسرح الأحداث بشتى النواحي التي يشملها تعريف الحضارة حتى تصل إلى قمة المجد والصعود، ومن ثم يكون لها أجل للنزول والتدهور. ولعل من أبرز أسباب الصعود هي الأسباب الروحية والمعنوية وكذلك الأسباب المادية أو الاثنين معاً.. وقد يقول البعض أن المعنى يعني انتهاء الأمة بفنائها إذا جاء وعد الله بالهلاك لها، فنقول والله أعلم أن الهلاك لا يعني بالضرورة فناء مادي بل فناء وخواء فكري وحضاري.

فإذا ما عملنا دراسة للقرى (الحضارات) التي تحدث عنها القرآن الكريم نجد أنها جميعاً صعدت ووصلت لأعلى درجات الرقي والتحضر والمدنية والصناعة:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾، (الشعراء)... ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾، (الشعراء:١٤٩).

فقوم فرعون وأهل سبأ، وعاد وثمود، وهامان وقارون والنمرود، وأهل الأيكة وقوم تبع، وأقوام آخرين ذكروا بالعموم وليس بالاسم ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾، (الأنعام:٦).. كلهم وصل بهم الصعود في درجات الحضارة وسلّم التقدم والبناء المادي إلى مراحل عالية حتى بلغوا قمة مجدهم الذي لم يبن على أسس مادية-خلقية مشتركة بل اكتفى بناؤه بالجانب المادي فقط لتختل معادلة الدولة والمجتمع ويفقد توازن الحضارة، حتى بلغ بهم التكبر والبطر والاستعلاء والاستهزاء بالقيم والأخلاق مبلغاً ليطبق عليهم قانون الله في العذاب — وهو ما سنفصله لاحقاً – فهووا في أودية الانحطاط السحيقة وأتون الرذيلة المدمرة ودمروا عن بكرة أبيهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾، (هود:١٠٢).

وهذا التأكيد القرآني على قصص الأقوام تجده أمامنا اليوم وعلى مر التاريخ مشخصاً

واضحاً، ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾، (الأحقاف:٢٦)... وملخص هذا التأكيد هو أن الأصل في البناء هو البناء الروحي والخلقي وما يعضده من بناء نفسي وذهني واجتماعي، وأن البناء المادي إما أن يكون خادماً لهذا الغرض أو مكملاً له في أحسن الأحوال، كي تتحقق المؤهلات التي تجعل من المجتمع المعين والحضارة المقصودة مؤهلة لأن تكون مستخلفة ويطبق عليها قانون الاستخلاف الذي يرضاه الله لها ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾، (الحج:٤١).. لذلك فكل حضارة مهما بلغت من رقي إن لم تلتزم بالأصل الذي هو البناء الخلقي والروحي فإن مصيرها حتماً السقوط والتراجع والنسيان، وهذا ما يحدثنا به التاريخ.

٢- قانون الخلاف والاختلاف:

الاختلاف قانون وسنة إلهية في خلقه، فهي فطرة بشرية جبل الناس عليها، يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾، (يونس:١٩).. ويقول تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾، (الروم:٢٢)... ولعل أهم ما جاء في ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾، (هود).

وبذلك جعل حق الاختلاف من لوازم الخلق، ومن سبل التنافس الشريف نحو النمو والرقي والكسب والتقدم. لذا كان من العبث والتعصب التنكر لهذا الاختلاف، أو التوهم بأن الناس يمكن أن يكونوا نسخاً مكررة، فذلك معاكس لإرادة الله تعالى وللفروق التي بين البشر في اللون واللغة والخلقة وغيرها. وهذا التوهم إن حصل فهو مدعاة للتعصب والتناكر والتمايز بدلاً من أن يكون سبيلاً للتكامل والحوار والتعاون والتبادل الفكري

والمعرفي[1]، وذلك تطبيقاً لقانون التكريم الذي ذكرناه في الفصل السابق.

والاختلاف هو التنافر والابتعاد الشديدين بين رأيين يصل في بعض الأحيان إلى التعصب والاقتتال والصراع كما كان شأن الأمم والحضارات المختلفة فيما بينها على مر العصور والدهور، بينما الخلاف تنافر وابتعاد لا يفسد للود قضية... هذا التنافر قد يتصاعد ليصل حد الصراع الفكري والاقتصادي بل وقد يصل حد الاقتتال العسكري.

وقد يختلط الأمر على الناس من أن أي افتراق في الرأي بين شخصين أو أكثر أو جماعتين أو أمتين معناه أن الأمر سيؤدي إلى تصادم وصراع.. والحقيقة أن المسألة ليست كذلك، فمن طباع البشر الاختلاف في الذوق والتفكير والرؤيا للأمور حسب ثقافاتهم ونظراتهم وأساليب وأنماط تصوراتهم وتفكيرهم وعوامل أخرى. وأمر الخلاف والاختلاف طبيعياً كما تبينه الآية الكريمة أعلاه.

ولو فطر الناس على رأي واحد ما كان الله تعالى ليبين للمسلمين أن لو اختلفتم في أمر فردوه إلى الله والرسول واسألوا أهل العلم والذكر منكم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾، (النساء: ٥٩)، وما كان رسول الله ﷺ ليسأل الناس المشورة في كل الملمات التي نزلت بالمسلمين ويقول "**أيها الناس أشيروا علي**" فيقبل رأياً ويرفض آخر، وما كان ليوضح للأمة أن يعطوا للناس مقامهم ومنزلتهم وليبين أن الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا ما عملوا بالشرع الحنيف، ولولا اختلاف الرؤى والأساليب ما كان هناك معنى للتخيير والاستخارة وما كان ﷺ إذا خير بين أمرين اختار أيسرهما وما كانت المذاهب الفقهية التي ما كان أصحابها لينتقصون من آراء غيرهم بل وينسبون الخطأ لهم والصواب لغيرهم تواضعاً للعلم وأهله، وغير ذلك من الأمثلة الدالة على مشروعية تنوع وتلون الأفكار والأذواق والأساليب فلولا الأذواق لبارت السلع في الأسواق كما يقولون.

على أن الاختلاف الذي لا يريده الله لنا هو الاختلاف المؤدي إلى تمزيق الشمل لأمم البشر، فالبشر جميعهم لا يرضى ربهم لهم الكفر، ولكن للجنة أهلها وللنار أهلها،

---

(١) عن مقالة للدكتور أكرم عبد الرزاق المشهداني في مجلة التربية الإسلامية، العدد ١٣، السنة ٣٥، رجب ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، بعنوان (حقوق الإنسان: بين الشريعة والقوانين الوضعية)، ص ٤٩.

وإليك الدليل من كتاب الله تعالى:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾، (البقرة:٢١٣).. ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾، (البقرة:٢٥٣).. ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾، (يونس:٩٣).. ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (النحل:٦٤).. ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾، (النحل:١٢٤).. ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾، (الجاثـية:١٧).

من نظرة سريعة على الآيات المبينات نصل إلى أن الاختلاف الممقوت عند الله والمؤدي للصراع هو الحيود عن الحق بعد تنبيته والذي يقوم به بعض البشر أفراد وجماعات وأمم لأغراض ومصالح ضيقة، فيقلبون الحقائق ويغيرون ويحرفون الكلام المبين.. كما وتدل الآيات أن تلك المسألة كانت فيمن سبق من الأمم سنة سيئة حذّر الله تعالى من الوقوع فيها.

الخلاف أهون من الاختلاف، فالاختلاف صرفاً فيه زيادة على الفعل الأصلي، وكل زيادة في المبنى تعطي زيادة في المعنى، والمعنى أزدياد التنافر والابتعاد بين رأيين أكثر من

حالة الخلاف، وقد يؤدي إلى التشرذم والتفرّق، الأمر الذي لا يرضاه الله تعالى لأمتنا خاصة ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾، (آل عمران: ١٠٣).. ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾، (آل عمران:١٠٥)..

المثل المضروب في هذه الآيات المباركات هو لأمم سابقة لنا، أهل كتاب اختلفوا وتفرقوا لمصالح دنيوية بعيدة عن الإخلاص لدين الله تعالى ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾، (الشورى:١٤).. كما وكان الخطاب للنبي ﷺ والأمة يحذر من مغبة التفرقة في الدين أحزاب وجماعات لأن ذلك نقض للوحدة والاتحاد التي هي من خصائص الأمة التي سنتكلم عنها في الاستثناءات، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾، (الأنعام:١٥٩).. ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾، (الروم:٣٢).

وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٣٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (**إِيَّاكُمْ وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ**)، قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَمَعْنَى قَوْلِهِ وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ إِنَّمَا يَعْنِي الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ وَقَوْلُهُ الْحَالِقَةُ يَقُولُ إِنَّهَا تَحْلِقُ الدِّينَ.. وعنه أيضاً في نفس الباب (٢٤٣٣) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاةِ وَالصَّدَقَةِ**)، قَالُوا بَلَى قَالَ (**إِصْلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ**)، قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ وَيُرْوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (**هِيَ الْحَالِقَةُ لا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**).

٣- قانون الدرجات والتسخير

من قوانين الأمم في القرآن الكريم أن الله تعالى قد جعل الدرجات بين البشر في النواحي المادية والفكرية والصحية لأغراض دنيوية وأخرى دينية، فأما الدنيوية فهي لتمشية الحوائج وقضاءها، إذ لولا ذلك لما استقامت المصالح ولما كانت المعاملات والتي هي أيضاً من صلب فلسفة الوجود التي ذكرناها في قوانين الخلافة والاستخلاف والعمارة في الفصل السابق.

هذا القانون مهم جداً في سير عملية الابتلاء وقانونه آنف الذكر سواء على مستوى الأشخاص أم على مستوى الأمم، كما يقتضي صعود أشخاص معينين أو أمم معينة على حساب آخرين في دوامات وأمواج صعود ونزول الحضارات التي تشبه المنظر الثاني لمثال الشلالات الذي ضربناه في بداية الكتاب.

يقول تعالى مخاطباً جميع الناس، مع الأخذ بالاعتبار أسباب النزول للآية الكريمة والتي نزلت عقب تكبر كفار مكة والطائف على ما نزل على المصطفى ﷺ من قرآن وقولهم أن النبي لا يستحق أن يكون بهذا الشرف -حاشاه ﷺ- لأن هناك من هو أجدر منه من هاتين القريتين، فأجابهم الله تعالى بقوله ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾، (الزخرف:٣٢).وحيث أن التفسير لعموم النص لا لخصوص السبب، فإن الخطاب يشمل كل الناس ولا يقتصر على المسلمين فحسب.

ومعنى الآية أن قانون الدرجات والتسخير بين الناس والأمم هذا هو من سنن وقوانين الله التي لا تتغير، ولكن من اتقى واتبع الهدى فإن ذلك له أخير من اتباع أرزاق الناس وتشريف الله لهم.

ويعضد هذا القانون آيات أخرى سبق وأن ذكرناها في مقدمة الكتاب من قوله تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾(الأنبياء: ٣٥).. ﴿... وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ ، (الفرقان: من الآية ٢٠).. كما ويعضدها ما جاء في قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ

بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾، (النحل:٧١).

وإن من أثر الابتلاء والفتنة والتسخير أمراضاً تدخل وتأكل في قلوب الناس والمجتمعات تعمل على نخرها وتدميرها ومنها الحسد والغيبة والنميمة وغيرها، وهذا قد حدّث به القرآن الكريم كما يتبين ذلك في قول الله تعالى محدثاً عن لسان أقوام سبقوا ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾، (الأنعام:٥٣).. ومعنى الفتنة هنا ما يكون من أمر الحسد بين الناس بسبب تفضيل بعضهم على بعض، ومنه الحسد الذي لا يدخل في باب الغبطة وهو الحسد الجالب للأذى بأنواعه. ومن الحسد حسد للمال والولد والجاه والسلطان والعلم (وهو أخطر الحسد الذي كان سبباً لعداوة أهل الشر للأنبياء والرسل والمصلحين والعلماء) وغيره... ومن هذا كان معنى قول سيدنا يعقوب عليه السلام لأولاده عند دخولهم على عزيز مصر أن ادخلوا من أبواب متفرقة خشية أن تحسدوا لكثرتكم، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة التي تحدثت عن القصة في سورة يوسف ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾، (يوسف).

وقد بينت أحاديث المصطفى ﷺ مسائل مهمة في أمراض النفس ومنها الحسد والكذب والغيبة والنميمة وأثرها الهدام على الناس في الدنيا وأكلها لحسناتهم يوم القيامة... وفي الحسد أيضاً وهو من أنواع أمراض النفس البشرية التي تدخل في باب الفتنة والابتلاء والتسخير وفي أمراض أخرى نزلت المعوذتان وهما من أعظم السور التي جاءت الأحاديث الصحيحة لتبين مكانتهما وعظم أجر تلاوتهما وحفظهما.

٤– قانون العذاب

لا بد لكل أمة من أجل تنتهي عنده أو يتوقف أو يقل عطاؤها كمؤثر أساس في

حركة المجتمعات والدول، فيكون تأثيرها ثانوياً أو هامشياً، أي تصبح أمة أو حضارة مغلوبة بعد أن كانت غالبة تماماً كحركة موجات المياه في المنظر الثاني لمثال الشلالات الذي ذكرناه آنفاً. هذه النهاية أو هذا النزول له مسبباته كما أسلفنا، ومن أهم تلك المسببات النخر الداخلي لفساد المجتمع والضغط الخارجي لأمة أخرى، فتحل الكوارث الطبيعية والاقتصادية والنفسية والصحية والاجتماعية داخلياً، والعسكرية والسياسية والفكرية والاقتصادية خارجياً.

وقد يكون فناء الأمة من قبل أمة أخرى بحرب عسكرية واقتصادية وغزو فكري، أو من كارثة طبيعية تحل بها، أو من داخلها جراء نشر الفساد وما يفعله من نخر مستمر لهيكلها حتى يسقطه ويجعله أثراً بعد حين، أو بالاثنين معاً، وهذا أيضاً ما جاء في كتاب الله بقانون واضح آخر:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ ، (الأنعام:٦).. ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾، (الأعراف:٤).. ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ ﴾، (الحجر:٤).. ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ ﴾، (الأنبياء:١١).. ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾، (الحج:٤٨).. ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾، (الفرقان)، ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ﴾، (الشعراء:٢٠٨).. ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ

أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾، (محمد:١٣).. وآيات أخرى عديدة.

يقول الله تعالى في قانون مهم يبين سنة العذاب للأمم والأقوام: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾، (الإسراء:٥٨).

وسواء أكانت تلك الأمة قد جاءها نذير مباشرة أو قد وصلها خبر عنه ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾، (فاطر:٢٤).. ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾، (القصص:٥٩).

فالإهلاك والتعذيب للأمم إذن من سنن الله في خلقه لأن الآية تشير إلى نفي وجود احتمالية لعكس ذلك وهو قوله تعالى (وإن) أي وما من قرية، فلا توجد قرية وبمعنى أشمل أمة إلا ويسير عليها قانون العذاب هذا.. ولكن ما نوع العذاب الذي جاء عاماً في هذه الآية، وهل من تحديد وتخصيص؟.

يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾، (النحل:٣٦).

يدلنا الله تعالى أن نسير في الأرض ونقلب صفحات التاريخ لنتعلم من أمم وحضارات خلت ما حصل بهم وما كان من أمرهم، الأمر الذي بينه الله تعالى في تعداد أنواع العذابات التي لحقت بأمم مختلفة (*) بقوله جل وعلى ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾،

(*) كما حصل لأهل بركان فيزوف الذي حصل قبل حوالي ٢٠٠٠ عام على قوم في جنوب إيطاليا كانوا مفسدين فعاقبهم الله تعالى بأن حنطهم البركان وهم يمارسون الفاحشة كي يراهم من يأتي من بعدهم ليتعظ ويتدبر، أو كما حصل لقوم لوط.

(العنكبوت:٤٠).. فهذه الأنواع وغيرها بينها القانون القرآني المهم التالي: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾، (الأنعام:٦٥).. أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: لما نزلت: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ... ﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: (**لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف**)، قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فقال بعض الناس :لا يكون هذا أبدا أن يقتل بعضنا بعضا ونحن مسلمون، فنزلت: ﴿... ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾،... وكأن الله تعالى يبين للأمة في هذه الآية الكريمة قانوناً عاماً لم يجعل له سبب نزول جراء حادثة أو حكم أو قصة معينة، بل نزلت هكذا ليفسرها رسول الله ﷺ للمسلمين ويحذرهم من مغبة هذا القانون القرآني الهام والشامل لكل أجناس البشر بما في ذلك المسلمون إن هم ابتعدوا عن منهج ربهم.

إذن من هذه العذابات - كما تذكر الآية الكريمة - ما يكون عذاباً من جراء الطبيعة وما تأتي به السماء من عذاب كالقواصف كما في حالة الرعد والصواعق والنيازك، أو كالعواصف كالرياح والأعاصير المدمرة والتي فيها النيران والمطر، والرجز، والكسف والحاصب أي النيازك وحجارة السماء، والصيحة أي الصوت المدوي المهلك، ويوم الظلة، وغير ذلك مما يدخل تحت عنوان قوله تعالى ﴿..عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ..﴾... أو ما تأتي به الأرض من عذاب كالزلازل، والبراكين، والخسف والهطول والخسف في الأرض كما في حالة قارون، أو الهيجانات البحرية وفلق البحر كما حصل لفرعون، وهو ما قصد من قوله تعالى ﴿..أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ..﴾، بل حتى تسليط الدواب والحشرات لتفتك بالزرع كالجراد وبالإنسان كالذباب والجراثيم والفايروسات غير المرئية، والجدب والقحط والأخذ بالسنين ونقص الثمرات والخسائر الاقتصادية الناجمة عنها يدخل ضمن هذا التقسيم وهو ما ذكر في آيات أخرى كآيات العذاب التي سلطت على قوم فرعون ومنها الجراد والقمل والدم والقحط وغيره ، ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ

وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾، (الأعراف:١٣٠).. ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾، (الأعراف:١٣٣).

وفي باب ما ذكر من إهلاك الأمم عامة ممن كان قبلنا كما قال بعض السلف وذلك قبل نزول التوراة، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾، (القصص: ٤٣). وهو كما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبزار من حديث عوف الأعرابى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد الخدرى، قال: ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء أو من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخوا قردة ألم تر أن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾، ورفعه البزار في رواية له، والأشهب، والله أعلم، وقفه، فدل على أن كل أمة أهلكت عامة قبل موسى عليه السلام[1].

٥- قانون المترفين والأكابر

من الأسباب التي ثبتها القرآن الكريم في عذاب الأمم والقرى، أسباب داخلية مصدرها أكابر القوم من المترفين والمنتفعين وكبار المحتكرين وتجار الفساد والحروب والمجاعات والسياسة والشعارات. هذه المجاميع أخبر القرآن الكريم أن لهم اليد الطولى في تدمير مجتمعاتهم ودولهم لأن همّهم لا ينصب على فائدة الناس بل على مصالحهم الخاصة والمنحرفة. اسمع لقول الله تعالى في ذلك: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾، (الأنعام: ١٢٣)... ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾، (الإسراء:١٦).

يقول صاحب التبيان في تفسير غريب القرآن (ج١/ص١٩٨): أكابر مجرميها أي

(١) موسوعة الدكتور طارق السويدان، قصص الأنبياء، قرص مدمج.

عظماء مذنبيها... ويقول البيضاوي في تفسيره (ج٢/ص٤٤٩): جعلنا أي صيرنا أو مكنا... وفي الإتقان (ج١/ ص ٣١٧): مترفيها أي كبار شرارها، وفي الإتقان أيضاً (ج١/ ص٣٦٦) أمرنا أي سلطنا... ومن الجدير بالملاحظة والإشارة هنا أن التمكين والأمر المقصود في الآية لهؤلاء المجرمين ليس ظلم الله تعالى لعباده —حاشا لله- وإنما لتقام على المجرمين من الأكابر والمترفين حجة الفساد والإفساد، وعلى الناس من أهل القرية بأنهم لم يمنعوا هؤلاء ويردون غيهم. أي أن الله تعالى إذا ما وجد أمة لا تأمر بأمره فإنه يتركها لكيد مفسديها، فيعيثوا في الأرض فساداً، أما إذا ما التزمت الأمة بمنهج الله تعالى فإن الله مانعهم من كيد الخائنين ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾، (الحج:٣٨).

يحفل تاريخ الأمم والشعوب بأمثال هؤلاء المترفين والأكابر، وقد لا تستثنى حتى القبائل الصغيرة من تجارب مريرة مرت بهم على يد أمثال هؤلاء. وإنك لا تجد نهاية لدولة عظيمة أو امبراطورية أو مملكة إلا وكان لأمثال هؤلاء نصيب الأسد من أسباب الانهيار، والأمثلة أكثر من أن تذكر.

ومن الأساليب القرآنية في مدى الإجرام الذي يرتكبه هؤلاء الأكابر والمجرمين بحق أهلهم ورعيتهم قوله تعالى ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾، (إبراهيم).

بل وأن القرآن الكريم ذكر خصائص بعض الناس ممن يجتمعون حول هؤلاء الأكابر ليجعلوا منهم أشخاصاً مؤلهين، فذكر أنهم سيكون حالهم كحال أنثى العنكبوت التي ما إن تكمل بيتها ووضع عيالها حتى تأكل زوجها وعيالها ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾، (العنكبوت:٤١)[1]، وهكذا يعمل هؤلاء الأكابر فيقتلون أتباعهم المقربين لهم، ويأكل بعضهم بعضاً أما لمناصب أو نفوذ أو أموال وغيرها من متاع الدنيا.. بل وقصّ القرآن الكريم كيف أن بعضهم يتخلى عن البعض عند الشدائد

(١) راجع كتابنا (الحيوانات والحشرات)، ضمن سلسلة (ومضات إعجازية في القرآن والسنة النبوية).

سواء في الدنيا، أو عند الحساب يوم القيامة ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾، (البقرة:١٦٦)... ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾، (القصص).

٦- قانون البطر:

لئن كان القانون السابق يخص الملوك والرؤساء والأمراء والحكام، فإن هذا القانون يخص عامة الناس من أهل أمة معينة.. ويثبِّت لنا القصص القرآني أن من أهم الأسباب التي أدت إلى زوال الحضارات وانتهاءها وجلب العذاب والخراب والدمار إليها هو بطر أهلها وكفرهم بنعم ربهم وعدم شكره على تلك النعم. يقول تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾، (القصص:٥٨).

ومن القرى التي ضربت في الكتاب العزيز قصة البطر التي ضربتها الآية المباركة: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾، (النحل:١١٢).. والكفر بالنعمة هنا ليس كفراً عقائدياً بل هو البطر ونسيان الشكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول الطبري في تفسيره **(ج: ١٤ ص: ١٨٥-١٨٦)** عن هذه الآية الكريمة ما نصه: (القول في تأويل قوله تعالى: (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)، يقول الله تعالى ذكره ومثل الله مثلاً لمكة التي سكانها أهل الشرك بالله هي القرية التي كانت آمنة مطمئنة، وكان أمنها أن العرب كانت تتعادى ويقتل بعضها بعضا ويسبي بعضها بعضا وأهل مكة لا يغار عليهم ولا يحاربون في بلدهم فذلك كان أمنها وقوله مطمئنة يعني قارة بأهلها لا يحتاج أهلها إلى النجع كما كان سكان البوادي

يحتاجون إليها يأتيها رزقها رغدا يقول يأتي أهلها معايشهم واسعة كثيرة. وقوله من كل مكان يعني من كل فج من فجاج هذه القرية ومن كل ناحية فيها وبنحو الذي قلنا في أن القرية التي ذكرت في هذا الموضع أريد بها مكة. قال أهل التأويل، ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن سعد قال ثني أبي قال ثني عمي قال ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان يعني مكة، حدثني محمد بن عمرو قال ثنا أبو عاصم قال ثنا عيسى وحدثني الحارث قال ثنا الحسن قال ثنا ورقاء جميعا عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قرية كانت آمنة مطمئنة قال مكة.. حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثني حجاج عن ابن جريج عن مجاهد مثله.. حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة قوله وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة قال ذكر لنا أنها مكة.. حدثنا ابن عبد الأعلى قال ثنا ابن ثور عن معمر عن قتادة قرية كانت آمنة قال هي مكة.. حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة..إلى آخر الآية، قال هذه مكة. وقال آخرون بل القرية التي ذكر الله في هذا الموضع مدينة الرسول ﷺ ذكر من قال ذلك حدثني ابن عبد الرحيم البرقي قال ثنا ابن أبي مريم قال أخبرنا نافع بن يزيد قال ثني عبد الرحمن بن شريح أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمي حدث أنه سمع مشرح بن عاهان يقول سمعت سليم بن نمير يقول صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبي ﷺ وعثمان محصور بالمدينة فكانت تسأل عنه ما فعل حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما فقالا قتل فقالت حفصة والذي نفسي بيده إنها القرية تعني المدينة التي قال الله تعالى وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله قرأها، قال أبو شريح وأخبرني عبد الله بن المغيرة عمن حدثه أنه كان يقول إنها المدينة، وقوله فكفرت بأنعم الله يقول فكفر أهل هذه القرية بأنعم الله التي أنعم عليها، واختلف أهل العربية في واحد الأنعم فقال بعض نحويي البصرة جمع النعمة على أنعم كما قال الله حتى إذا بلغ أشده فزعم أنه جمع الشدة وقال آخر منهم الواحد نعم وقال يقال أيام طعم ونعم أي نعيم قال فيجوز أن يكون معناها فكفرت بنعيم الله لها)..

فإذا كان أهل التفسير قد فسّروها بأنها مكة أو المدينة لأسباب لغوية أو موضوعية تتعلق بآيات أو أحاديث أخرى تفسرها، فإن المتتبع للأحداث الراهنة بإمكانه إسقاط نفس الأسباب من قانون البطر الواضح في هذه الآية على أمم كثيرة في عصرنا الراهن

ومنها أمتنا الإسلامية.

كذلك قصة قارون مع البطر والكفر تشكل مثالاً ساطعاً على دليل زوال النعم واندثار الصروح جرائها، إذ يقول الله تعالى في سورة القصص: ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾..

والبطر كما علمنا الصادق الأمين هو التكبر على الحق ومنع الناس حقوقهم بأخذها عنوة أو بسرقتها أو بتبذيرها. ففي سنن أبي داود (اللباس ٣٥٦٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَكَانَ رَجُلاً جَمِيلاً فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه إِنِّي رَجُلٌ حُبِّبَ إِلَيَّ الْجَمَالُ وَأُعْطِيتُ مِنْهُ مَا تَرَى حَتَّى مَا أُحِبُّ أَنْ يَفُوقَنِي أَحَدٌ إِمَّا قَالَ بِشِرَاكِ نَعْلِي وَإِمَّا قَالَ بِشِسْعِ نَعْلِي أَفَمِنَ الْكِبْرِ ذَلِكَ قَالَ (**لاَ وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطِرَ الْحَقَّ وَغَمَطَ النَّاسَ**).

أي أن التعريف الأشمل للبطر هو الترف الشخصي أو الجماعي مصحوباً بمنع الناس حقوقهم، وهو ما نجده شاخصاً أمامنا اليوم في دول عديدة ومنها دول في أمتنا الإسلامية.. ويحدثنا التاريخ عن انتهاء لأكبر الحضارات في التاريخ كالفرعونية والآشورية

والبابلية والفارسية والرومانية والإغريقية والفينيقية كلها جراء الفساد الداخلي الذي حل بها، وعلى رأسه البطر والإسراف غير المبرر والبذخ والتبذير. بل حتى الدول التي شكلت بمجموعها الحضارة الإسلامية لم تسلم من هذا القانون، فالدولة الأموية والعباسية والعثمانية والأندلسية كلها انتهت لنفس السبب عندما ركنت إلى الدنيا وتصارع أمراءها عليها وعلى ملكها فألهتهم كما ألهت من قبلهم من الأمم.

لذلك كان العلاج الإسلامي الذي بينته سيرة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه وبركاته يكمن في قتل هذا الداء الخطير وأمثاله، وهذا العلاج هو التكافل الذي ترسخ بأبهى صوره في تآخي المهاجرين والأنصار وتقاسمهم لسبل الرزق والعيش، فكان هذا العلاج قاتلاً لأمراض اجتماعية عديدة كانت سبباً في دمار أمم سابقة ولاحقة، فيها الحسد والبطر والكبر والبخل وغيرها.

إن نظرة سريعة على تاريخنا الإسلامي قديمه وحديثه، وكذلك ما حصل في وقتنا الراهن وتحديداً بعد انتهاء الحرب الكونية الثانية وتشتت دولة الإسلام إلى دويلات متفرقة يخبرنا عن حقيقة هذا القانون الخطير وهو أثر البطر المصاحب لكل تدهور في أمتنا وحضورها الحضاري. وخلاصته أن حب الدنيا والمال والسلطان، وترك أوامر الشريعة في الاعتصام بحبل الله والتوحد على كلمة الله، وتفضيل ولاية العصبية الوطنية والمذهبية والقومية على ولاية الإسلام وأهله، وغير ذلك مما يدخل في مفهوم البطر الأشمل ومنع الحريات المقننة سواء أكانت فكرية أم تعبدية أم شخصية، فضلاً عن نسيان الشكر، والتي أدت كلها بمجموعها إلى تناقص التأثير الروحي والعقلي لعظمة هذا الدين على عوام الناس فضلاً عن ضياع الدول والأمصار منا ابتداء من ضياع الأندلس وشرق أوربا وأواسط آسيا وانتهاء بفلسطين وأفغانستان وأخيراً العراق، والله يسترنا بلطفه من قوابل الأيام إن لم نتعظ ونفهم المعادلة.

٧- قانون التدافع والتصارع بين الأمم(المشهد الثاني لمثال الشلال)

النوع الثالث من أساليب العذاب التي جاءت في سورة الأنعام الآية ٦٥ والتي ذكرناها آنفاً، هو ما جاء في تسليط قوم على قوم آخرين، فإذا ما لاحظنا قوله تعالى من نفس الآية ﴿..أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ..﴾، وهي الآية العامة التي ذكرناها في موضوع قانون العذاب، أتت ضمن سياق تعداد أساليب العذاب الذي ينزله

الله تعالى بالناس.

وهذا يعني أن من سنن الله تعالى في تمحيص واختبار وابتلاء الأمم هو صراعها فيما بينها في الفكر والمعتقد ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٥١﴾، (البقرة: من الآية٢٥١). هذه المسألة تجدها واضحة في القصص القرآني في سورة الإسراء عندما سلط الله تعالى قوم كافرين هم أهل بابل على قوم آخرين رغم أنهم أهل كتاب وهم بني إسرائيل عندما ابتعدوا عن منهج الله تعالى وانتهكوا حرماته وأوامره.

الصراع يبدأ من الاختلاف الذي شرحنا قانونه آنفاً، وقد يبدأ من مستوى الأفراد وينتهي بالأمم العظيمة. وإذا أردنا تقسيم الناس في عالمنا قديمه ومعاصره فسنجد أنهم على فسطاطين أو صنفين، صنف بسيط سلس يمشي على الأرض هوناً لا يريد إلا أن يمارس حياته بسلام وكرامة وعبودية خالصة لله تعالى لا يعتدي على أحد ولا يرضى لأحد أن يعتدي عليه، لكنه رغم ذلك مهدد بالفناء والانقراض من الصنف الآخر، ذلك الصنف المفسد القاتل الذي لا خلق له ولا التزام عشوائي المعتقد يريد تحويل البشر كلهم إلى خدم له بالقوة ولا يمنحهم حق مشاركتهم له هذا الكوكب الجميل على قدم المساواة.

والمتأمل في عالم اليوم يجد قتل وهتك للأعراض وسلب ونهب وتدمير وحرق وحروب في كل أصقاع الدنيا، ولا تجد أرخص من دماء المسلمين وكأن المسلم أصبح العقبة الكؤود التي تعرقل دوران الأرض، ولا يحق للمسلم ليصرخ ويقول أين حقي أو لماذا هذه التفرقة وعدم المساواة، مع أن المسلمين المنتشرين في كل أصقاع الدنيا جلهم مسالمون راغبون بالعيش بهدوء وتعاون مع كل الأقوام بما يرضي الله ويحقق العدالة والتوازن على هذه البسيطة عملاً بقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ (الحجرات:١٣).

والمتأمل للتأريخ البشري عموماً والإسلامي خصوصاً يجد أيضاً صراعاً مستمراً بين الفرقتين وإن اختلفت الصيغ والأشكال، فإما قاتل ظالم أو مظلوم يقتل بغير ذنب ولا جريرة إلا تماشياً مع رغبات الطرف الآخر، وأظن أن هذه المعادلة ستستمر عبر العصور

بوتيرة متصاعدة حتى يرث الله الأرض ومن عليها وكما أنبأنا الصادق الأمين ﷺ في معرض حديثه عن آخر الزمان وعلامات يوم القيامة والتي سنذكر بعضها في قانون الفتن المتلاحقة.

وإذا أردنا تحليل المسألة ببعد قرآني شامل نقول أن هذين الصنفين للبشر أما قاتل كقابيل أو مظلوم كهابيل، ومعلوم أن قابيل وهابيل هما ابني أبي البشر سيدنا آدم عليه السلام وقد ذكرهم الله في قوله: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (المائدة)..

ولكن المذابح والويلات والأزمات الأكثر إيلاماً وبشاعة هي تلك المذابح التي يتعرض لها أصحاب العقيدة والإيمان من الصابرين المحتسبين اللذين لهم بشرى من النبي ﷺ أن هذا الذي يمرون به إنما هو من محبة الله تعالى لهم، فإذا أحب الله عبداً ابتلاه بحسب دينه وإيمانه. وكل المذابح التي تعرض لها المؤمنون وأهل الأنبياء وأتباعهم وأصحابهم، كل مظلومي ومقهوري الشعوب وضحايا القمع والدكتاتورية عبر التأريخ يدخل تحت هذا التصنيف، وكأن حكمة وفلسفة الوجود هي هذا الصراع الدامي الذي لا يستثنى منه شعب من شعوب الأرض أو بلد وأمة من الأمم كبيرها وصغيرها.

وإنما هذه الأيام تتداول بين الناس والأمم فمن ملك وكان عادلاً فله المجد والثناء الحسن بين الناس والفوز في الآخرة، ومن كان ملكه ظلماً وقهراً للبلاد والعباد فله أياماً يقضيها في الدنيا خائفاً يترقب مع الخزي والكراهية واللعنة، وله العذاب والخزي الأبدي في الآخرة، وشتان بين الفريقين.. هذا بالضبط ما حصل لعدالة المسلمين حين حكموا الدنيا وباعتراف خصومهم، وبين حكم الغرب وطغيانه، وهو نفس الفرق بين الحاكم العادل والحاكم الطاغية حتى وإن اشتركا في نفس الانتماء اسماً، وصدق القائل:

ملكنا فكان العفو منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح
إذا ما فعلنا الخير ضوعف شركم ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

إذن فالقانون العام للناس كافة هو صراع في الفكر والمعتقد وهذا ما يحدثنا به تاريخ

الأمم والشعوب منذ حادثة قابيل وهابيل تماماً كما تتلاطم ذرات الماء عند سقوط الشلال، وهو ما يعرف عند أهل العلوم الشرعية بسنة التدافع.

وفي كل الأحوال فإن الأقدار التي تنزل بالأمة أما لتذكرها أو لتمتحنها أو لتعمل على القانون العام في إزالتها عند استحقاقها للإزالة وإبدال الدور لأمة أخرى استحقت شروط القيادة والزعامة مادياً أو روحياً أو بكليهما. وعندما أراد الله تعالى أن يهون الأمر على المسلمين بعد معركة أُحد أعطاهم القانون القرآني المهم الذي يؤكد ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾، (آل عمران: ١٤٠) ، أي أن الحروب سجال بين الأقوام يوم لك ويوم عليك والعبرة في النهاية لمن يطاول ويصابر لأن النصر مع الصبر.

يقول القرطبي في تفسيره (ج: ٣ ، ص: **٢٥٩ – ٢٦٠**) حول قوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: (فيه مسألتان الأولى، قوله تعالى ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض – كذا قراءة الجماعة إلا نافعا فإنه قرأ دفاع وليس دفع – ويجوز أن يكون مصدرا لفعل كما يقال حسبت الشيء حسبانا وآب آيابا ولقيته لقاء ومثله كتبه كتابا ومنه كتاب الله عليكم. قال النحاس هذا حسن فيكون دفاع ودفع مصدرين لدفع وهو مذهب سيبويه، وقال أبو حاتم دافع ودفع بمعنى واحد مثل طرقت النعل وطارقت أي خصفت إحداها فوق الأخرى والخصف الخرز، واختار أبو عبد الله قراءة الجمهور ولولا دفع الله وأنكر أن يقرأ دفاع، وقال لأن الله عز وجل لا يغالبه أحد، قال مكي هذا وهم توهم فيه باب المفاعلة وليس به واسم الله في موضع رفع بالفعل أي لولا أن يدفع الله و دفاع مرفوع بالابتداء عند سيبويه. الناس مفعول، بعضهم بدل من الناس، ببعض في موضع المفعول الثاني عند سيبويه وهو عنده مثل قولك ذهبت بزيد فزيد في موضع مفعول فاعله الثانية، واختلف العلماء في الناس المدفوع بهم الفساد من هم؟. وقال ابن عباس ولولا دفع الله العدو بجنود المسلمين لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين وخربوا البلاد والمساجد، وقال سفيان الثوري هم الشهود الذين تستخرج بهم الحقوق وحكى مكي أن أكثر المفسرين

على أن المعنى لولا أن الله يدفع بمن يصلي عمن لا يصلي وبمن يتقي لأهلك الناس بذنوبهم وكذا ذكر النحاس والثعلبي أيضا.. قال الثعلبي وقال سائر المفسرين ولولا دفاع الله المؤمنين الأبرار عن الفجار والكفار لفسدت الأرض أي هلكت وذكر حديثا أن النبي ﷺ قال (**إن الله يدفع العذاب بمن يصلى من أمتي عمن لا يصلي وبمن يزكي عمن لا يزكي وبمن يصوم عمن لا يصوم وبمن يحج عمن لا يحج وبمن يجاهد عمن لا يجاهد ولو اجتمعوا على ترك هذه الأشياء ما أنظرهم الله طرفة عين ثم تلا رسول الله ﷺ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**)، وعن النبي ﷺ قال (**إن لله ملائكة تنادي كل يوم لولا عباد ركع وأطفال رضع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا**)، أخرجه أبو بكر الخطيب بمعناه من حديث الفضيل بن عياض، وحدثنا منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ (**لولا فيكم رجال خشع وبهائم رتع وصبيان رضع لصب العذاب على المؤمنين صبا**)، أخذ بعضهم هذا المعنى فقال لولا عباد للإله ركع، وصبية من اليتامى رضع، ومهملات في الفلاة رتع، صُبَّ عليكم العذاب الأوجع. وروى جابر أن رسول الله ﷺ قال (**إن الله ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ الله مادام فيهم**)، وقال قتادة يبتلي الله المؤمن بالكافر ويعافي الكافر بالمؤمن. وقال ابن عمر قال النبي ﷺ (**إن الله ليدفع بالمؤمن الصالح عن مائة من أهل بيته وجيرانه البلاء**)، ثم قرأ ابن عمر ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، وقيل هذا الدفع بما شرع على ألسنة الرسل من الشرائع ولولا ذلك لتسالب الناس وتناهبوا وهلكوا وهذا قول حسن فإنه عموم في الكف والدفع وغير ذلك فتأمله ولكن الله ذو فضل على العالمين بين سبحانه أن دفعه بالمؤمن شر الكافر فضل منه ونعمة).

وعليه فإن من معاني هذه الآية المباركة هو أن من سنن وقوانين الله تعالى في هذه الحياة هو أن يدفع الفساد عن أهل الأرض بتدافع الأقوام وتصارعهم.

ومن بين الدلائل القرآنية الكريمة على هذا القانون وهذه السنة الإلهية قوله تعالى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾، (النساء: ٩٠)، فجعل من أمره سبحانه أن لو شاء لسلط الكفار على المؤمنين إذا ما هم تخلوا عن تطبيق أوامره تعالى، ولكن أمره أن لا يجعل للكافر على المؤمن سبيلاً إذا ما تم تطبيق شروط الإيمان المعروفة والتي لخصتها الآيات الأولى من سورة المؤمنون.

استشهاد تاريخي:

التاريخ يحدثنا بأمثلة كثير يقصر المقام ويضيق لذكرها، لكنني سأستشهد بمثال من عهد قريب جداً لتبين كيف يسيِّر الله تعالى الأمم ويضرب بعضها ببعض كما تضرب دقائق الماء في مثال الشلال كي يتحقق في النهاية ما يجب أن يكون ولله الأمر من قبل ومن بعد.

كانت إمبراطورية اليابان منذ عهد سحيق وإلى حين دخولها الحرب الكونية الثانية تعتبر الإمبراطور إلهاً وهذا ما مثبت في دستورها، وحين خسرت الحرب أمام الحلفاء ووقعت وثيقة الاستسلام كان من ضمن شروط الاستسلام تلك أن تتخلى عن مسألة تأليه الإمبراطور وهذا ما حصل فعلاً. أنظر كيف ضرب الله ظالماً بظالم وكيف سلط كافراً على كافر لإزالة معتقد هو الأكثر ظلماً ألا وهو عبادة المخلوق للمخلوق، أي أن ملايين الناس تطاحنوا فيما بينهم طيلة ٦ سنوات من الحرب الدامية، فكانت النتيجة أن علت كلمة التوحيد بإزالة نظام تأليهي وهو النظام الامبراطوري الياباني المتأله حتى وإن كانت بيد كافر وظالم آخر، فالكافر أيضاً من جنود الله، أليست الدواب والحشرات كذلك؟.. فالكل من مخلوق وجماد في هذا الكون بيد الله يسلطه كيف يشاء ومتى يشاء، ولله جنود السماوات والأرض، وفي الحديث (**الظالم سيفي أقتص به وأقتص منه**).. والمتأمل لتاريخ اليابان يجد أن البداية الحقيقية لانتشار الإسلام في هذا البلد المهم بشكل واسع جاء بعد هذا التاريخ، أي تاريخ إزالة صفة الألوهية عن امبراطورهم بعد أن كان الناس يعتقدون بها يقيناً.

ثم ارجع إلى معنى قوله تعالى في نهاية الآية المباركة آنفة الذكر من سورة الأنعام الآية ٦٥، ﴿..ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، أي تدبر يا عاقل كيف تترتب أمور الخلق والأمم والشعوب... وارجع فتدبر قوله تعالى .﴿..لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾، (الروم: من الآية ٤)، وأيضاً قوله تعالى ﴿...وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، (يوسف:من الآية٢١)، لتعلم كيف تسير الأحداث وتجري الأمور بين شعوب الأرض وأممها.

في مثل اليابان هذا استنتاج مهم وهو أن الشرك بالله ومحاولة تأليه البشر أبغض عند الله تعالى من غيره من الأمور ومنها الاحتلال البغيض إلى النفس، فتقرأ قول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾، (النساء:٤٨).. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾، (النساء: ١١٦) ، وتقرأ في وصية لقمان الحكيم لابنه في سورة لقمان ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾، (لقمان:١٣). من هذه الآيات نفهم أن عملية الإشراك بالله ومنها تأليه البشر عملية أكثر بغضاً وأكثر إجراماً من كل شيء بضمنه احتلال أمة لأمة أخرى، إذ ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾، (مريم:٩٠)، لماذا يا ترى؟، لسبب ﴿ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾، (مريم:٩١). كذلك ترى مقدار التحقير الذي أولاه القرآن الكريم للمتألهين كفرعون والنمرود... بينما في حالة احتلال الهكسوس لأرض مصر في وقت سيدنا يوسف عليه السلام، وحصول الأحداث التي قصتها علينا السورة المباركة لم تتطرق بسوء إلى ملك مصر – وليس فرعونها كدليل أن الحالة حالة احتلال وليس حالة حكم وطني لأهل البلد– وهو محتل ومشرك، بل بعد تيقنه من أمانة سيدنا يوسف أعطاه وزارة المالية ومنها استطاع إدخال أهل مصر جميعهم في دين التوحيد.

على أن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال الرضا بحال الاحتلال، فمعلوم لدى حضراتكم أن هذه المسألة لا خلاف فيها ولا اختلاف عليها، إذ أنها من فطرة البشر بل وهي من فطرة حتى الحيوان أن يكون تواقاً للحرية من أي قيد، فكيف ببني البشر، وكيف بالمسلم الذي لا يعرف العبودية لأي شيء سوى ربه وخالقه، سواء أكان المتسلط محتلاً أجنبياً أم متجبراً محلياً. وقد وضع الشرع الحنيف تفاصيل واضحة لحالة جهاد المحتل والغاصب لأرض المسلمين وبكافة الوسائل المتاحة.

نخلص من ذلك إلى أن الاحتلال رغم مقته من النفس البشرية إلا أنه بالإمكان توحيد الصفوف لإزالته، ولكن مفسدة تأليه الذات البشرية أكثر وقعاً وتدميراً وبالتالي بغضاً وتحقيراً. لذلك فإذا كان احتلال بلد ما من قبل كافر بغيض فإن التأليه أبغض، لأن الاحتلال زائل لا محالة وتأثيره محدود إذا ما تضافرت الجهود لطرده وإزالته، لكن التأليه مفسد لكل شيء وهو ما حصل لعراقنا العزيز.

كذلك يقص الله تعالى كيف انتهت الحضارات السالفة بأنواع العذاب كافة التي فصلها قانون الآية ٦٥ من الأنعام، فما أغنى عنهم جمعهم ولا أموالهم ولا جنودهم ولا ثرواتهم، ومن الطبيعي لم تغن عنهم كل معتقداتهم الفاسدة سواء أكانت أصناماً أو أشخاصاً أو حتى أفكاراً: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾، (هود).. وصدق أبو بكر الصديق رضي الله عنه بقوله (شيبتني هود وأخواتها وما فعل بالأمم من قبل).

الفصل الثالث

قوانين الاستثناء

على أن القوانين العامة تلك التي تحكم الحضارات حصل لها استثناء إلهي مدون عهده من قبل الله تعالى ومن أوفى بعهده من الله، وهو نوعان عام لكل الناس والأمم، وخاص بأمة الإسلام، وهو الأمر الذي سيكون من أمر المسلمين بعد البعثة الشريفة إذا ما هم التزموا أوامر الله تعالى، عندئذ فقط سيكون لهم عهد أن ينصرهم الله تعالى وينشر دينهم الذي ارتضى لهم ويهيئ لهم حياة رغيدة هنيئة حتى وإن كانوا قلة وكانت الأمور الفنية البحتة ليست في صالحهم.

فقد يقول قائل أليس هؤلاء الغربيون أو آباءهم من ذبح المسلمين في الأندلس وأنشأ محاكم التفتيش لقتلهم قبل ٥٠٠ عام، وهم من ذبح المسلمين في البلقان مؤخراً، فكيف يكون لك أن تدعي أو تزعم أن الله سخّرهم أو أحفادهم للقضاء على الألوهية في اليابان إبان الحرب الكونية الثانية...

فنجيب وبالله التوفيق، بل وأكثر من ذلك فإن لهم في كل زمان دم تسال به أبطح، ولكن الجواب يكمن في كون هذه الأمة لها شروطها التي تجعل من الله تعالى يدافع عنها، ألم يقل سبحانه ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾، (الحج:٣٨). فخصّ الذين آمنوا، أي الذين يطبقون شرع الله تعالى، وهو ما نعبر عنه باستثناء الأمة من القوانين العامة إن هي تمسكت بتطبيق أوامر الله تعالى، وهو ما سنذكره في هذا الفصل.

أما أنواع الاستثناءات للقوانين العامة التي ذكرناها فهي اثنتين، استثناء عام لكل البشر، واستثناء خاص لأمة الإسلام، ولكل شروطه وأسبابه:

١- قوانين الاستثناء العام لكل الأمم:

وهو استثناء عام لكل البشر ، يقول الله تعالى: ﴿... وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ ، (آل عمران: من الآية١١٧)...﴿ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ

فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾، (التوبة: ٧٠)... ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾، (يونس:٤٤).. ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾، (النحل:٣٣).. والأهم من هذا التأكيد المستمر هو قانون ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ (هود:١١٧)، أي أنه تعالى لا يمكن أن يعذب أمة من الناس وأهلها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويصلحون المفسد، وهنا وقفة مع كلمة مصلحون ولماذا لم يقل صالحون.

المصلح أعلى من الصالح لأن الصالح لنفسه بينما المصلح يصلح نفسه وغيره وبالتالي يصلح المجتمع بأسره، وهذا هو بالضبط مراد الشرع الحكيم. وعملية الإصلاح هي إحدى أهم العمليات الخيرية على الأرض في جميع الأمم وهو ما نص عليه الكتاب العزيز: ﴿۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾﴾، (النساء: ١١٤)، قال المفسرون رحمهم الله تعالى أن النجوى التي نزلت بسببها الآية وهي الكلام الخافت كانت لتجريحه ﷺ وللطعن في دعوته الشريفة ، وهذا من فعل كل كافر فاجر على مر الأزمان.

فالقانون هو أن الله تعالى لا يظلم الناس بعذابهم إلا بعد إنذارهم مغبة غيهم وظلمهم، كما أن القرآن الكريم ثبّت قانوناً ينص على أن وجود فئة قليلة ضمن المجتمع تمنع نزول العذاب إذا ما هي قامت بمنع الفساد، فيقول الله تعالى:﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾، (هود).

كما وأسس القرآن الكريم قانوناً آخر يمنع العذاب وهو الدعاء والتضرع إلى الله تعالى

عند الخطوب والملمات، والذي إذا ما لجأ إليه العباد منع أو خفف عنهم العذاب ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾، (الأنعام).

ولكن واقع الحال يقول أن الناس أنفسهم يظلمون بعدم امتثالهم لأوامر ربهم، فأهلكت القرى لأسباب عدة منها فسادها وظلمها وبطرها ووحشيتها وتكبرها. وتحدثنا آيات الله في كتابه الكريم أن الأمم التي عذبت لم تكن لتعذب إلا بعد أن يصروا على العصيان والتكذيب إلا استثناء واحد هم أهل نينوى أصحاب سيدنا يونس عليه السلام الذين بعد أن كذبوه وكادت تنزل بهم الطامة خرجوا تائبين إلى الله تعالى مستغفرين له فمنع عنهم العذاب ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾، (يونس:٩٨).

وحيث أن عملية تحول الناس جميعاً من أهل تلك الأمة أو القرية إلى مصلحين عملية شبه مستحيلة إلا بمشيئة الله تعالى، لأن الناس أصناف منها:

- أكثر الناس لا يحبون اتباع الحق ﴿.. وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾، (المؤمنون: من الآية٧٠).
- أكثر الناس لا يؤمنون حق الإيمان ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾، (يوسف:١٠٣).
- من الناس من هو مفسد غير مصلح ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾، (البقرة:٢٠٤).
- من الناس من يدعي الإيمان لغرض دنيوي في نفسه وهم المنافقون ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾، (البقرة:٨).
- من الناس من يتخذ من الناس إلهاً يطيعه وهم أهل العقائد الحزبية النفعية وما أكثرهم ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾، (البقرة:١٦٥).

- من الناس من هو هوائي المزاج ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾، (الحج:٣).
- من الناس من هو جاهل ويحب أن يظل جاهلاً ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾، (الحج:٨).
- من الناس من هو مذبذب بطبعه ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾، (الحج:١١).
- من الناس من لا يستطيع تحمل مشاق الإيذاء في سبيل الله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾، (العنكبوت:١٠).
- من الناس من هو مضلِلٌ بطبعه ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾، (لقمان:٦).
- وفي السير نتذكر قصة سيدنا موسى مع القوم الذين طلبوا منه الاستسقاء فلم يسقون لوجود شخص واحد مذنب في القرية، وفي قصة معركة أحد وكيف أن أربعين رجلاً عصوا الرسول ﷺ فكانت النتيجة تحول النصر إلى هزيمة. وفي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم (التوبة ٤٩٣٦(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**)، هذا الحديث يؤكد أن البشر فطروا على العصيان والتهرب من الالتزام.

فإن ذلك يعني وجوب قيام مجموعة بواجب الإصلاح والتذكير كي يكفوا هذا الأمر عن الباقين. على أن هذه القوانين القرآنية للبشر لا تمنع من أن يكون الناس

مصلحين، إلا أن المشكلة تكمن في عدم إمكانية أن يصبح عدد المصلحين في القرية أو الدولة ما يكفي لمنع الفساد والانحراف أو عدم توفر إمكانات توصيل خيرهم للناس. لذلك فإن هذا الاستثناء العام صعب التحقيق إن لم يكن مستحيلاً.

ولكن الاستثناء جعل لهذه الأمة الإسلامية المرحومة بشكل خاص دون غيرها من القوانين العامة للأمم وخصوصاً قوانين العذاب المطلقة بالإهلاك ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾، (الأنفال:٣٣).

٢- قوانين الاستثناء الخاص بأمة الإسلام:

وهو ما جعل خاصاً لهذه الأمة إن هي اتبعت أوامر ربها، فالاستثناء العام الذي سبق وأن ذكرناه صعب التحقيق، لذلك قرر القرآن الكريم أنه يمكن مجموعة معينة من الناس أن تقوم بمهمة الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو ما جاء في قوله تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾، (آل عمران:١٠٤)، والأمة هنا تعني المجموعة، فالحرف (من) يستخدم لتبعيض جزء من كل كما في قوله تعالى ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾، (التوبة:١٢٢)، فضلاً عن أن مفهوم التبعيض هذا يفهم من سياق الآيات التي سبقت والتي تلت الآية الكريمة من سورة آل عمران، فخطاب الآيات السابقة واللاحقة جاء للمجموع، فبدأ بـ (يا أيها الذين آمنوا) في الآية ١٠٢ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.. ثم (واعتصموا) في الآية ١٠٣ وكما ذكرناها آنفاً ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.. وبعد الآية ١٠٤ جاء الخطاب بـ (ولا تكونوا) في الآية ١٠٥ ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾.. بينما الآية ١٠٤ جاء خطابها (ولتكن منكم)... والسبب في قولنا أن الحرف (من) في كلمة (منكم) هنا جاء للتبعيض متأت من سببين:

١- أنه لو لم يكن كذلك فإن المعنى يشمل جميع الأمة، أي كونوا كلكم داعين للخير مبتعدين عن الشر، آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر. هذا الكلام لو عرض على الواقع التطبيقي لتجد أنه يقتضي أن الأمة كلها تكون صالحة وهذا يخالف قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾، (يوسف:١٠٣).. ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾، (يوسف:١٠٦). أي أن الناس لا يمكن أن يكونوا جميعاً مصلحون أو حتى صالحون لأن الشرك العقائدي (الأكبر) أو الشرك التعاملي (الأصغر) يتسرب لنفوس عدد منهم زاد أو كثر. وحيث أن القرآن الكريم يكمل بعضه بعضاً ولا يمكن أن يدخل إليه تناقض أو اختلاف – حاشا لله- ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (النساء:٨٢)، فإن الجمع بين الآيات يقتضي أن المخاطبون هم بعض من الأمة ممن يحملون أعباء الدعوة والإصلاح. ثم إن لو كان الجميع صالحون فلن تجد منكراً لينهى عنه أو شراً ليؤمر بتركه، فالذنوب من فطرة البشر أي أنهم جبلوا على الذنب ويأتي الاستغفار رحمة من الله مضاعفة من حيث تعليمهم إياه ثم توفيقهم للعمل به ثم قبوله تعالى له منهم ليزال عنهم الذنب، وهذا هو معنى حديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه أهل السنن كما يقول أهل العلم. فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه (التوبة ٤٩٣٦) حديثاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ)**.. ومثله ما أخرجه الترمذي في (صفة الجنة ٢٤٤٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ رَقَّتْ قُلُوبُنَا وَزَهِدْنَا فِي الدُّنْيَا وَكُنَّا مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ فَآنَسْنَا أَهَالِينَا وَشَمَمْنَا أَوْلَادَنَا أَنْكَرْنَا أَنْفُسَنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ إِذَا خَرَجْتُمْ مِنْ عِنْدِي كُنْتُمْ عَلَى حَالِكُمْ ذَلِكَ لَزَارَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ اللَّهُ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ كَيْ يُذْنِبُوا فَيَغْفِرَ لَهُمْ)**. قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ لَيْسَ إِسْنَادُهُ بِذَاكَ الْقَوِيِّ وَلَيْسَ هُوَ عِنْدِي بِمُتَّصِلٍ وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ بِإِسْنَادٍ آخَرَ عَنْ أَبِي مُدِلَّةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.. كما ورواه

أحمد في مسند بني هاشم وباقي مسند المكثرين من الصحابة.

٢- السبب الثاني لغوي يتعلق بالنحو والصرف، فالمخاطبون الذين تخاطبهم الآية١٠٤ من سورة آل عمران هم من وصفوا في نهايتها بـ ﴿.. وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾، وكلمة أولئك من أسماء الإشارة التي تستخدم للجمع الكمي بنوعيه (القلة والكثرة) ونوعيه الجنسي (المذكر والمؤنث)، ولكنها تستخدم للبعيد. أما هؤلاء فهي اسم إشارة يستخدم للجمع أيضاً بأنواعه المذكورة ولكن للقريب. وعادة ما تستخدم (أولئك) لبعض وليس للكل، فقد وردت في القرآن الكريم (٢٠٤ مرة) كلها كانت لجزء من كل كما في بداية سورة البقرة بعد أن بين أن هذا الكتاب هو هدى للمتقين ثم بين من هم المتقون، ثم ذكرهم بالإشارة قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ ﴾، (البقرة:٥)، والمعنى أنهم مجموعة وليس جميع. كذلك في قوله تعالى ﴿ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧ ﴾، (البقرة: ١٧٧)، وغيرها من الآيات الكثيرة.. أما هؤلاء فتستخدم لعدد أكبر قد يكون كل أو جزء ولكنه جزء واسع يشكل أغلبية، فقد جاءت في القرآن الكريم ٤٦ مرة أغلبها تعني الكل كما في قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ ﴾، (البقرة:٣١). أو قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۢ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١ ﴾، (النساء:٤١)، والله أعلم.

على أن بعض المفسرين كان لهم رأيهم بأن المعنى هنا لكلمة (منكم) تعني كل الأمة ولا تعني بعضها، ولهم في ذلك حجة قوية مثل القول بأن كل إنسان عليه أن يأمر بما يستطيع من المعروف وليس بالضرورة كل المعروف كما يفعل الأب عند نصحه لابنه

والمعلم لتلميذه وهكذا، والدليل هنا قوي أيضاً مثل ما جاء في آية اللعنة على بني إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾، (المائدة).. وعلى كل حال يمكن الجمع بين الرأيين بالقول أن التبعيض قد يكون للمعروف والمنكر أو للمخاطبين وحسب الحالة، والله أعلم.

كما وأن شروط خيرية هذه الأمة فيما لحق من آيات مباركات، فجاءت لتعطي الأولوية لهذه المهمة العظيمة مهمة الإصلاح ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾، (آل عمران: ١١٠)

لكن الاستثناء الخاص الذي يميز الأمة الإسلامية في الواجبات يوازيه ما يميزها في الأجر والثواب الدنيوي والأخروي، لنتدبر القانون أو المعادلة القرآنية التالية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾،(محمد: ٧)، إن — شرطية — أقمتم دين الله وشرعه بكل تفاصيله فإن لكم من الله عهد أن يتدخل لنصرتكم، وهذا التدخل يكون بأسباب خارجة عن حسابات البشر التقليدية كحصول الخرق والخلاف في صفوف أعداءكم أو تدخل جنود السماوات والأرض من الكوارث الطبيعية سابقة الذكر أو التدهور الاقتصادي أو غير ذلك مما يدفع الأذى عن المسلمين. وإذا ما كان ذلك النصر فإنه لن يغلبكم أحد مهما كان قوياً بالحسابات المادية البحتة، وهو معنى قوله تعالى في قانون قرآني آخر يكمل المعادلة السابقة ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾، (آل عمران: ١٦٠).

هذا الاستثناء نجده أيضاً في قوله تعالى: ﴿.. وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ

ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾، (الحج: من الآية ٤٠)، أي لولا قانون الله في تقاتل وتصارع الأمم لهدمت العبادة في الأرض ولكن الله تعهد بنصر من يقيم دينه حق الإقامة لأن الله تعالى أقوى من كل القوى الأرضية لا يقهر إرادته شيء. كذلك نجده مشخصاً بجلاء في الآية المباركة ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾، (النور:٥٥).. أي أن الله تعالى وعد بأمر لا يخلف وهو أنه يمكن الأمة لتستخلف الأرض وما فيها من أمم وقرى وينقلهم من الخوف والذل إلى الأمن والعز بالنصر، ولكن لمن؟ للذي يطبق شروط النصر وإقامة الدين بكل حيثياته التي ذكرنا، ثم قال ومن كفر أي لم يطبق ذلك فإن النتيجة ستكون الهزيمة لكل فاسق أدار ظهره لأوامر ربه. وقوله تعالى كما استخلف الذين من قبلهم مستمرة إلى يوم القيامة فلا يظنن أحد أن الآية تقتصر على من سبقنا من الأمم فحسب، بل أن الأمر يتعدى إلى كونه قانوناً آخر يتعلق بالأجيال المتلاحقة من هذه الأمة. وكأن الله تعالى يقول لنا قد تعهدت لكم بالنصر وتركت لكم مفتاح ذلك، فإن طبقتم الشرع جاءكم النصر ولو بتغيير النواميس الكونية، وإن أبيتم ذلك فلا تلومن إلا أنفسكم.

لندخل في تفاصيل تفسير هذا القانون القرآني المهم في هذه الآية الكريمة التي تحمل البشارات لهذه الأمة ونركز عليها لأن لنا عودة لها عند الحديث عن قانون النصر.

١. **مناهل العرفان:** (ج ٢ /ص (٢٧١-٢٧٢)

المثال الخامس تنبؤ القرآن بأن المستقبل السعيد ينتظر المسلمين في وقت لم تكن عوامل هذا المستقبل السعيد مواتية ثم إذا تأويل هذا النبأ يأتي على نحو ما أخبر القرآن في أقصر ما يكون من الزمان أجل إننا لنقرأ في سورة الصافات المكية ﴿ **وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾، وفي سورة غافر المكية أيضا ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾، وكذلك نقرأ في سورة النور المدنية ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا** ﴾، على حين أن سجلات

التاريخ لا تزال تحفظ بين طياتها ما يشيب الوليد من ألوان الاضطهاد والأذى الذي أصاب الرسول ﷺ وأتباعه في مكة والمدينة على عهد نزول هذه الوعود المؤكدة الكريمة حتى لقد كان أكبر أماني المسلمين بعد هجرتهم وتنفسهم الصعداء قليلا أن يسلم لهم دينهم ويعيشوا آمنين في مهاجرهم كما يدل على ذلك ما صححه الحاكم عن أبي بن كعب قال لما قدم رسول الله ﷺوأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله فنزلت الآية وكذلك روى ابن أبي حاتم. وقال البراء نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد أي قوله تعالى ﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات..**﴾، هكذا كان حال الصحابة أيام أن وعدهم الله ما وعد وما أعجل تحقق هذا الوعد الإلهي رغم هذه الحال المنافية في العادة لما وعد فدانت الدول لهم واستخلفهم في أقطار الأرض وأورثهم ملك كسرى وقيصر ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وأبدلهم من بعد خوفهم أمنا، يا لها من نبوءة تأبى عادة أن يتحدث بها إلا من يملك تحقيقها ومن يخرق إن شاء عادات الكون ونواميسه من أجلها ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾، ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**﴾.

٢. التبيان في إعراب القرآن (ج ٢ /ص ١٥٩

قوله تعالى ﴿..**كما استخلف..**﴾، نعت لمصدر محذوف أي استخلافا كما استخلف قوله تعالى يعبدونني في موضع الحال من ضمير الفاعل في ﴿..**ليستخلفنهم..**﴾، أو من الضمير في ليبدلنهم لا يشركون يجوز أن يكون حالا بدلا من الحال الأولى وأن يكون حالا من الفاعل في يعبدونني أي يعبدونني موحدين.

٣. تفسير البيضاوي (ج ٤ /ص ١٩٧- ١٩٨)

وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات خطاب للرسول ﷺ وللأمة أوله ولمن معه ومن البيان ﴿..**ليستخلفنهم في الأرض..**﴾، أي ليجعلنهم خلفاء متصرفي في الأرض تصرف الملوك في مماليكهم وهو جواب قسم مضمر تقديره وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم أو الوعد في تحقيقه منزل منزلة القسم كما استخلف الذين من قبلهم يعني بني إسرائيل استخلفهم في مصر والشام ببعد الجبابرة وقرأ أبو بكر بضم التاء وكسر اللام وإذا ابتدأ ضم الألف والباقون بفتحهما وإذا ابتدءوا كسروا الألف وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وهو الإسلام بالتقوية والتثبيت ﴿..**وليبدلنهم من بعد خوفهم..** ﴾،

العداد وقرأ ابن كثير وأبو بكر بالتخفيف ﴿..أمنا..﴾.. وكان رسول الله ﷺ وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ثم هاجروا إلى المدينة وكان يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى أنجز الله وعده فأظهرهم على العرب كلهم وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وفيه دليل على صحة النبوة للإخبار عن الغيب على ما هو به وخلافه الخلفاء الراشدين إذ لم يجتمع الوعود والوعود عليه لغيرهم بالإجماع، وقيل الخوف من العذاب والأمن منه في الآخرة، يعبدونني حال من الذين لتقيد الوعد بالثبات على التوحيد أو استئناف ببيان المقتضى للاستخلاف والأمن، لا يشركون بي شيئا حال من الواو أي يعبدونني غير مشركين من كفر ومن ارتد أو كفر هذه النعمة بعد ذلك بعد الوعد أو حصول الخلافة فأولئك هم الفاسقون الكاملون في فسقهم حيث ارتدوا بعد وضوح مصل هذه الآيات، أو كفروا تلك النعمة العظيمة. ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول..**﴾، في سائر ما أمركم به ولا يبعد عطف ذلك على ﴿.. **أطيعوا الله..** ﴾، فإن الفاصل وعد على المأمور به فيكون تكرير الأمر بطاعة الرسول ﷺ لتأكيد وتعليق الرحمة بها أو بالمندرجة هي فيه بقوله لعلكم ترحمون كما علق به الهدى

٤. تفسير القرطبي (ج ١٢ / ص ٢٩٩ - ٣٠٠)

﴿..**ليستخلفنهم في الأرض..**﴾، وقوله ﴿..**كما استخلف الذين من قبلهم..**﴾، يعني بني إسرائيل وإذ أهلك الله الجبابرة بمصر وأورثهم أرضهم وديارهم فقال وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها، وهكذا كان الصحابة مستضعفين خائفين ثم أعطاهم الله تعالى أمنهم ومكنهم وملكهم فصح أن الآية عامة لأمة محمد ﷺ غير مخصوصة، إذ التخصيص لا يكون إلا بخبر ممن يجب له التسليم ومن الأصل المعلوم التمسك بالعموم. وجاء في معنى تبديل خوفهم بالأمن أن رسول الله ﷺ لما قال أصحابه أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فقال عليه السلام (**لا تلبثون إلا قليلا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة**)، وقال ﷺ (**والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون**)،أخرجه مسلم في صحيحه، فكان كما أخبر ﷺ فالآية معجزة النبوة لأنها إخبار عما سيكون.. فكان قوله تعالى ﴿..**ليستخلفنهم في الأرض..**﴾، فيه قولان أحدهما يعني أرض مكة لأن المهاجرين سألوا الله تعالى ذلك فوعدوا كما وعدت بنو إسرائيل، قال معناه النقاش، الثاني بلاد العرب والعجم قال ابن العربي وهو الصحيح،

لأن أرض مكة محرمة على المهاجرين كما قال النبي ﷺ، لكن البائس سعيد بن خولة يرثي له رسول الله ﷺ أن مات بمكة وقال في الصحيح أيضاً (**يمكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثا**) واللام في ليستخلفنهم جواب قسم مضمر لأن الوعد قول مجازها، قال الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات والله ليستخلفنهم في الأرض فيجعلهم ملوكها وسكانها كما استخلف الذين من قبلهم يعني بني إسرائيل أهل الجبابرة بمصر والشأم وأورثهم أرضهم وديارهم.. وقراءة العامة كما استخلف بفتح التاء واللام لقوله وعد وقوله ليستخلفنهم، وقرأ عيسى بن عمرو وأبو بكر والمفضل عن عاصم استخلف بضم التاء وكسر اللام على الفعل المجهول ﴿..**وليمكنن دينهم الذي ارتضى لهم**..﴾، وهو الإسلام كما قال تعالى ﴿..**ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾.. وروى سليم بن عامر عن المقداد ابن الأسود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (**ما على ظهر الأرض بيت حجر ولا مدر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل أما بعزهم فيجعلهم من أهلها وأما بذلهم فيدينون بها**)، ذكره الماوردي حجة لمن قال إن المراد بالأرض بلاد العرب والعجم وهو القول الثاني على ما تقدم آنفا وليبدلنهم.. قرأ ابن محيصن وابن كثير ويعقوب وأبو بكر بالتخفيف من أبدل وهي قراءة الحسن واختيار أبي حاتم الباقون بالتشديد من بدل وهي اختيار أبي عبيد لأنها أكثر ما في القرآن الكريم.

٥. تفسير ابن كثير (ج ٣ / ص ٢٠٢ – ٢٠٣)

يقول تعالى مخبرا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى ﴿ **إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**﴾، وقال ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾، وقال ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم**..﴾، وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة ولهذا قال تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر. قال الأعمش سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر**..﴾، فقال الزبور التوراة والإنجيل والقرآن، وقال مجاهد الزبور الكتاب، وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد الزبور الذي أنزل على داود والذكر التوراة، وعن ابن عباس الزبور القرآن، وقال سعيد بن جبير الذكر

الذي في السماء، وقال مجاهد الزبور الكتب بعد الذكر والذكر أم الكتاب عند الله، واختار ذلك ابن جرير رحمه الله، وكذا قال زيد بن أسلم هو الكتاب الأول، وقال الثوري هو اللوح المحفوظ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء والذكر أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أخبر الله سبحانه وتعالى في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السماوات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة وهم الصالحون، وقال مجاهد عن ابن عباس ﴿ **إن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾، قال أرض الجنة وكذا قال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي وأبو صالح والربيع بن أنس والثوري، وقال أبو الدرداء نحن الصالحون، وقال السدي هم المؤمنون وقوله ﴿ **إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين**﴾، أي إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً لنفعه وكفاية لقوم عابدين وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.. وقوله ﴿ **ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾، يخبر تعالى أن الله جعل محمدا ﷺ رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم كلهم فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ومن ردها وجحدها خسر الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار**﴾، وقال تعالى في صفة القرآن ﴿ **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد** ﴾، وقال مسلم في صحيحه ٢٥٩٩ عن أبي هريرة قال قيل يا رسول الله ادع على المشركين قال ﷺ (**إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة**)، انفرد بإخراجه مسلم، وفي الحديث الآخر (**إنما أنا رحمة مهداة**)، رواه عبد الله بن أبي عرابة وغيره عن وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعا. وكذا قال البخاري، قال الحافظ بن عساكر وقد رواه مالك بن سعير بن الخمس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعا ثم ساقه من طريق أبي بكر ابن المقرئ وأبي أحمد الحاكم كلاهما عن بكر بن محمد بن إبراهيم الصوفي.. وعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ (**إن الله بعثني رحمة مهداة بعثت برفع قوم وخفض آخرين**). قال أبو القاسم الطبراني عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال قال أبو جهل حين قدم مكة منصرف عن خمره يامعشر قريش إن محمدا نزل يثرب وأرسل طلائعه وإنما يريد أن يصيب منكم شيئا فاحذروا أن تمروا طريقه وتقاربوه فإنه

كالأسد الضاري إنه حنق عليكم لأنكم نفيتموه نفي القردان عن المناسم والله إن له لسحرة ما رأيته قط ولا أحدا من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين وإنكم قد عرفتم عداوة ابني قيلة يعني الأوس والخزرج فهو عدو استعان بعدو، فقال له مطعم بن عدي يا أبا الحكم والله ما رأيت أحدا أصدق لسانا ولا أصدق موعدا من أخيكم الذي طردتم وإذ فعلتم الذي فعلتم فكونوا أكف الناس عنه، قال أبو سفيان بن الحارث كونوا أشد ما كنتم عليه إن ابني قيلة إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة وإن أطعتموني ألجأتموهم خير كنانة أو تخرجوا محمدا من بين ظهرانيهم فيكون وحيدا مطرودا وأما ابنا قيلة، فوالله ما هما وأهل دهلك في المذلة إلا سواء وأكفيكم حدهم وقال سأمنح جانبا مني غليظا على ما كان من قرب وبعد رجال الخزرجية أهل ذل إذا ما كان هزل بعد جد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال **والذي نفسي بيده لأقتلنهم ولأصلبنهم ولأهدينهم وهم كارهون إني رحمة بعثني الله ولا يتوفاني حتى يظهر الله دينه لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحوا الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قومي وأنا العاقب**). قال أحمد بن صالح أرجو أن يكون الحديث صحيحا، وقال الإمام أحمد عن عمر بن أبي قرة الكندي قال كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ فجاء حذيفة إلى سلمان فقال سلمان يا حذيفة إن رسول الله ﷺ خطب فقال (**أيما رجل سببته في غضبي أو لعنته لعنة فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون وإنما بعثني الله رحمة للعالمين فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة**)، ورواه أبو داود ٤٦٥٩ عن أحمد بن يونس عن زائدة فإن قيل فأي رحمة حصلت لمن كفر به فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾، قال من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف. وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث المسعودي عن أبي سعد وهو سعيد بن المرزبان البقال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره بنحوه والله أعلم. وقد رواه أبو القاسم الطبراني ١٢١٢٣٥٨ عن عبدان بن أحمد عن عيسى بن يونس الرملي عن أيوب بن سويد عن المسعودي عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾، قال من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف.

والمتدبر للنص يجد الأفعال المضارعة (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ.. وَلَيُمَكِّنَنَّ.. وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ) فيها توكيدان، لام التوكيد في أولها ونون التوكيد في آخرها، وهذا يعني أنها تفيد المستقبل واجبة الحدوث، وأنها ليست مقصورة على زمن معين، وإنما مشروطة بالشرطين اللازمين لتحقيقها وهي (يعبدونني)، و (لا يشركون بي شيئاً). والشرك هنا ليس شركاً عقائدياً بالضرورة وإنما شركاً تعاملياً بعدم تطبيق الشرعية. فالله تعالى هو الإله الخالق الموجب للعبادة (إله الناس) وهذا هو توحيد الألوهية، وهو الرب الصاحب (رب الناس) وهو توحيد الربوبية، وهو الملك الحاكم الذي يسن القوانين الواجبة الطاعة والتنفيذ (ملك الناس) وهو توحيد الحاكمية ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ...﴾ ، (النساء: من الآية١٠٥).

هذه المعاني تتلخص في معنى قوله تعالى في سورة الناس ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ ﴾، والمعروف في علم العقائد بتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية والحاكمية. فشرك الألوهية هو الشرك الأعظم والظلم الأكبر ولكن الشرك الأصغر هو شرك المعاملات ومنه الرياء الذي حذر منه النبي ﷺ هو شرك الحاكمية، أي أنك تطيع أوامر وقوانين وضعية بشرية وتدير ظهرك لأوامر ملك الملوك الحاكم الأعظم الله تبارك وتعالى. إذ كيف نفهم الخطاب الرباني لله تعالى لرسوله ﷺ وهو تعليم للأمة وليس موجهاً لعصمة الرسول ﷺ بقوله تعالى في سورة الزمر (٦٥): ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٦٥ ﴾، فهل يعقل أن رسل الله تعالى يشركون، حاشاهم عليهم السلام جميعاً فهم من حمل مسؤولية الدعوة إلى التوحيد فكيف يشركون، ولكن المقصود هنا، والله أعلم، هو شرك النية وهو موجه للأمة ولكن بخطاب مباشر لنبيها ﷺ حتى تعلم أن الأمر من الخطورة بمكان كي لا يستهان به، فنيّة العمل الخالصة لله تعالى هي مفتاح كل نجاح وتفوق.

ألم تسمع إلى قوله تعالى في سورة يوسف ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

﴿﴾ ﴿١٠٧﴾.. قال بعض العلماء أن الآية نزلت في قريش التي كانت تؤمن بوجود الله تعالى ولكنهم يشركون معه أصناماً ابتدعوها ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، فكانوا يقولون عند طوافهم بالكعبة: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك..

يقول العلامة الشيخ ابن السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) حول هذه الآيات الكريمات: فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى، وأنه هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، فإنهم يشركون في إلوهية الله تعالى وتوحيده، فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب، ويفجأهم العقاب وهم آمنون[(١)].

وفي زبدة التفسير من فتح القدير نقرأ حول هذه الآية المباركة: أي وما يصدق ويقر أكثر الناس بالله تعالى من كونه الخالق الرازق المحيي المميت (إلا وهم مشركون) بالله تعالى، يعبدون معه غيره، كما كانت تفعله الجاهلية، فإنهم يقرون بالله تعالى بأنه هو الخالق لهم، لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدونهم ليقربوهم إلى الله، ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى، ومثلهم المعتقدون في الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى فيعتقدون فيهم الضر والنفع فيصرفون إليهم شيئاً من عبادتهم، فذلك هو الشرك بعينه[(٢)].

وإذن الشرك الذي عنته الآية قد يكون في الإلوهية كما يفعل الكفرة والملحدون، وقد يكون في الربوبية كما يفعل أصحاب العقائد المنحرفة والمشركون من أهل الكتاب.. لكن الشرك في الآية جاء عاماً، وقد يكون في الحاكمية أيضاً، فرغم علم الناس أن الله تعالى بيده كل شئ إلا أنهم مع ذلك لا يطيعونه في تطبيق أوامره وشرعه، أو أنهم يشركون معه أنداداً فيفسدون نيتهم في الإخلاص.

ومما يؤيد أن فساد النية تودي بصاحبها إلى فساد عمله وسخط الله والخسارة في الآخرة الحديث الذي أخرجه مسلم والنسائي رحمهما الله تعالى ورضي عنهما، والذي يبين ذلك بوضوح. فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه (كتاب الإمارة ٣٥٢٧)، عَنْ أَبِي

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، العلامة الشيخ ابن السعدي ص ٤٠٦ .الطبعة المنقحة عن دار الرسالة.

(٢) تفسير زبدة التفسير من فتح القدير، محمد سليمان عبد الله الأشقر، ط/٢، ص ٣١٩.

هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ **(إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ).**

وهناك أحاديث تؤكد ذلك منها الحديث الذي أخرجه الترمذي وكذا الإمام مسلم في الزهد والرقائق (٥٣٠٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)**.. وفي حديث الإمام أحمد (باقي مسند الأنصار ٢٢٥٢٣) عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ **(إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ)**، قَالُوا وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ **(الرِّيَاءُ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمُ اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً)**..

لقد تم تطبيق هذا القانون المهم خلال عدة مراحل من مسيرة الإسلام، ولعل أهم تطبيق له هو ما كان من أمر الفتوحات الإسلامية في بقاع الأرض، ففي فترة وجيزة تم فتح أصقاع العالم القديم. ولكن أهم درس يوظف لفهم هذا القانون هو ما حصل في معركة أحد، وما كان من النصر في بداية المعركة ثم تحوله إلى هزيمة لمجرد أن ثلة من المسلمين قد تركوا أمر رسول الله ﷺ وراءهم ظهرياً، وفي هذا نزل القرآن الكريم ليؤكد هذه الحقيقة، إذ يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا

عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾، (آل عمران:١٥٢).. قال محمد بن كعب القرظي (لما رجع رسول الله ﷺ وأصحابه من أحد إلى المدينة وقد أصابهم ما أصابهم في يوم أحد، قال ناس من الصحابة: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وذلك أن الظفر كان للمسلمين في الابتداء فحقق الله لهم وعده بالنصر، فلما خالفوا أمر رسول الله ﷺ وطلبوا الغنيمة هزموا، فنصرهم الدائم كان مشروطاً بلزوم طاعة رسول الله ﷺ)[1].. لذلك عندما تعجب المؤمنون بعد المعركة، إذ كيف يهزمون وفيهم رسول الله ﷺ، جاءهم الجواب القرآني القاطع في قانون لا يخطئ، وهو أن اللوم يقع عليكم إذ لم تلتزموا بأوامر رسول الله ﷺ، فالهزيمة مع العصيان والنصر مع التزام أوامر الله ورسوله ﷺ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾﴾، (آل عمران:١٦٥).

وهناك تأكيد آخر في نفس الموضوع، وهو قوله تعالى ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾، (النحل:٩٧)...﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾، (العنكبوت:٦٩).

رحلة تاريخية مكوكية:

هذا الاستثناء نجده أمامنا شاخصاً في التاريخ الإسلامي منذ عهد البعثة الشريفة وإلى يومنا وسيستمر إلى قيام الساعة، إذ تجد أن الأمة مرت بمراحل من الصعود وتسلق قمة المجد والسؤدد لما كانت متبعة لشرع الله في العبادات والمعاملات من عدل وخلق وتسامح وأخوة وغيرها فاستحقت القوانين الخاصة بها، ثم تنزل عند تركها لمنهج الله وارتماءها في الدنيا والملذات والشهوات فتخرج من القوانين الخاصة لتعود إلى القوانين العامة فتنطبق عليها سنن الأمم الأخرى كغزو أمة أخرى لها مثلاً.. فمن الصعود في بداية الرسالة في الأجيال الثلاثة الأولى لحضارة الإسلام تبعه نزول في القرن الرابع والخامس الهجريين بسبب ارتماء خلفاء بني العباس في أحضان الدنيا وركونهم إليها، فكانت

(١) روائع البيان لمعان القرآن، أسباب النزول، ٧٤-٧٥.

الهجمات الصليبية على مدى قرنين من الزمن يقتلون ويذبحون الناس في المساجد، وتلك مساجد الشام تشهد على تلك المجازر البشعة، ومما يروى أن الشامي كان يأتي إلى بغداد حاملاً كيس من الرؤوس ليلقيها أمام الخليفة قائلاً له هؤلاء كانوا أهلي عسى أن يحرك هذا في نفس الخليفة الغيرة المعهودة على الدين، فما كان من الخليفة إلا أن يقول (إليك عني فإن لي طيراً أحمر ذهب وأخذ معه عقلي)(١).. تخيلوا أين وصلت المهانة بهذا الحاكم!!، فلا تستغربوا فقد مرت الأمة بمثل تلك النماذج التي نراها اليوم من الحكام.

ثم يقيض الله تعالى رجالاً مثل الغزالي والكيلاني وغيرهما رحمة الله عليهم ليعيدوا الأمة إلى دينها وسبب عزها فيربوا الجيل الصاعد على الإسلام النقي، ليصعد جيل يبني دولة إسلامية هي الدولة الزنكية في الشام والتي ظهر منها جيل المحررين من أمثال صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى..

ثم نزول آخر تبعه هجمات التتار بقيادة هولاكو واحتلال أمصار إسلامية عديدة توجت بسقوط بغداد، والتي بسقوطها انتهت الخلافة الإسلامية العباسية، ثم ترتفع الأمة من جديد بعد عودتها للدين — وبعد سنتين فقط من تاريخ سقوط بغداد- خصوصاً المماليك في مصر على يد العلماء الأجلاء كالعز بن عبد السلام رحمه الله ورضي عنه الذي وحد الصفوف على كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله من جهة ، ليعود التتار إلى ديارهم مسلمون بعد هزيمتهم النكراء في عين جالوت بأرض فلسطين على أيدي قادة المماليك العظام كقطز وبيبرس، فارتفعت صيحات وإسلاماه وكلمات الله أكبر.. وعلى يد علماء الشام كالعالم الأمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ورضي عنه الذي كان له الدور الأبرز في إسلام التتار من جهة أخرى، وذلك بعد أن دخل خيمة قائد التتار بالشام ليناقشه ويقنعه بالإسلام فيسلم جيشه بالكامل، فكانت هذه أول حادثة في التاريخ البشري يعتنق فيها جيش غاز دين البلد أو الأمة التي غزاها.

بعد ذلك حصل أن أثرت أقوام التتار والمغول على أقوام أواسط آسيا، فلم يكتفوا بالدخول في الإسلام الذي هذبهم وحولهم لأمة متحضرة بعدما كانوا همجاً، بل سعوا لنشره في الأمصار، فهذا تيمورلنك الذي أصبح مسلماً أراد أن يكوِّن امبراطورية إسلامية

---

(١) راجع كتاب (هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس) للدكتور ماجد عرسان الكيلاني.

في أوربا، وكاد لولا أنه لم يفقه الإسلام على حقيقته، فظلّ على عادات أجداده الهمجية الشرسة، وتلك دول إسلامية مغولية تكونت إثر ذلك في جنوب وشرق آسيا كما هو الحال في الهند وحالة الشاه المسلم المغولي الذي بنى البناء المشهور لحد اليوم أحد عجائب العالم القديم والمعروف بتاج محل.

من هذه الأقوام الذين تأثروا بعودة المغول مسلمين من حملتهم الأخيرة، أولاد عمهم الترك(الذين كان قد أسلم بعضهم إبان الفتوحات الإسلامية الأولى) فتم نزوحهم لبلاد الأناضول عبر حقب متعاقبة وصعودهم لحمل لواء الإسلام وبعد أن تخلى العرب عن حملها ليكونوا نواة الدولة الإسلامية الجديدة والعظيمة، الدولة العثمانية.. تلك الدولة العظيمة التي حملت راية الإسلام لتنشرها في أرجاء أوربا، فتفتح دولاً وتدخل أمماً في الإسلام مثل هنغاريا وبلغاريا ورومانيا ويوغسلافيا وأجزاء من اليونان، بل وصلت جيوشهم إلى حدود فينا عاصمة النمسا، حتى إنك لتقرأ في كتب التاريخ أن من هؤلاء الأقوام من كان يأتي ليدرس الفقه الإسلامي في دول الشرق كبغداد، فيذكر المؤرخون أنه كان أناس يدرسون في مدارس بغداد والشام حمر الوجوه، حمر اللحى والشوارب، كانوا من الهنغار. ثم بعد ركون سلاطين الإستانة اللاحقين إلى الدنيا بدأت الأمة تشهد تراجعاً ليبدأ النزول من جديد ولنفس السبب الأول "الركون إلى الدنيا".. وهكذا تتحرك الأمة بين القوانين الخاصة بها عند تطبيقها الشرع، وبين القوانين العامة التي تخرج إليها عند تركها تطبيق الشريعة.

يتبين لك أخي الكريم من الاستعراض السريع السابق، أن الله تعالى يسير الأمور بما يمكن هذا الدين من الانتصار والعزة ولو بعد حيز زمني معين.

ومما يعزز الاستثناء الخاص بأمة محمد ﷺ ما جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (باب الفتن وأشراط الساعة ٥١٤٤) عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(**إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي**

بَعْضُهُمْ بَعْضًا). هذا الحديث القدسي المبارك يؤيد ما ذهبنا إليه من أن سنن العذاب العامة التي كانت على الأمم الأخرى قد استثنيت منها أمتنا كرامة لرسول الله ﷺ عندما تطبق الشريعة التي أمرت بها، ولكن الابتلاء سيكون في الاختلاف والاقتتال فيما بينها.

٣- قانون الاستبدال

من الاستعراض السابق نجد أن من قام على إعادة الأمة على طريق العز والمجد في المرات الثلاثة التي استعرضناها هم أقوام ليسوا عرباً، فالدولة الزنكية وبطلها صلاح الدين الأيوبين، ومن ثم المماليك، والمغول، وأخيراً وليس آخراً العثمانيون لم يكونوا عرباً، ولكنهم كانوا على الدين غيارى، فعرّبهم الإسلام وفتحوا الأمصار ونشروا الدين وأقاموا شرع الله واستحقوا وعده. وفي ذلك دليل قاطع بل تحقيق فعلي للقانون القرآني المهم الذي ثبته كتاب الله تعالى وهو ما يعرف بقانون الاستبدال.

خلاصة هذا القانون هو أن الإسلام يحمله من كان أهلاً له ويعطيه من وقته وجهده ما يؤهله لذلك ولا يقتصر على قوم دون أقوام آخرين — عرباً كانوا أم غيرهم- وهو ما نصت عليه الآيات المباركات الآتية: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾، (محمد: ٣٨). وكذا ما جاء في الآية السابقة الذكر من سورة الحج ﴿.. وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: من الآية ٤٠)، أي أن الله تعالى ينصر من يطبق شروط النصر التي بينتها المعادلة السابقة وهي تطبيق الشريعة ولا يقتصر ذلك على أقوام معينين.. ويدخل في نفس الموضوع قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾، (المائدة: ٥٤).

لذلك فإن القوانين الخاصة التي تخص الأمة إذا لم تنفذ فإن الله تعالى غني عن العالمين، وبوسعه أن يأتي بقوم لا يعصونه وينفذون ما أمر ليستحقوا رضوانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾، (المائدة:٥٤).

هذا القانون يثبت ما أشّرناه في سمات الحضارة الإسلامية في الباب الأول، ويدل على أن التعصب لعنصر دون آخر ليس له سند شرعي، بل هو ممقوت ممجوج.

وتحدثنا أهل السنن بما يؤكد ذلك، ففي حديث البخاري (تفسير القرآن٤٥٢٧)عن جَابِرَ بن عَبْدِ اللَّه رَضِي اللَّهم عَنْهمَا يَقُولُ كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَسَمَّعَهَا اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ قَالَ: (**مَا هَذَا**) فَقَالُوا كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**).. وفي مسند أحمد (المكثرين١٤١٠٥) عَنْ جَابِرِ بن عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَاجْتَمَعَ قَوْمُ ذَا وَقَوْمُ ذَا وَقَالَ هَؤُلاَءِ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ وَقَالَ هَؤُلاَءِ يَا لَلأَنْصَارِ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: (**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**) قَالَ ثُمَّ قَالَ: (**أَلاَ مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ أَلاَ مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ**).

وإذن يفهم من الحديث أن الولاء لله ورسوله فوق الولاء للعشيرة والقوم، وأن القومية والعشائرية شعور في داخل الإنسان يعتز به، أما إذا سُيِّسَ وتم إقحام المفاهيم السياسية فيه ومحاولات الوصول للحكم عن طريقه فإنه سيكون عنصرية بغيضة، فهذه القومية إذا ما سيست فإنها ستحتاج إلى استعارة نظام يسيرها لأنها بالواقع انتماء وشعور وليست نظام متكامل للحياة عليه أن يضع القوانين الاجتماعية والاقتصادية للحياة، وهذا ما حصل فعلاً فتراها تستعير فكرها تارة من الشيوعية وتارة من الإسلام وتارة من الاقتصاد الحر وغير ذلك.

على أساس هذا الفهم يمكننا أن نعرف أن مفهوم القومية الأشمل هو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾، (الزخرف:٤٤)، فحصر مسؤولية خدمة الكتاب بقوم الرسول ﷺ وهم كل المسلمين وليس العرب فقط. ويحدثنا التاريخ أن كل المذابح والحروب الحديثة في أوربا ومنها الحربين العالميتين وكذلك حروب منطقتنا جاءت جراء العنصرية القومية لأنها تعمي أبصار الناس باتجاه ولاءهم القومي عن ولاءهم الرباني وانتماءهم القومي عن انتماءهم الإنساني.

من هنا جاء التعبير القرآني ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾، (الحجرات: ١٣)، أي أن الأفضلية عند الله تعالى ليس بحساب النسب والجنس والعشيرة بل بحسن الخلق وعظيم الإيمان، ومن هنا أيضاً جاء التعبير النبوي أنها — أي التعصب العشائري والقومي – منتنة لأنها تعمي البصيرة عن أوامر ربها وتقود الناس إلى الانغلاق عن القوميات والأجناس الأخرى فتقودهم إلى المهالك بالضبط كما عشناها في عصرنا هذا.

وهنا نستشهد بتاريخنا المجيد للاستدلال على أن الإسلام ينبذ التفاخر بالنسب والتعصب للقبيلة والعشيرة ليكون الحسم للعمل واتباع الكتاب والسنة.. وحيث أن تاريخ هذه الأمة زاخر بالعبر والعظات التي تذرف لها الدموع حتى أننا نحتاج لمجلدات لسردها، فسنختار إحداها للفائدة، فقد حكى الأصمعي وقال بينما أنا في الحرم أطوف بالبيت الحرام، إذ رأيت شاباً متعلقاً بأستار الكعبة يدعو ربه متضرعاً متوسلاً إليه وهو يقول:

يا من يجيب دعى المضطر في الظلم
يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا
وأنــت يــا حــي ويا قيــوم لم تنم
أدعــوك ربي حزيــناً هائــماً قلقاً
فارحم بكائي بحق البيت والحــــرم
إن كان جودك لا يرجوه ذو سفه
فمــن يــجود على العاصين بالكرم

ثم بكى وقال:

ألا يا أيها المقصود في كل وجهة
شكوت إليــك الضر فارحم شكايتي
ألا يا رجائي أنت تكشف كربتي
فهب لي ذنوبي كلها واقض حــاجتي
أتيت بأعمال قباح كثــــيرة
وما في الورى عبد جــنى كجنــايتي

أتحرقني بالنار يا غـــاية المـــــنى

فأيـــن رجـــائي ثم أيـــن مخافـــــتي

ثم سقط مغشياً عليه فدنوت منه فإذا هو زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين. فرفعت رأسه في حجري وبكيت فسقطت دمعة على وجهه فانتبه، وقال: من الذي هجم علينا بدمعه؟، قلت خادمك الأصمعي يا سيدي، ما هذا البكاء والجزع وأنت من أهل بيت النبوة، ألم يقل الله فيكم ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾. قال هيهات.. هيهات يا أصمعي، إن الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان حراً قريشياً. أما سمعت قول الله تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.. ثم أما سمعت قول رسول الله ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها (**يا فاطمة اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً**)... وهذا ابنه باقر العلم وإمام زمانه الإمام محمد الباقر عليه الرضوان والسلام يقول بحق صحابة رسول الله ﷺ ومنهما الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: (ما أدركت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما ويقتدي بهما رضي الله عنهما)، ويقول في موضع آخر: (من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهل سنة جدنا رسول الله).. ويقول أيضاً: (من أساء الظن بهما وبغيرهما من صحابة رسول الله فقد هلك!!).. ثم يأتي حفيده صاحب المذهب المعروف بمذهب أهل البيت الإمام الصادق عليه الرضوان والسلام، فيقول مفتخراً بانتسابه لجده من أمه سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه (أولدني أبا بكر مرتين)، ويقصد نسبه إليه من أمه وجدته رضي الله تعالى عنهم أجمعين... هكذا الإسلام وأهله لا تعصب لنسب أو فئة، بل هو العمل لمرضاة الله ومنها حسن الظن بالأخوة والعمل مجتمعين كالبنيان المرصوص بما يريد الله تعالى ويرضى

وإذن كلما طبقت الأمة قوانينها الخاصة استحقت التكريم بها، أما إذا أبو ذلك فسيخرجون من القانون الخاص لأمة الإسلام ويعودون للقانون العام لبقية الأمم والذي ذكرناه في البداية ألا وهو تصارع الأقوام فيما بينهم وتسليط القوي مادياً وإن كان كافراً

على الضعيف وإن كان مسلماً. وهذا ما نلاحظه في تسليط الله تعالى لأمم كافرة على المسلمين في حقب ضعفهم وابتعادهم عن منهج الله تعالى وعدم تطبيقهم لأوامره ومنها الاتحاد والوحدة، لأن الإسلام بني على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة: كما جاء في آية الاعتصام في آل عمران:١٠٣..﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾، (الأنعام:١٥٩).. ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾، (الأنفال:٤٦).

استشهادات أخرى

نجد في تاريخنا الإسلامي على اختلاف حقبه ما يطبق معادلة وقوانين الاستثناء الخاصة هذه، وكيف أن الأمة عندما تطبق الشرع تتحول جنود العذاب من ريح وبحار ودواب معها بدل أن تكون عليها، ولعل أهم حادثة هي واقعة الأحزاب التي خصّ الله تعالى ذكرها بسورة كاملة، وكيف أن الرياح التي هي من جنود العذاب قد تحولت إلى جنب الجيش الإسلامي، هذا فضلاً عن الملائكة والجنود المخفية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾، (الأحزاب:٩).

والقصص العجيبة من هذا القبيل والتي تتحدث عن حصول أمور تعتبر غريبة على المنطق العادي تملأ مجلدات التاريخ الإسلامي والفتوحات الإسلامية، بل أن الحسابات العسكرية والفنية التقليدية تتغير تماماً، فيصبح العدد القليل والعدة الضعيفة تغلب العدد الكثير والعدة المتطورة وفق قانون قرآني مهم واستراتيجي آخر ﴿... كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾، (البقرة: من الآية٢٤٩).. ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾، (آل عمران:١٣).

وفي التاريخ الحديث نلاحظ كيف أن الأفغان إبّان الاحتلال السوفياتي كانوا على قلب رجل واحد وكانوا مطبقين للشرع تطبيقاً كاملاً حتى سموا بصحابة العصر فنصروا دين الله بتطبيقه ولم يركنوا للدنيا فأعزهم الله بنصره على أكبر جيوش الأرض، حتى أن أحد الجنرالات الروس ألف كتاباً يشرح فيه أعاجيب ما رأى من الأمور الغريبة التي حصلت أثناء المعارك ومنها مساعدة الجو والرياح للجنود الأفغان على قواته، بل وأن الأمريكان أنفسهم أعدوا فلماً وثائقياً خاصاً بذلك أسموه (هنا تسقط الأرقام) بينوا فيه ما كان من بعض أعاجيب قتال الأفغان في تلك الفترة. ومن هنا كان أغلب المحللين الرياديين - أي الستراتيجيين من الريادة واستشراف المستقبل - سواء كانوا من السياسيين أو العسكريين أو الاقتصاديين يعزون سقوط الدولة السوفياتية لاحقاً إلى عدة أسباب من أهمها الفشل العسكري للجيش الأحمر على يد هؤلاء الناس البسطاء من الأفغان(*).

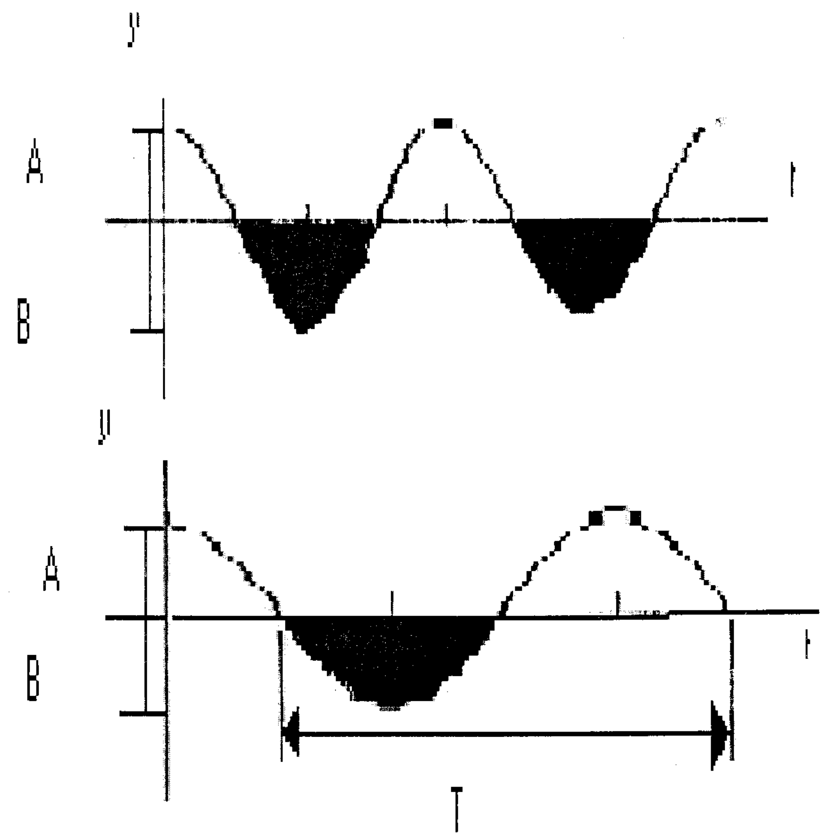
بينما في منظر آخر وعلى نفس الساحة الجغرافية، وعندما تفرق الأخوة الأفغان على أمور منها دنيوية تمكن منهم أعداءهم من الأمريكان كما حصل لاحقاً... ولكن قد يقول البعض أن هذه مبالغات وخلط أوراق واجتزاء ليس في محله، فنقول وبالله التوفيق:

إن موضوع نقل صورة ما حدث من نصر عظيم للمسلمين على الروس وتأثير ذلك على مصير دولة السوفيات حق لا ينكره أحد من المتابعين سواء أكان محللاً عسكرياً أو سياسياً ومن أي خلفية فكرية أتى، كما وأن بطولاتهم اعترف بها حتى الأمريكان والروس أنفسهم وكما ذكرنا. أما موضوع المبالغات فليس هناك من أمر دنيوي يعتمد في أغلب أحداثه على نقل سمعي أو بصري دون توثيق مكتوب أو مصور على الأقل إلا واعتراه مدخل من المبالغات، فهذا يعتمد على حالة البشر النفسية وأمانتهم في النقل وهو الأمر الذي يكون في الغالب حاملاً لصفة دخول الهوى والتمنيات بنسبة مئوية معينة مع النسبة الأكبر لواقع الحدث. لكن الأعمال بنتائجها، فالنتيجة هي كما علمتم.

وأما القول بأن هذا الانتصار هو بسبب مادي دنيوي جاء جراء دعم أمريكا فقط

(*) رغم أن هناك كما يذكر المحللون مساعدات جاءت للمجاهدين من الولايات المتحدة لخوفها من التغلغل الشيوعي في مناطق النفط والثروات، وكذلك بعض ما حدث من خلافات ونزاعات بين بعض فئات المجاهدين، إلا أن كل ذلك لا يمنع من الوصف الحقيقي لهم بالشكل الذي نقل من واقع ما حصل فعلاً على الأرض، فتداخل المصالح بين عدوين تجاه عدو آخر لا يمنع من إعطاء حق الوصف لكل طرف بما يستحق.

فقول مردود لا يقبله عقل ولا يتحمله منطق، إذ لو كان الأمر كذلك فكيف نفسر فشل الأمريكان بكل ثقلهم المباشر في فيتنام وكوريا وغيرها، هذا وهم طرف مباشر، فكيف وهم خارج الحَلبَة ويقومون بالدعم من بعيد وعن طريق أطراف أخرى في مقابل جيش عرمرم له من الأمكانات والدعم اللوجيستي والسوقي ما لا يخفى على أحد؟!.

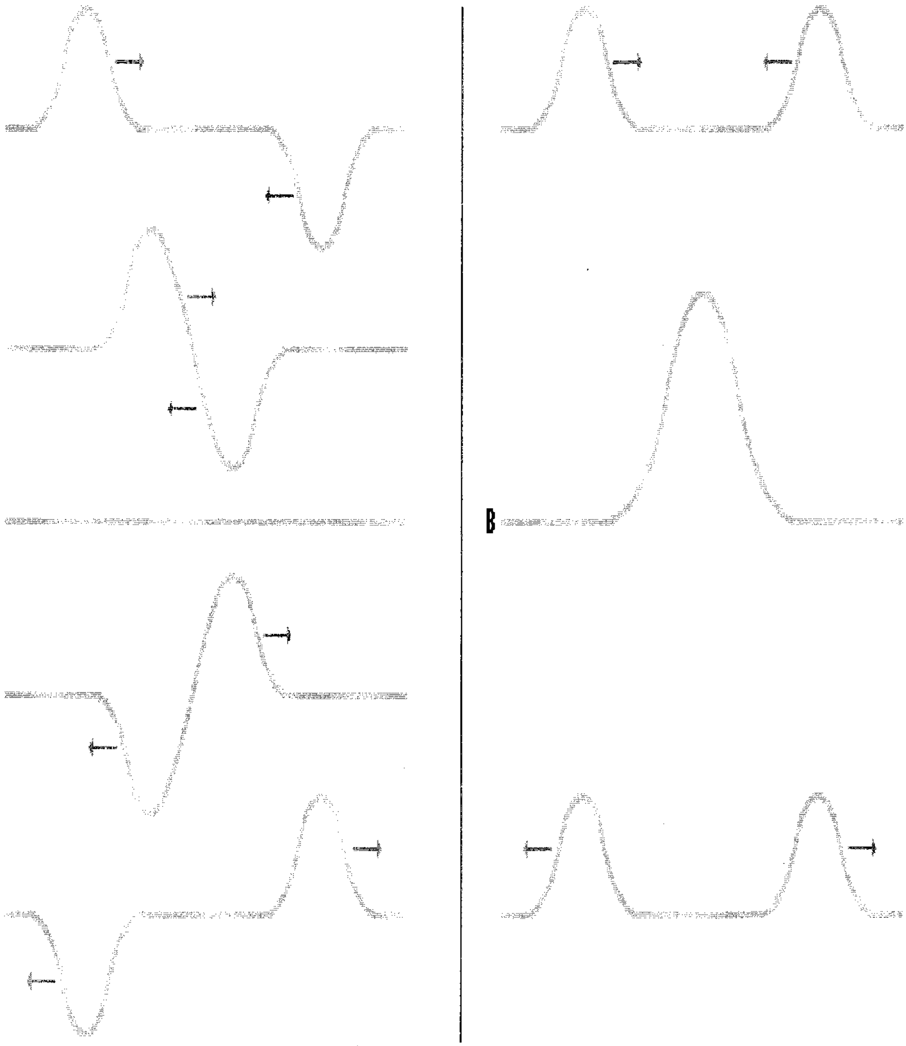


ر= صعود الحضارة ونموها أو نزولها وتدهورها

A=قمة ازدهار الحضارة　　B=قمة تدهور الحضارة وانحطاطها

ا= الزمن　　T=الفترة الزمنية لعودة الازدهار

الصعود والنزول من سمات الحضارة الإسلامية تحديداً



قد يكون الصعود والنزول غير منتظماً فيعتمد على عدة عوامل (لاحظ تشابه مخطط الصعود والنزول بحالة موجات المياه المتلاطمة في المنظر الثاني سابق الذكر في الباب الأول).

وأما تحول المجاهدين من صانعي هذا الانتصار فيما بعد إلى فعل أخطاء ناتجة عن سوء تقدير أو فهم ناقص للشرع الحنيف فهذا أمر آخر له أسبابه وتحليله الموضوعي.

على أساس التحليل السابق مع المثال لحالة الأفغان، فإن الفتن والابتلاءات كما قرر

القرآن الكريم لا تنزل بالناس على أساس العقيدة حسب بل أنها تنزل بمجموعة من البشر منهم الصالح ومنهم الطالح، فتكون ممحصة للصالح ومعاقبة للطالح، وهو قوله تعالى مخاطباً الصحابة ومن خلالهم للأمة بأجمعها:

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾، (الأنفال:٢٥)...

۞۞۞۞۞۞۞

وعلى هذا الأساس لم يكن خوف رسول الله ﷺ على أمته في أمور الصلاة والعبادات بل كان خوفه ﷺ عليهم من التنافس على الدنيا والحرص على العروش والكراسي والمال دون الحرص على التفاني في سبيل العقيدة، ففي الحديث الذي رواه أغلب أهل السنن ومنهم الشيخان عَنْ عُقْبَةَ بن عَامِرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُد بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ كَالْمُوَدِّعِ لِلأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ ثُمَّ طَلَعَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ:(**إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْحَوْضُ وَإِنِّي لأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا**) قَالَ فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.. وفي حديث آخر أخرجه البخاري ومسلم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بن الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ الْعَلاَءَ بن الْحَضْرَمِيِّ فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِهِ فَوَافَتْهُ صَلاَةَ الصُّبْحِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ وَقَالَ:(**أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَيْءٍ**)، قَالُوا أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ:(**فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ**).

وكان من خطبته ﷺ يوم النحر في حجة الوداع كما جاء عَنْ سُلَيْمَانَ بن عَمْرِو بن الأَحْوَصِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ لِلنَّاسِ:(**أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قَالُوا يَوْمُ الْحَجِّ الأَكْبَرِ قَالَ فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَلاَ لاَ يَجْنِي جَانٍ إِلاَّ عَلَى نَفْسِهِ أَلاَ لاَ يَجْنِي جَانٍ عَلَى وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ عَلَى وَالِدِهِ أَلاَ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ فِي بِلاَدِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا**

وَلَكِنْ سَتَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِيمَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَسَيَرْضَى بِهِ) (١).

على أنه ﷺ بشرنا بأن الله تعالى يقيض لهذه الأمة على رأس كل مئة عام من يصلح لها أمر دينها، ففي الحديث الذي أخرجه أبو داود في سننه (٣٧٤٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِيمَا أَعْلَمُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:(**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**). والتجديد هنا يعني إعادته إلى سابق عهده، ناصع، متألق، خال من كل بدعة ضالة فاسدة، فكان أول مجدد سيدنا عمر بن عبد العزيز ﷺ، ثم استمر المجددون كما ذكرنا في حالة أبو حامد الغزالي وعبد القادر الكيلاني وابن تيمية والعز بن عبد السلام رضي الله عنهم أجمعين.

إن رسم المعادلة الرياضية للتاريخ الإسلامي وما بها من صعود ونزول يحدثنا عن حقيقة مهمة مفادها أن الإسلام كلما تعرض لنكسة تعصف به في مرحلة ما، أدى ذلك إلى زيادة صلابته وقوته فيعود إلى مسرح الأحداث أكثر قوة ومنعة في المرحلة اللاحقة، وهذا لعمري ما يحدث اليوم بالضبط، فهذه العاصفة ستنتهي بانتصار الإسلام في نهاية المطاف كما انتصر عقب هجمات الروم والمغول والتتار والحملات الصليبية والغزوات الاستعمارية وغيرها، لأن ذلك هو وعد الله الذي لا يخلف إذا ما التزمنا بشروط ومقومات العودة لشرع الله تعالى.

وقد يسأل سائل لماذا هذا الاستثناء؟، الجواب يكمن في فلسفة نشر عقيدة التوحيد بين الناس لإخراجهم من الظلمات إلى النور. فكما أن الأب ينصح ولده وفق خبرته في الحياة كي لا ينزلق الولد إلى مهاوي الشر والرذيلة حتى قد يصل به الأمر إلى القطيعة الاقتصادية تأديباً له أو حتى العقوبة الجسدية لمنعه من الوقوع في التهلكة، كذلك المسلم فهو لا يجاهد بماله وعقله وعلمه وفكره ونفسه لدنيا وإنما ليدخل عدوه الجنة، بينما تجد جميع الحضارات الأخرى همها المصالح الدنيوية، ولك أن تقدر أخي الكريم الفرق الشاسع بين الفريقين.. ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾، (آل عمران: ١١٠).

---

(١)أخرجه الترمذي في الفتن ٢٠٨٥، وابن ماجه في المناسك ٣٠٤٦.

ولأن هذه الأمة بهذه المواصفات وهذه المسؤوليات فإن الله تعالى قد منّ عليها بكل هذه الأفضال والمنن، ومن ذلك أنه قد ألف بين قلوب أهلها بهذا القرآن العظيم، ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾، (الأنفال:٦٣).

كما منّ على أولها بإزالة الأحقاد فيما بينهم بعد أن قضوا عشرات السنوات من الضغائن والأحقاد والحروب، ﴿.. وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾، (آل عمران:من الآية ١٠٣).

الفصل الرابع

قوانين البناء الإنساني والدعوة للخير وما ينتج عنها

ذكرنا في الباب الأول بعض خصائص الحضارة الإسلامية، وبينا أنها حضارة تعتمد الموضوعية والمنطقية في كل جوانبها، بل أنها حضارة استوعبت كل الأمم على اختلاف مشاربهم وثقافاتهم، ولعل من الضروري التطرق إلى أهم القوانين القرآنية في البناء الحضاري للبشر في مجتمعاتهم وتنظيم علاقاتهم الداخلية والخارجية، ولا يعني هذا أن ما سنبينه من قوانين بنائية تعني أن الكتاب العزيز لم يتطرق لغيرها في تفاصيل الحياة وما يهم الناس في دنياهم وآخرتهم، بل أن الحق هو أن هذا الكتاب لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وبينها للناس حسب أهميتها بالنسبة لهم، لكننا سنختار ما هو أهم في حياة ومصائر الأمم والشعوب والأفراد. كما سنتطرق أيضاً إلى قوانين القرآن الكريم في ما ينتج من ابتلاءات ومحن تعصف بأهل الخير والبناء من قبل أهل الشر والدمار من شياطين الإنس والجن لغرض ثنيهم عن محاولات الخير والبناء، ومنعهم من نشر الفضيلة والعدل في أرجاء الأرض بما يرضي الله تعالى ويحقق العدالة بين الناس منطلقين من مصالح ومنافع خاصة وأحقاد وأمراض وعقد اجتماعية تدفعهم لفعل كل قبيح.

أ- قوانين البناء الإنساني والدعوة للخير

لأن الدعوة إلى الله تعالى خالق الأكوان وما فيها هو أسمى وأعظم الأمور في حياة الناس لأنه طريق كل خير ونمو وعدالة واستقرار واطمئنان، فقد كان ذلك من أهم ما وصى به الله تعالى الناس عن طريق الأنبياء لأن الناس قد ينسون ربهم في خضم هموم الحياة، أو قد تأخذهم الدنيا وشهواتها عن ذلك، أو قد يشركون بالله في النية والعمل حتى وإن آمنوا عقيدة وكما ذكرنا آنفاً ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ

ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾، (يوسف).

إلا أن الدعوة للخير دائماً ما تواجه بمقت وكراهية شرائح كثيرة، لأن الناس أكثرهم للحق والخير والعدل كارهون، والله تعالى يريد الخير للناس ولكن الناس يظلمون أنفسهم باتباعهم مناهج تتقاطع مع منهج الله الذي خلق الناس وأراد لهم الخير.﴿...أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾، (البقرة: من الآية٢٢١)...﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾، (النساء:٢٧).

هذا الفصل يبين قوانين القرآن الكريم في كيفية تكوين الأمم الصالحة بقيام مجموعة منها بالدعوة للخير، كما ويبين ما ينتج عن ذلك من مؤامرات وفتن تلحق بمن يريد الصلاح والإصلاح.

١- قانون الدعوة بالحكمة

لقد جعل الله تعالى لكل مجموعة بشرية تدعو لإقامة أمة الخير ومجتمع الفضيلة طريقاً لتعليم البشرية وهدايتها إلى أقوم السبل لتحقيق العدالة والمساواة وخيري الدنيا والآخرة، وهو طريق التفاهم مع كل البشر حتى وإن كان من الكفار بأسلوب العقل والحكمة والحجة والدليل، ومن الطبيعي أن يكون على رأس هذه المجاميع الداعية للخير هذه الأمة، أمة الإسلام لأنها التي حملت كل تعاليم الخير والعلم والخلق والعدل والفضيلة والحرية والحكمة ممثلة بالذكر الحكيم وسنة الهادي البشير صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه أجمعين.

فهذا نبي الله موسى وأخاه هارون عليهما السلام يؤمران من ربهما بالذهاب إلى شر خلق الله الذي ادعى الألوهية فرعون ونقاشه أولاً بالحكمة والدليل والوعظ والإرشاد لعله يتذكر أو يخشى ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾، (طه). وقصة الأسلوب العقلي الذي استخدمه سيدنا إبراهيم عليه السلام مع القرى ذات العقائد الفاسدة في عبادة الأفلاك والتي مر بها خلال رحلته من العراق إلى الشام معروفة.

نفس هذا الأسلوب في التعامل أمر الله تعالى به نبيه الكريم سيدنا محمد ﷺ مع من يجهل الأمر من أهل الشرك فما بالك بمن هم مسلمين حتى وإن كانوا بالاسم فقط ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾، (التوبة:٦). لذلك كان من دعاءه ﷺ رغم كل ما عاناه من أذى وتعذيب له من قبل قومه (**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**)، والذي على إثره أعطاه الله تعالى تلك المنزلة التي لم تعط لأحد من قبله ولا من بعده وهو أعلى ما يوصف به إنسان أنه على خلق عظيم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾، (القلم:٤).

فالأصل إذن هو استخدام الحجة والنقاش الهادئ لكل مكابر ومعاند وتعليم الجاهل وإرشاد وتذكير الغافل، الأمر الذي ثبته القانون القرآني الواضح الآتي سواء على مستوى الفرد أو الأمة:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾، (النحل:١٢٥).. ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾، (العنكبوت:٤٦).. فإن تكبروا وازداد عنادهم لأسباب ثبتها القرآن الكريم منها ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾، (البقرة: ١٠٩).. ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾، (النمل: ١٤). فإن الرد هو: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾، (التوبة:١٢٩)... ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ

عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾، (الكافرون).

صحيح أن هذا الأمر قد نسخ بأمر الجهاد، ولكن المتدبر لفلسفة الجهاد يجدها تمر بثلاث خيارات قبل القتال، وهي الدخول في الدين اختياراً، فأن أبو فالجزية وهي ضريبة مادية قليلة جداً أمام ما تقدمه الدولة الإسلامية من خدمات لأهل الذمة من رعيتها، فإن أبوا فالقتال.. كما وأن المنسوخ من القرآن له مرحلته الزمنية وأسبابه الواقعية والظرفية التي يمر بها ويتطلب تطبيقها مما يعني فهم هذه الظرفية والمرحلية من تطور الأمة.

والمتأمل لآيات الله تعالى يجد أن في القصص القرآني ما يبين أن الدعوة إلى الله تعالى يعمل بها حتى وإن استيأس الداعي ممن يدعوهم ولكنه يعمل بمقتضى إسقاط الفرض، فيقول تعالى حاكياً عن هذا المعنى ﴿ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝١٦٤ ﴾، (الأعراف: ١٦٤)، فالسبب للدعوة هنا رغم اليأس من القوم هو لإسقاط الحجة عنتهم أمام ربهم مع بصيص أمل بإمكانية النجاح.

ولعل من أهم أساليب الدعوة هي كما علمنا القرآن الكريم:

١- النية والرغبة بالإصلاح في المجتمع.

٢- الاستطاعة والإمكانية والعمل بالأسباب.

٣- الأهم هو أن العمل بهذا المجال هو من توفيق الله أولاً وأخيراً.

وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ قَالَ يَـٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨ ﴾، (هود:٨٨).

وقد ذكر الأستاذ الفاضل والداعية الكبير الأستاذ محمد أحمد الراشد ذلك في محاضرة مختصرة أسماها ثلاثيات في فقه الدعوة – عناوين التعارف الواعي- نوجزها بما يلي:

١- ثلاثية الإيمان:النية الصالحة- كل توفيق وخير من الله تعالى- التفويض لله تعالى بكل النتائج.

٢- الثلاثية الإيجابية: الإحساس بالمسؤولية- العمل بالأسباب- تراكم الخبرة والبناء على ما سلف.

٣- ثلاثية المغايرة والتمايز.

٤- ثلاثية الإتقان.

٥- الاقتداء بالمنهجية الشرعية وأصحابها من السلف الصالح.

٦- ثلاثية التربية.

٧- ثلاثية التزكية ولغة القلوب.

٨- ثلاثية التخصص والتعمق.

وغير ذلك من تفاصيل مهمة للدعاة بإمكان القارئ الكريم العودة لها.. وإذا كان من نصيحة للدعاة الشباب فإننا ننصح بقراءة كتب مهمة في ذلك منها (أصول الدعوة) للأستاذ الدكتور عبد الكريم زيدان، (منهجية التربية الدعوية) للأستاذ محمد أحمد الراشد، (أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية) للدكتور زياد العاني، وغيرها من كتب منهجة الدعوة.

٢- قانون التغيير والنقد الذاتي

لقد سنّ الله قانوناً مهماً للفرد والمجتمع والأمم على اختلاف انتماءاتها، ولكنه تعالى حثّ هذه الأمة على تطبيقه والمداومة عليه، هذا القانون هو قانون النقد الذاتي للنفس كلما أخطأت لغرض تعديل مسارها وتقويم وإصلاح حالها، فأمر الناس أن يغيروا ما بأنفسهم ويزيلوا كل ما علق بهم من عادات سيئة ورثوها من مجتمعاتهم التي أخذتها بدورها بطرق مختلفة تعتمد على عوامل بيئية واجتماعية واقتصادية وسياسية وأخلاقية وغيرها.

يقول الله تعالى تعبيراً عن هذا القانون الحيوي ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾، (الرعد:١١).

فجعل الله تعالى خيار التغيير والإصلاح مرهوناً بالإرادة البشرية قبل إرادته هو، وفي هذا تكريم للبشر من جهة، وامتحان ومسؤولية من جهة أخرى. ومعلوم أن العودة للنفس سواء على مستوى الفرد أو الجماعة لنقد ذاتها وتقويم مسارها يعتبر من أهم خطوات تجاوز بحار الفشل والمعوقات والعقبات إلى شواطئ النجاح والفوز والتقدم والسؤدد، وكما أثبتت كل تجارب الشعوب والأمم سابقها ولاحقها.

وقد جعل الله تعالى لهذه الأمة امتياز العودة لجادة الصواب والحق بالاستغفار والإنابة إليه سبحانه، فيقول تعالى في هذا المجال ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾، (آل عمران:١٣٥).. كما وجعل الله تعالى من خصائص أهل الإيمان والتقوى وسماتهم أنهم إذا نسوا أو قصروا تبعاً لجبلتهم البشرية ثم ذُكّروا ونُصحوا تذكروا وانتصحوا، يقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾، (الأعراف:٢٠١).. ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾، (الزمر: ١٨)، وآيات أخرى كثيرة.. وفي الدعاء المأثور عن النبي ﷺ (**اللهم اجعلنا من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا**).

أرأيت إلى أوامر الشرع في الاستغفار، وتواتر الأحاديث عن النبي ﷺ أنه أمر الناس بالاستغفار وكان هو نفسه ﷺ يستغفر الله في اليوم سبعين مرة وفي حديث مائة مرة، أكان يحتاج ﷺ إلى ذلك وهو صاحب أطهر قلب وأنقى سريرة وأعظم خلق؟، أم هو إبلاغ للناس على أهمية الاستغفار في جلب مرضاة الله تعالى والتجاوز عن ما سبق من جهة، وكذلك فإن الاستغفار يعتبر أسلوب عملي لتعويد وتدريب الأنفس على العودة عن غيها واجتثاث أمراضها من جهة أخرى. فعملية الاستغفار وميكانيكيتها خصوصاً في جوف الليل وحصول السكون والتركيز الذهني الذي يصاحبه، وكما كان الرسل الكرام عليهم السلام يفعلون كما جاء على لسان سيدنا يعقوب عليه السلام عندما أراد الاستغفار لبنيه عن فعلتهم مع أخيهم يوسف عليه السلام، فاستغفر لهم عند السحر كما ذكر أغلب المفسرين، بل وصرّح القرآن الكريم بذلك بقوله تعالى محدثاً عن صفات المؤمنين ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾، (آل عمران:١٧).. ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾، (الذاريات:١٨).

وبذلك يكون الإسلام العظيم قد ثبّت مفهوم النقد الذاتي ومن بعده البدء بالتغيير نحو الأفضل في كل جوانب الحياة سواء على مستوى الأخلاق التي هي عماد المجتمعات، أم على مستوى التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي وغيره، وبشقي المسألة الفردية

الجماعية، وهذا القانون القرآني جاء قبل كل الدساتير والقوانين الوضعية في مشارق الأرض ومغاربها.

سنفصل أكثر في كيفية استفادة الأمة من هذا القانون في الباب الثالث عند حديثنا عن الإصلاح وسبل الحل.

٣- قانون التناصح والتشاور

تطرقنا في الباب الأول عند حديثنا عن خصائص الحضارة الإسلامية إلى أهمية هذا الموضوع بالذات في بناء الفرد والمجتمع على أسس قويمة سليمة. ولعل من الإنصاف أن نعطي حصة إضافية للقانون القرآني في بناء الفرد والمجتمع على أسس منطقية موضوعية تحاورية مبينة على قبول الآخر، ومن نافلة القول أن نقول أن لهذا القانون علاقة وطيدة بالقانون الأول الذي بدأنا به هذا الفصل وهو قانون الحكمة والدعوة إلى الله تعالى بالأسلوب الفكري التحاوري.

يعلمنا رسول الله ﷺ رغم ما أوتي من علم لا يدانيه فيه أحد لأنه من لدن حكيم عليم أن التشاور في الأمر مهما صغر أو عظم هو من أهم أساليب نيل النجاحات في الدنيا والآخرة، فكان كلما ألم به خطب يقول لأصحابه (**أشيروا علي أيها الناس**)، وقد قيل (ما خاب من استخار وما ندم من استشار). كما ويأمرنا الشرع الحنيف بالتناصح والنصيحة فيما بيننا لتقويم سلوكنا وأفعالنا، فالدين النصيحة والمسلم مرآة أخيه كما يعلمنا المصطفى ﷺ .

موضوع التناصح والتشاور هذا جعله الإسلام الحنيف في كل شؤون الحياة بدءاً من الأسرة وانتهاء بالحكم والسياسة، وفي هذا يطول بنا المقال والمقام إذا أردنا التفصيل لأن كتب الفقه الإسلامي عامرة بذلك وهو ما لا يغيب عن كل متتبع. بل وإنك لتجد في تاريخ الحضارة الإسلامية ما يبعث على العجب في كيفية تبادل الآراء والتناصح والتشاور رغم ما دب في جسد الأمة من خلاف واختلاف.

يقول الله تعالى في قانون التشاور والشورى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾، (آل عمران:١٥٩)..

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ

يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾، (الشورى:٣٨). وتجد في السيرة العطرة للنبي ﷺ وللخلفاء الراشدين أحداث تدل على أهمية المسألة في كل شؤون الحياة، وما حصل للأمة من نزول بعد عهد الراشدين إلا جراء تخليها عن مبدأ الشورى في الحكم إلى الاستبداد والاستئثار.

قد سبقت الأمة في تطبيقها للشورى واحترام الآراء في مجال الحكم خصوصاً كل ما يطرح اليوم من الديمقراطية أو ما يعرف بحكم الشعب وكما أوضحنا في الباب الأول، على أن رأي الشعب في الإسلام يتصدى له علية القوم وخيرتهم من العلماء والمفكرين وأهل التقوى والصلاح لا عامة الناس عالمهم وجاهلهم، إذ من المعروف أن غالبية العامة لا تكون مستوى ثقافتهم وعلمهم علة درجة تؤهلهم لاختيار الأصلح والأنسب للمجتمع والأمة، بينما تتوفر هذه الصفة في نخبة المجتمع من أهل الرأي والفكر والسداد والحل والعقد، ولكم أن تتخيلوا حال المجتمعات إذا وسّد الأمر لغير أهله من جهال القوم ورعاعهم.

ولعل روعة الإسلام في قبول الرأي الآخر والفكر المضاد بل وحتى الجهال والسفهاء تتجلى بأبهى صورها في عدة آيات مباركات نذكر منها قوله تعالى ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾، (الأنعام:١٠٨).. نزلت هذه الآية كما قال عبد الرزاق: (أنبأنا معمر عن قتادة قال: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله، فأنزل الله: ﴿**ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله**﴾، الآية). أي أن الإسلام لا يقبل بأن تكون أساليب الطرح حتى وإن حملت الحق كله مبنية على فكرة الإقصاء والتنكيل والاستهزاء والتكفير للمقابل حتى وإن حمل الشر والباطل كله، لأن ذلك ببساطة يتنافى مع الرقي المطلوب للشخصية المسلمة.. وعلى هذا الأساس لم يقدم الفاتحون من المسلمين من الصحابة والتابعين على هدم دور العبادة لأهل الكتاب، بل ولا حتى أصنام أهل الشرك كتماثيل بوذا عندما دخلوا كابول أو غيرها إبان حكم سيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنهما وأرضاهما، فهل يسمع أولئك الذين أفتوا بتفجير التماثيل أو الأصنام في أفغانستان مؤخراً وقبل أحداث سبتمبر الشهيرة والتي لم تجلب لنا إلا الأذى والدمار بسبب سوء التقدير والتعجل والاستبداد بالرأي فلم يقبلوا النصح من أخوتهم الآخرين من أهل العلم!.

يقول تعالى ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾، (الأعراف: ١٩٩). يذكر أن سيدنا عمر بن الخطاب ذلك العملاق الوقّاف عند كتاب الله تعالى غضب مرة على أحد الناس من الجهال في أمور الدين فأمر بدرعه ليضربه، وكان رجل من الصحابة قريباً لهذا الرجل موجوداً في المجلس، فذكر هذه الآية المباركة لأمير المؤمنين بعدما رأى أن الغضب لدين الله أخذ منه كل مأخذ، وقال له بعدها (يا أمير المؤمنين وهذا منهم – أي من الجاهلين –)، فتذكر سيدنا عمر واغرورقت عيناه وعفا عن الرجل.

كما وإن من صفات المسلمين أنهم لا يلتفتون للسفهاء والجهلاء وأهل اللغو والترهات: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾، (المؤمنون:٣).. ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾، (الفرقان:٦٣).

صورة أخرى زاهية من صور القبول بالآخر بل والإحسان إليه إن كان من أهل الرحم يعطينا إياها القرآن العظيم وسنة رسوله الكريم ﷺ. فكما سبق وأن ذكرنا في الباب الأول أن منزلة الوالدين في الإسلام عظيمة إلى حد كبير بحيث جعل برهما ملتصقاً بالإيمان بالله تعالى ومن أسباب دخول الجنة وعقوقهما من الموبقات المقتضية والمحتمة لغضب الله تعالى ودخول النار والعياذ بالله. وكما هو معلوم أن أصل العقيدة في كل الأديان وآخرها الإسلام هو الإيمان بالله تعالى رباً وإلهاً لا شريك له ولا ولد، وجعل مجرد الكلام بذلك تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً، وأن الله تعالى جعل ظلم الشرك به سبحانه أعظم الظلم الذي لا يغفر إلا بالعودة عنه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾، (النساء:٤٨)، وأن من يقول ويعتقد بوجود مثل هذا الكلام –أي بالإشراك– فقد ارتد وأوجب إقامة الحد عليه إن لم يعد عن غيّه. ولكن اسمع إلى الأسلوب القرآني في القبول بالآخر رغم أنه قد وصل إلى النقيض الكامل للشريعة والعقيدة بل وإلى الحد الذي يجعله يكون على القمة المتطرفة المعاكسة لأصل الوجود الذي بينه الإسلام. يقول الله تعالى آمراً المسلم ببر وحسن معاملة ومصاحبة والديه وإن كانا مشركين، بل وإن كانا مجبرين له أن يشرك بالله وهو أعظم الظلم، ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ

عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾، (لقمان:١٥)، أي لا تطعهما في قبول الدعوة للشرك ولكن برهما وصاحبهما وجالسهما وادع لهما واصبر عليهما وحاورهما بالمعروف حتى يأذن الله لهما بالخير والصلاح، وما ذلك إلا لمنزلتهما وفضلهما من جهة، ولعدالة الإسلام وصبره على الناس في الدعوة لهما بالخير والصلاح والعودة إلى الله من جهة أخرى.

والإسلام بقبوله بحمايته أهل الذمة في بلاده رغم ما يحملون من عقائد منافية للتوحيد الذي هو أصل الشرع والتشريع لَيضرب المثل الأعلى في تقبله للآخر والسماح له بتطبيق مناسكه وأفكاره رغم الاختلاف البين مع ما جاءت به فطرة الله وصبغته.. فأي ديمقراطية وضعية أو شمولية فكرية أحكم وأعمق وأعدل وأرحم من شمولية الإسلام وقبوله للآخر كما بينت هذه الآيات الكريمات وغيرها من الأحكام والسلوك الذي أمر به الشرع الحنيف.

ب- القوانين القرآنية في ما ينتج عن النوع الأول

أما ما ينتج عن الإصلاح والبناء والدعوة للخير من عقبات وابتلاءات لأهل الخير والإصلاح فنجد أن القرآن الكريم قد جعل ذلك في القوانين التالية:

١- قانون الابتلاء للأمة

ينتج عن النوع الأول من القوانين – قوانين الخير والبناء والإصلاح والدعوة- أن الأمة التي تدعو إلى الصلاح والعدل وقيم الخير تكون معرضة لابتلاءات شتى، فهذا هو طريق الأنبياء والمرسلين والمصلحين والدعاة من قبل ومن بعد... وحيث أن الأمة الإسلامية مأمورة بذلك فمن الطبيعي أن تمر بهذه السنّة وهذا القانون، ولن تجد لسنّة الله في خلقه تبديلاً ولا تحويلاً.

وقد ذكرنا بعض الأمثلة عن ما يصيب المجتمعات من الأمراض جراء قانون التسخير في الفصل الثاني، وضربنا بعض الأمثلة القرآنية لذلك في معرض حديثنا عن القانون العام للتسخير وما يجره من فتن وابتلاءات عامة لكل أنواع الحضارات ومنها المسلمون. لكننا هنا نتحدث عن ما يجره أهل الإيمان والإسلام من ابتلاءات خاصة جراء تحملهم أعباء حمل الأمانة التي أثقلت كاهل السماوات والأرض والجبال فأتعبتها من حملها وحملها

الإنسان، ولكن أي إنسان؟!، أنه الإنسان الذي يحبه الله تعالى لأنه تحمل مشاق الدعوة إليه وضحى بسبب ذلك بكل ما يتمكن وأغلى ما يملك وأبعد ما يستطيع، الروح والمال والولد والأهل والوطن وكل غال وعزيز ونفيس ومهم في حياته.

كما وأن قانون الله في هذه الأمة هو الابتلاء في الدنيا ليكون الجزاء الجنة وهي سلعة غالية كما وصفها المصطفى ﷺ في الحديث الذي انفرد به الترمذي في سننه في وصف القيامة وقال عنه حديث حسن غريب عن أبي هريرة ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ**)، وهذا الوصف في التمحيص والاختبار المستمرين تجده في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾، (البقرة: ٢١٤).. وكذلك ما جاء في سورة التوبة ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾، (التوبة: ١١١).. وكذلك قوله تعالى في سورة محمد ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾، (محمد: ٣١)، وما جاء في سورة الصف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾، (الصف)..

فكان هذا العهد والقانون بمثابة صفقة تجارية بين الله وعباده الصالحين وياها من صفقة لا يفهمها إلا عباد الله الصادقين الذين بهم بني مجد هذه الأمة لأنها ليست صفقة أموال وكراسي ولكنها صفقة سمو عن كل ما هو دنيوي، وكأن المسألة باختصار هي (أسموا أيها المسلمون عن الدنيا وبهرجها وابنوا نفسكم روحياً وعلمياً وخلقياً كي تملكوا الدنيا وتفوزوا برضا الله تعالى والآخرة).. فلو تدبرنا قوله تعالى في سورة محمد ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾، (محمد:

٣١)، تجد قوله (لنبلونّكم) جاءت مؤكدة بلام التوكيد في بدايتها ونون التوكيد عند نهايتها أي أنها تفيد المستقبل واستمرار وثبوتية حصول الفعل الابتلائي على الأمة في قانون واضح وضحت أسبابه الآية المباركة، وهو ﴿... حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾، فهذا القانون مستمر مع حياة الأمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

كذلك الابتلاء بكل أنواعه في الدين والجسد والمال والولد والوطن إنما هو من التمحيص الذي يشبه تمحيص الذهب والفضة لجعلها أكثر إشراقاً ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾، (البقرة:١٥٥)... ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾، (آل عمران:١٤١)... ﴿... وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، (آل عمران: من الآية١٥٤)... ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾، (العنكبوت).

وقد جاء في الحديث الذي أخرجه أبو داود في الجنائز (٢٦٨٨) عَنْ عَبْدِ الْمَلِك بن عُمَيْرٍ عَنْ أُمِّ الْعَلاَءِ قَالَتْ عَادَنِي رَسُولُ اللَّه ﷺ وَأَنَا مَرِيضَةٌ فَقَالَ: (**أَبْشِرِي يَا أُمَّ الْعَلاَءِ فَإِنَّ مَرَضَ الْمُسْلِمِ يُذْهِبُ اللَّهُ بِهِ خَطَايَاهُ كَمَا تُذْهِبُ النَّارُ خَبَثَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**)، ولعل من الذنوب ما لا يكفرها إلا السعي على الرزق وهم العيال.. فإذا أحب الله عبداً ابتلاه بحسب دينه وإيمانه، يقول النبيِّ ﷺ: (**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاَءِ وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سخطَ فَلَهُ السَّخَطُ**).. (**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّه مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِه ابْتَلاَهُ اللَّهُ فِي جَسَدِه أَوْ فِي مَالِه أَوْ فِي وَلَدِه ثُمَّ صَبَّرَهُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يُبْلغَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّه تَعَالَى**).. (**إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُكَفِّرُهَا مِنَ الْعَمَلِ ابْتَلاَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْحُزْنِ لِيُكَفِّرَهَا عَنْهُ**).. وعَنْ يَحْيَى بن سَعِيد أَنَّ رَجُلاً جَاءَهُ الْمَوْتُ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ هَنِيئًا لَهُ مَاتَ وَلَمْ يُبْتَلَ بِمَرَضٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ

(**وَيْحَكَ وَمَا يُدْرِيكَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ ابْتَلاَهُ بِمَرَضٍ يُكَفِّرُ بِهِ عَنْهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ**)[١].

وقد تصل حالات الابتلاء بالمؤمنين إلى حد اليأس والإحباط عندما تعيا السبل المادية البحتة بهم فيلجئوا إلى ربهم بالدعاء كي ينقذهم مما هم فيه، فعندئذ - وعندئذ فقط- يأتيهم النصر خارج حدود وسياقات النواميس والقوانين المعتادة لدى البشر وهو ما يحدثنا به القرآن الكريم في قصة سيدنا موسى عليه السلام وقومه عندما أحاط بهم جيش فرعون: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾، (الشعراء).

هذا القانون تعبر عنه الآية الكريمة:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾، (يوسف: ١١٠)، ولنلاحظ الفعل استيأس كيف بني أو صرّف بزيادة في المبنى لإفهام المتلقي عن المعنى الكبير والواسع والمبالغ فيه في حالة اليأس، فلم يقل يأس بل قال استيأس، وذلك تعبيراً عن المبالغة في اليأس والإحباط لما يلقوه من أذى، مع الانتباه أنه ليس قنوط أو جزع لأن الرسل الكرام أكبر من أن يكون ذلك منهم، ولكنه القرآن الكريم وبلاغته التي تجعلك تعيش مع الحدث.. وكذا ما جاء في الآية السابقة من سورة البقرة (٢١٤): ﴿...حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾.

وقد جُعِلَ هذا القانون العام في الابتلاء بشتى صوره أصلاً لهذا الوجود، فإنك لا تجد كائناً حياً إلا وقد ابتلي برزق أو نفس أو هم أو صحة أو أمر آخر من صنوف الابتلاء، وجعل الله تعالى السلاح المقاوم لقانون الابتلاء هذا قانون الصبر الذي خص به المؤمنون من عباده، إذ لا يستطيع تحمل مشاق الابتلاء وفهم فلسفته وضرورياته وما يقابله من صبر وتحمل إلا من عمرَ قلبه بالإيمان، وهم خاصة الله وأحباؤه أهل القرآن والإيمان ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾، (فصلت:٣٥).وهذا المفهوم للابتلاء نجده في ما جاء في الآية ١٥٥ من سورة البقرة والتي ذكرناها آنفاً

---

(١) الأحاديث عن: الترمذي (الزهد ٢٣٢٠)، أحمد (باقي مسند الأنصار ٢٢٥٢٥). أبي داود (الجنائز ٢٦٨٦).. أحمد (باقي مسند الأنصار ٢٤٠٧٧).. موطأ مالك (الجامع ١٤٧٨).

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾، (البقرة:١٥٥).

وإن مما ذكرناه آنفاً من الابتلاء هو تضارب وتصارع المصالح والأفكار أو ما يعرف بقانون التدافع بين الأمم، والذي جعل امتحاناً للمؤمنين ولصبرهم وتحملهم مشاق الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمن قوانين الدعوة والخير التي نبينها في هذا الفصل، فكان أمر الله تعالى بأن ابتلاء التدافع هذا هو مما يؤهل المؤمن ويمحصه لدخول رضوان الله تعالى والجنة:﴿... ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ ، (محمد).

وإن من الابتلاءات ما ذكرناه في الحديث القدسي الذي أخرجه الإمام مسلم والذي ذكرناه فيما يتعلق بالاستثناءات الخاصة بالأمة وطلب المصطفى أن لا يعذب الله الأمة بالعذابات العامة ولا يسلط عليها عدواً من خارجها ولا يجعل بأسها بينها، فأعطاه اثنتان ومنع الثالثة، فكان من قضاءه المحتوم أن بأس هذه الأمة سيكون فيما بينها.

ولكن هل معنى هذا أن يستسلم المسلم لحقيقة أننا أمة آخرة فنترك الدنيا لأهلها لنتفرغ للعبادة حتى يقال عنا أننا غير راكنين لدار الفناء والزوال؟!.. الجواب حتماً لا، فالإسلام دين الوسطية والموازنة، فلا إفراط ولا تفريط في كل شيء، وكل أمر يقدر بقدره وحسب أولوياته، فطلب العلم والأخذ بأسباب العزة والمنعة والقوة كلها من فرائض العين التي يجب التسلح بها والعمل على تنفيذها لأن أمر الله الغالب يتحقق بالأسباب، فهكذا علمتنا السيرة العطرة، فبرغم أن المصطفى ﷺ هو أعز خلق الله عليه، وكان بالإمكان أن يؤتى المجد والعزة بالمعجزات وبسرعة البرق، إلا أن الله تعالى جعل التعب والعناء والعمل بأسباب وقوانين الدنيا وتقلباتها وأحوالها السياسية والاقتصادية السمة الرئيسية التي تحكم تفكير المسلم لا انتظار المعجزات تأتي من السماء، فديننا دين عمل وجد وتدبير وتفكير وتخطيط بعد أن يكون اليقين راسخاً بنصر الله تعالى ولو بعد حين، فيكون التوكل على الله تعالى هو الأصل والعمل بالأسباب هي الأدوات للتحقيق دون انتظار النتائج التي قد يتأخر حصولها حتى يأذن الله تعالى.﴿... وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ

وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾، (آل عمران: ١٥٩).

٢- قانون المؤامرة

هناك قانون قرآني آخر يعضد قانون الابتلاء هو قانون المؤامرة التي بدأت وستبقى مستمرة على الإسلام وأهله منذ البعثة الشريفة وحتى قيام الساعة، فقد قرر القرآن الكريم أن هناك ابتلاء سيدوم مع عمر هذه الأمة وهو ما ستعانيه من أهل الكتاب خصوصاً من اليهود، وهذا موضح في الآيات المباركات:

١. ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾، (البقرة: ١٠٩).

٢. ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾، (آل عمران: ٦٩).

٣. ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾، (البقرة: ١٢٠).. وقد نزلت كما أخرج الثعلبي عن ابن عباس قال: «إن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي ﷺ إلى قبلتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم وأيسوا أن يوافقهم على دينهم فأنزل الله ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى ﴾ الآية».

٤. ﴿.. وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾، (البقرة: من الآية٢١٧).

٥. ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (آل عمران:١٨٦)... أسباب نزول الآية: روى ابن أبي حاتم، وابن المنذر، بسند حسن عن ابن عباس: «أنها نزلت فيما كان بين أبي بكر وفنحاص من قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾.. وذكر عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك: «أنها نزلت في كعب بن الأشرف فيما كان يهجو به النبي ﷺ وأصحابه من الشعر».

٦. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾، (الأنفال:٣٦).. أسباب نزول الآية: قال ابن إسحاق حدثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجعوا إلى مكة مشى عبد الله ابن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أبي أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم، فكلموا أبا سفيان ومن كان له في ذلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا أن ندرك منه ثأرا، ففعلوا، ففيهم، كما ذكر عن ابن عباس ــ أنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ يُحْشَرُونَ ﴾.. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن عتبة قال: نزلت في أبي سفيان أنفق على المشركين أربعين أوقية من ذهب... وأخرج ابن جرير عن ابن أبزى، وسعيد بن جبير قالا: نزلت في أبي سفيان استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش ليقاتل بهم رسول الله ﷺ... ولكن تأمل أخي الكريم دقة الوصف مع البشارة في هذه الآية الكريمة وكما سنفصل لاحقاً.

على أن المتأمل في ما ذكره القرآن الكريم من آيات تتعلق بمؤامرات أهل الكتاب ليجد أنها تنطبق على المتطرفين والمغالين من أصحاب الأغراض السيئة والقلوب القاسية من أهل الكتاب سواء أكانوا أهل فكر أو مصلحة أو سياسة، وليس على أصحاب الفكر الوسيط المعقول من العقلاء والموضوعيين وخصوصاً بعض فئات النصارى والذين امتدحهم القرآن الكريم:

١. ﴿ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ۝١١٣ ﴾، (آل عمران:١١٣)... وقد نزلت هذه الآية كما أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده في الصحابة، عن ابن عباس قال: "لما أسلم: عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام قالت أحبار اليهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد واتبعه إلا أشرارنا، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله في ذلك: ﴿**ليسوا سواء من أهل الكتاب**﴾ الآية»... وأخرج أحمد والنسائي وغيره عن ابن مسعود قال: «أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم، وأنزلت هذه الآية: ﴿**ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة**﴾ حتى بلغ: ﴿**والله عليم بالمتقين**﴾"[1].

٢. ﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝١٩٩ ﴾، آل عمران:١٩٩)... وقد نزلت هذه الآية كما أخرج النسائي والبزار، قالوا: عن أنس، قال: لما جاء نعي النجاشي قال رسول الله ﷺ: (**صلوا عليه**)، قالوا يا رسول الله نصلي على عبد حبشي؟، فأنزل الله تعال الآية.. وعن جابر، قال: قال لنا رسول الله ﷺ حين مات النجاشي: (**إن أخاً لكم قد مات**)، فخرج رسول الله ﷺ فصلى عليه كما يصلي على الجنائز فكبر أربعاً، فقال المنافقون: يصلي على علج مات بأرض الحبشة؟، فأنزل الله تعالى الآية —رواه ابن جرير—.. وقد ثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه وقال (**إن أخاً لكم بأرض الحبشة قد مات، فصلوا عليه**)، فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه[2].

٣. ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ

---

(١) الموسوعة الميسرة في علوم القرآن، قرص مدمج.

(٢) روائع البيان لمعان القرآن مع أسباب النزول، ص ٨٦.

وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾، (المائدة).. وقد نزلت هذه الآية كما أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب، وأبي بكر بن عبد الرحمن، وعروة بن الزبير، قالوا: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري، وكتب معه كتابا إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه، وأرسل النجاشي إلى الرهبان والقسيسين، ثم أمر جعفر بن أبي طالب فقرأ عليهم سورة مريم، فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدمع، فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً ﴾ إلى قوله: ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.... وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: بعث النجاشي ثلاثين رجلا من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليهم سورة يس فبكوا، فنزلت فيهم الآية... وأخرج النسائي عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ﴾.. وروى الطبراني عن ابن عباس نحوه أبسط منه(١).

معلوم أن القاعدة التفسيرية الذهبية التي تحكم علم أسباب النزول تذكر أن المعنى لعموم اللفظ لا لخصوص السبب. وفي ذلك يقول الزركشي رحمه الله تعالى في كتابه (البرهان في علوم القرآن) ما نصه:(وقد يكون السبب خاصاً والصيغة عامة، لينبه على أن العبرة بعموم اللفظ)، وقال الزمخشري في نفس سورة الهمزة (يجوز أن يكون السبب خاصاً والوعيد عاماً، ليتناول كل من باشر ذلك القبيح، وليكون جارياً مجرى التعريض بالوارد فيه، فإن ذلك أزجر له، وأنكى فيه).. فالتخصيص هنا لطائفة من أهل الكتاب من اليهود كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من يهود معهم، أو من النصارى كالنجاشي وأصحابه لا يمنع مِن أن مِن أهل الكتاب في كل زمان ومكان مَن يستحق هذا الثناء القرآني على أن تنطبق عليه شروط الآيات الكريمات كالتصديق بما جاء به الإسلام من كتاب وسنة عقيدة و شريعة، أو بنزول الدمع والبكاء إذا ما سمعوا القرآن، فتلك هي القاعدة التي من اجلها نزلت الآيات الكريمات.

لذلك تجد في كل الأزمنة والأمكنة وحتى في وقتنا الراهن هذا أن أهل الكتاب

(١) الموسوعة الميسرة في علوم القرآن، قرص مدمج.

يختلفون في نظرتهم للإسلام والمسلمين، فمنهم من يصدق، ومنهم من تفيض أعينهم من الدمع، ومنهم من يوقنون ولكنهم يتكبرون ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا.. ﴾، (النمل: من الآية ١٤)، ومنهم من يحسدنا على عظمة هذا الدين ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، (البقرة:١٠٩)، ومنهم من لا يقبل الظلم على المسلمين منطلقاً من نواحي إنسانية أو موضوعية أو لرقة في قلبه، ومنهم من يعادي ويظلم ويتمنى القضاء على الإسلام وأهله، ومنهم، ومنهم، وهكذا... فيجب التفرقة بين كل هؤلاء وإعطاء كل ذي حق حقه لأنهم كما وصفهم كتاب الله تعالى ليسوا سواء.

ومن هنا كانت جميع الفتن على هذه الأمة بعد انتهاء ما كان يجمعها من دولة بنهاية الدولة العثمانية كانت نتيجة لهذا القانون المستمر، وكل ما ابتلينا به من حكام هو بالواقع لمنع استلام المسلمين الصادقين السلطة لأنهم يعلمون إذا ما استلم المسلمون زمام الحكم أقاموا دولة الإسلام فتعاد عندئذ تجربة صلاح الدين وكل الأبطال والمحررين والمصلحين، وهذا ما لا يريدونه... ومن واقعنا الراهن المؤلم تطل تجربة العراق المريرة مع زمرة الجهال والمتاجرين بشعارات الأمة الذين حكموه طيلة أربعة عقود، فرغم ما كان يدعيه النظام العبثي السابق من شعارات المعاداة للصهيونية ومشروعها، نراه قد طبق الأوامر والتعليمات الصهيونية الأساسية الثلاث التي تنص على ما يلي: (إذا أردت أن تحتل بلداً فانشر فيه الفساد)، (إذا أردت أن تدمر جيشاً فسلمه بيد المدنيين)، (إذا أردت أن تدمر أمة فسلمها بيد جهالها)، فكانت النتيجة ما علمتم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

نظرية المؤامرة إذن هي نظرية مطبقة ومشخصة بشكل جلي على أرض واقعنا الإسلامي المرير، ولكنها تأخذ أشكالاً وأحجاماً مختلفة هنا أو هناك، أو قد تشترك مع معطيات وظروف أخرى في تشكيل الحدث كتقصيرنا نحن المسلمين. وإني لأعجب لقول بعض المثقفين العرب والمسلمين ومنهم من يُصنَّف على التيار الإسلامي، عندما يذكرون أن الرأي بنظرية المؤامرة مجرد وهم أو أنه ليس شرط الحدوث أو التطبيق، وكأنني بهم كذلك المخلوق الذي يضع رأسه في الرمل ظاناً أن العدو لن يراه، لأنه

ببساطة لا يرى شيئاً. فنظرية المؤامرة هذه كما يطلقون عليها هي في الواقع تشخيص وقانون قرآني لا يبدل ولا يحرف ولن تجدي محاولاتهم في التغطية والتعمية والتورية. كما وأن أحداث التاريخ تثبت لكل من بقي له ذرة من شك هذا القانون على أرض الواقع، فضلاً عن أن أمراض النفس الخبيثة في الحسد والتنافس غير الشريف وتمني زوال النعمة عن الآخرين بل وتمني إقصاء الآخر حقيقة مشخصة في أغلب المجتمعات والأشخاص إلا ما رحم ربي، بل وازعم أن من المؤامرة التشكيك في نظرية المؤامرة.

لكن الحق يقال أن ليس كل ما يمر بنا نرميه على شماعة المؤامرة، فذلك تضييق لواسع وتغييب لواقع، فالمشكلة أن فينا من العيوب الكثير الذي علينا مصارحته ومعالجته، ومنه أن الخطأ لا يكمن أيضاً في أن المواطن البسيط بحكم عاطفته البسيطة يلجأ لتفسير كل ما يحدث على أنه من تطبيق حرفي لأمر مخطط سار وفق ما رسم ودبر بليل من قبل أعداء الأمة، وكأن بيدهم ملكوت كل شيء –حاشا لله–، ولكن المشكلة تكمن في أن بعض مثقفينا لا يحللون الأمور بشكل موضوعي، بل ترى بعضهم يتطرف باتجاه عدم وجود المؤامرة، والآخر يتطرف باتجاه تفسير كل شيء وفق المؤامرة، والحقيقة الاثنين على خطأ، والسبب أن أغلب مثقفينا لا يستخدمون الطرق البحثية والتحليلية العلمية الصحيحة في رصد الأحداث وتحليلها ومن ثم إبداء الرأي فيها، وهذه في الحقيقة من ضمن مأساتنا.

٣- قانون الفتن المتلاحقة

يثبّت لنا الإسلام بشقيه القرآن والسنة حقيقة مفادها أن الفتن بهذه الأمة ستستمر بأشكال وأنواع مختلفة على هذه الأمة حتى نهاية العالم وقيام الساعة... وقبيل قيام الساعة ستكون هناك فتن وعلامات تحصل أنبأ بها القرآن الكريم وسنة المصطفىﷺ، ومن خصائصها المميزة لها أنها مستمرة دون انقطاع ولن تنتهي إلا بقيام الساعة.

وإن من العلامات الدالة على الفتن التي ستلحق بالأمة في آخر الزمان كما أنبأنا المصطفى ﷺ عنها ما سنذكره في هذا المبحث، على أن أهم علامة من علامات الساعة هو بعثته ﷺ وهو ما نص عليه القرآن الكريم: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾، (محمد: ١٨).. ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ ﴾، (النازعات)، أي

لماذا يسألونك عن الساعة فأنت من أكبر علاماتها، وهو معنى قول رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري، في تفسير القرآن (رقم ٤٨٨٩) قال:عن سَهْلِ بن سَعْد السَّاعديِّ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّه ﷺ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ أَوْ كَهَاتَيْنِ وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى**)..

هذه العلامات التي تسبق قيام الساعة تقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- **العلامات الصغرى:** وهي مما ألفه الناس ولكنه يكثر بشكل عجيب، كقبض العلم وكثرة الجهل بالدين وازدياد الزنى والمعازف والخمور والظلم والهرج -أي القتل- والخسف وغيرها مما سنستعرض لاحقاً.

٢- **العلامات الأرضية الكبرى:** وهي مما لم يألفه الناس، كظهور الدجال ونزول سيدنا عيسى عليه السلام والمهدي عليه السلام وظهور يأجوج ومأجوج والدابة التي تكلم الناس وغير ذلك.

٣- **العلامات الكونية الكبرى:** كشروق الشمس من مغربها، والزلازل والرج وغيرها.

وفي كل هذه الحالات على المسلم أن لا يستسلم للإحباط واليأس، فيكون مصلحاً، هادياً، نافعاً، له موقف واضح، فلا يكون جاهلاً بحجة قبض العلم، ولا زانياً أو سامعاً لمعازف بحجة كثرتها قرب الساعة، وقس على ذلك جنبك الله الشبهة.. وعموماً إليك بعض الأحاديث الشريفة التي جاءت في هذا الموضوع الهام والتي تعد من معجزات النبوة، فقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ... ففي العلامات الصغرى وردت أحاديث كثيرة منها الصحيح ومنها الحسن، إليك بعضها:

١. أخرج الإمام أحمد في مسنده حديثاً عن النبي ﷺ (باقي مسند الأنصار ٢١١٣٩) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (**لَيُنْقَضَنَّ عُرَى الإِسْلامِ عُرْوَةً عُرْوَةً فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ وَآخِرُهُنَّ الصَّلاةُ**).

٢. عَنْ عَلِيِّ بن أَبِي طَالِب عليه الرضوان والسلام قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:(**إِذَا فَعَلَتْ أُمَّتِي خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً حَلَّ بِهَا الْبَلاءُ**)، فَقِيلَ وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّه قَالَ:(**إِذَا كَانَ الْمَغْنَمُ دُوَلاً وَالأَمَانَةُ مَغْنَمًا وَالزَّكَاةُ مَغْرَمًا وَأَطَاعَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ وَعَقَّ أُمَّهُ وَبَرَّ**

صَدِيقَهُ وَجَفَا أَبَاهُ وَارْتَفَعَت الأَصْوَاتُ فِي الْمَسَاجِد وَكَانَ زَعِيمُ الْقَوْمِ أَرْذَلَهُمْ وَأُكْرِمَ الرَّجُلُ مَخَافَةَ شَرِّه وَشُرِبَت الْخُمُورُ وَلُبِسَ الْحَرِيرُ وَاتُّخذَت الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَازِفُ وَلَعَنَ آخِرُ هَذِه الأُمَّة أَوَّلَهَا فَلْيَرْتَقِبُوا عِنْدَ ذَلِكَ رِيحًا حَمْرَاءَ أَوْ خَسْفًا وَمَسْخًا)، (الترمذي/ الفتن- حديث برقم٢١٣٦- وقال حديث غريب).. وكل هذه الأمور حصلت وتحصل أمامنا اليوم.

٣. وكما أنبأنا الصادق الأمين ﷺ في معرض حديثه عن آخر الزمان وعلامات يوم القيامة، فعن عَبْدَ اللَّه بن عُمَرَ يَقُولُ كُنَّا قُعُودًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّه فَذَكَرَ الْفِتَنَ فَأَكْثَرَ فِي ذِكْرِهَا حَتَّى ذَكَرَ فِتْنَةَ الأَحْلاَسِ فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّه وَمَا فِتْنَةُ الأَحْلاَسِ قَالَ هِيَ هَرَبٌ وَحَرْبٌ ثُمَّ فِتْنَةُ السَّرَّاء دَخَنُهَا مِنْ تَحْت قَدَمَيْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنِّي وَلَيْسَ مِنِّي وَإِنَّمَا أَوْلِيَائِي الْمُتَّقُونَ ثُمَّ يَصْطَلِحُ النَّاسُ عَلَى رَجُلٍ كَوَرِك عَلَى ضِلَعٍ ثُمَّ فِتْنَةُ الدُّهَيْمَاء لاَ تَدَعُ أَحَدًا مِنْ هَذه الأُمَّة إِلاَّ لَطَمَتْهُ لَطْمَةً فَإِذَا قِيلَ انْقَضَتْ تَمَادَتْ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى فُسْطَاطَيْنِ فُسْطَاط إِيمَان لاَ نِفَاقَ فِيه وَفُسْطَاط نِفَاق لاَ إِيمَانَ فِيه فَإِذَا كَانَ ذَاكُمْ فَانْتَظِرُوا الدَّجَّالَ مِنْ يَوْمِه أَوْ مِنْ غَده[1].. وفي سنن سنن الترمذي (الفتن ٢١٢٣) عَنْ أَنَسِ بن مَالِك عَنْ رَسُول اللَّه ﷺ قَالَ: (تَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَة فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِم يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ أَقْوَامٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا).. وفي مسند أحمد (المكثرين٨٧١٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: (وَيْلٌ لِلْعَرَب مِنْ شَرٍّ قَد اقْتَرَبَ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِم يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا يَبِيعُ قَوْمٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ الْمُتَمَسِّكُ يَوْمَئِذ بِدِينِه كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ أَوْ قَالَ عَلَى الشَّوْك).. وفي مسند أحمد (المكيين ١٥٤٢٥) عَنْ عَبْد اللَّه بن عَمْرٍو عَنْ أَبِي مُوَيْهِبَةَ مَوْلَى رَسُول اللَّه ﷺ قَالَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّه ﷺ مِنْ جَوْف اللَّيْلِ فَقَالَ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ: (إِنِّي قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأَهْلِ الْبَقِيع فَانْطَلِقْ مَعِي فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ قَالَ السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ لِيَهْنِ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيه مِمَّا أَصْبَحَ فِيه النَّاسُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَّاكُمُ اللَّهُ مِنْهُ أَقْبَلَت الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يَتْبَعُ أَوَّلُهَا آخِرَهَا الآخِرَةُ شَرٌّ مِنَ الأُولَى) ، قَالَ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: (يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ

---

(١) أبو داود (الملاحم والفتن٤٢٠٧)، مسند أحمد (مسند المكثرين ٥٨٩٢).

الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ وَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَالْجَنَّةِ)، قَالَ قُلْتُ بِأَبِي وَأُمِّي فَخُذْ مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ قَالَ: (**لاَ وَاللَّهِ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ لَقَدِ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَالْجَنَّةَ**)، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لأَهْلِ الْبَقِيعِ ثُمَّ انْصَرَفَ فَبُدِئَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الَّذِي قَضَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ حِينَ أَصْبَحَ.

٤. حديث الـ (خمس بخمس) الذي ذكرناه في الباب الأول في موضوع الذوق والسلوك الإسلامي الراقي.

٥. أخرج الترمذي في باب الزهد (٢٢٢٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:(**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلاَّ فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**)، قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

٦. أخرج ابن ماجه في الفتن (٣٩٦٩) عن حُذَيْفَةَ بن الْيَمَانِ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**يَكُونُ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**)، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ، (**هُمْ قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**)، قُلْتُ فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ، قَالَ (**فَالْزَمْ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ كَذَلِكَ**).

٧. هناك علامات صغرى لقرب الساعة التي تكثر عندها الفتن المتلاحقة ومنها ما مختصره أن أجزاء الأرض ستتقارب.. أن الإبل لن تستخدم للسفر وسيركب الناس على مياثر ينزلون بها على أبواب المساجد.. الحركة التجارية ستتسع ويزيد دخل الفرد.. سيكثر شرب الخمر.. سيكثر الزنا حتى أنه ليرى الفاعلون على قارعة الطريق فيقول أكثر الناس أدباً لو واريتها وراء هذا الحائط.. أن الناس سيأكلون الربا ويصيبهم من غباره، فمن لم يأكله فقد أصابه من رشاشه.. سيأتي جيل يحيي بعضه بعضاً بالتلاعن.. سيكون السلام بالمعرفة، أي لا يسلم الإنسان إلا على من يعرف فقط.. سيختلف الأخوة بالدين.. سيكثر القتل ويكثر الموت بالسكتة القلبية.. الناس سيحسنون القول ويسيئون العمل.. أن السيف سيعطل بالجهاد.. أن الفتن ستكثر.. يقدم النساء على الرجال في الخطاب، وهذا ما نسمعه اليوم من مقدمي البرامج بقولهم "سيداتي آنساتي سادتي"، وهذا قد يظنه البعض تحقيراً للمرأة إلا أنه في الواقع قمة التكريم، لأن المرأة كالدرة التي تحفظ من عيون وأياد

السراق ومرضى الأنفس.. ولا تزال طائفة من أمة محمد ﷺ على الحق ظاهرين أجر المتمسك بسنة الرسول ﷺ كأجر الشهيد عند بدء الفساد وكأجر مئة شهيد عندما يبلغ أقصاه.. اليهود سيقاتلون المسلمين وسينصر الله المسلمين عليهم، وأن معارك تدور بين المسلمين واليهود على نهر الأردن والمسلمون شرقه واليهود غربه [(١)].

٨. أخيراً وليس آخراً فإن المصطفى ﷺ قد تنبأ بحصار العراق وأهل الشام، هذا الحصار اللئيم الذي يعيشه أهل فلسطين اليوم، وعاشه أهل العراق منذ عام ١٩٩٠ ميلادي (والله أعلم)... فعن زهير بن حرب وعلي بن حجر (واللفظ لزهير). قالا: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن الجريري، عن أبي نضرة، قال: كنا عند جابر بن عبد الله فقال:(**يوشك أهل العراق أن لا يجبى إليهم قفيز ولا درهم**)، قلنا: من أين ذاك؟ قال (**من قبل العجم. يمنعون ذلك**)[(٢)].. ومعلوم في لغة العرب أن كلمة العَجَم تعني كل جنس غير فصيح، أو خلاف العربي. قال في المعجم الوجيز الأعجم غير الفصيح، والعَجَم خلاف العرب، الواحد: عَجمي، والعُجْمُ خلاف العرب[(٣)].. بينما الروم يعني أهل الغرب ومن حالفهم.

٩. وهناك أحاديث كثيرة أخرى في الفتن التي ستكون عند آخر الزمان يطول الحديث في تفاصيلها.

العلامات الكبرى وظاهرة الدجال

أما **العلامات الكبرى الأرضية والكونية** فهي عشرة كما أخبر المصطفى ﷺ، ففي الحديث الذي يروى عن حذيفة قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة قال:(إنها لن تقوم حتى تروا عشر آيات)، فذكر:(**الدخان، الدجال، الدابة، طلوع الشمس من مغربها، نزول عيسى ابن مريم ﷺ، يأجوج ومأجوج، ثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم**)[(٤)]. وفي أحاديث أخرى ذكر المهدي، وريح من اليمن، ونار تخرج

---

(١) عن كتاب توحيد الخالق، عبد المجيد الزنداني، ص٢٨١.

(٢) أخرجه مسلم، باب الفتن وأشراط الساعة، رقم ٧٢٦٠.

(٣) المعجم الوجيز مادة (عَجَم)، صفحة ٤٠٨.

(٤) رواه مسلم والترمذي وأبو داود بمسنده.

من عدن. وإليكم بعض الآيات والأحاديث في العلامات الكبرى:

١. قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾، (الأنبياء:٩٦-٩٧).

٢. وعن سيدنا عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾، (الزخرف:٦١)، أي يكون نزوله عليه السلام علامة لقرب الساعة وهي القيامة. ففي الحديث الذي أخرجه البخاري /أحاديث الأنبياء – ٣١٩٢) قال: عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَعِيدَ بن الْمُسَيَّبِ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْهم قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلاً فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)** ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾.

٣. وعن الدابة قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾، (النمل:٨٢).. وهو ما سيكون من الأمر قبل القيامة، فتخرج للناس وهم شرار الخلق، جيل (لكع ابن لكع) كما أخبر المصطفى ﷺ أي كافر متوالد من جيل كافر، تخبرهم أن الناس أصبحوا كلهم كافرون وأنهم كذبوا بآيات الله فيجب أن تقوم عليهم القيامة، وهي من العلامات الكبرى.

٤. وعن الدخان يقول الله تعالى في سورة الدخان: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾، (الدخان).. وقد حصل في عصر البعثة الشريفة عذاب لأهل مكة بالدخان، فطلبوا أن يكشف عنهم هذا العذاب، ولما كشف عنهم عادوا لكفرهم فحصل

كما أخبر القرآن الكريم ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ (الدخان: ١٥).

٥. أما عن المهدي فقد وردت أحاديث كثيرة في هذا الموضوع، كما فصل أهل العلم فيه. فإن المهدي من أهل بيت النبي ﷺ ومن ذرية سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما. اسمه هو نفس اسم النبي ﷺ واسم أبيه إذن هو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسني.. يقول ابن كثير رحمه الله تعالى في تاريخه في الفتن والملاحم: والدليل على هذا قوله ﷺ (**يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه الله الغيث وتخرج الأرض نباتها ويعطي المال صحاحا وتكثر الماشية وتعظم الأمة، يعيش سبعاً أو ثمانياً**)، رواه الحاكم ووافقه الذهبي... وعن الإمام علي كرم الله وجهه قال: قال النبي ﷺ (**المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة**)، رواه الإمام أحمد وابن ماجه وإسناده صحيح.. وروي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول (**المهدي من عترتي من ولد فاطمة**)، رواه أبو داود وابن ماجه.. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (**لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي**)، رواه أحمد في مسنده.. كما وذكر أبو داود في كتاب المهدي(٣٧٣٣) عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زِرٍّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ يَوْمٌ قَالَ زَائِدَةُ فِي حَدِيثِهِ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ثُمَّ اتَّفَقُوا حَتَّى يَبْعَثَ فِيهِ رَجُلاً مِنِّي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي**)، زَادَ فِي حَدِيثِ فِطْرٍ (**يَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا**)، وَقَالَ فِي حَدِيثِ سُفْيَانَ (**لاَ تَذْهَبُ أَوْ لاَ تَنْقَضِي الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي**). وذكر أبو داود في سننه في كتاب المهدي (٣٧٣٦) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**الْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجْلَى الْجَبْهَةِ أَقْنَى الأَنْفِ يَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ**).

كما جاء ذكره تلميحاً في عدة أحاديث كما جاء في صحيح البخاري (أحاديث الأنبياء ٣١٩٣) عَنْ نَافِعٍ مَوْلَى أَبِي قَتَادَةَ الأَنْصَارِيِّ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ**)،تَابَعَهُ عُقَيْلٌ وَالأَوْزَاعِيُّ، وذكره مسلم في كتاب الإيمان.. كما وجاء في صحيح مسلم (كتاب الإيمان ٢٢٥) عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ

أَخبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بن عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَالَ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ تَعَالَ صَلِّ لَنَا فَيَقُولُ لاَ إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللَّهِ هَذِهِ الأُمَّةَ**). فأميرهم هذا هو المهدي رضي الله عنه، وتواضع سيدنا عيسى عليه السلام للمهدي دليل على مكانته الكبيرة من جهة، ودليل لمكانة هذه الأمة وأئمتها عند الله تعالى من جهة أخرى..

وقد تواترت الأخبار واستفاضت عن الرسول ﷺ بذكر المهدي، وأنه من أهل البيت الكرام عليهم الرضوان والسلام، وأنه يبقى في الأرض سبع سنين يملؤها عدلاً بعد جور ونوراً بعد ظلام، وأن سيدنا عيسى يساعده في قتل الدجال وأنه يؤم هذه الأمة ويصلي سيدنا عيسى عليه السلام خلفه. جاءت هذه الأخبار من كبار علماء الأمة كالعلامة محمد السفاريني، والإمام الشوكاني، في كتابه (التواضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح).

وأما ما اعترض من قبل بعض العلماء على ذلك محتجين بحديث النبي ﷺ الذي أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠٢٩) عَنْ أَنَسِ بن مَالِك أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:(**لاَ يَزْدَادُ الأَمْرُ إِلاَّ شِدَّةً وَلاَ الدُّنْيَا إِلاَّ إِدْبَارًا وَلاَ النَّاسُ إِلاَّ شُحًّا وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ عَلَى شِرَارِ النَّاسِ وَلاَ الْمَهْدِيُّ إِلاَّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**).. فإن شيخ الإسلام ابن تيميه قد أجابهم بأن هذا الحديث ضعيف، وهو حديث منكر ومردود عند أغلب المحدثين كما ذكر الذهبي، إذ قال الأزدي منكر الحديث، وذكر الذهبي في كتابه (ميزان الاعتدال) هذا الحديث خبر منكر أخرجه بن ماجه. أما الإمام القرطبي فقد بين الأمر بقوله: يحتمل أن يكون قوله ﷺ في هذا الحديث أن لا مهدي كاملاً معصوماً إلا عيسى عليه السلام، وبهذا يزول التعارض وتجمع الأحاديث[1].

٦. أما عن الدجال فهناك أحاديث كثيرة، فتذكر لنا الأحاديث الصحيحة أن الدجال سيظهر في اليهود وأن عيسى عليه السلام سينزل في المسلمين وسيقتل المسيح الحق سيدنا عيسى عليه السلام المسيح الدجال. فقد روى البخاري في الجهاد والسير حديثاً برقم ٢٨٢٩ يقول فيه: قَالَ ابْنُ عُمَرَ ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ فِي النَّاسِ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ ذَكَرَ

---

(١) هذه التفاصيل جاءت لمقالة في مجلة اقرأ (العدد الأول)، ص ٢١-٢٢، بتصرف.

الدَّجَّالَ فَقَالَ: (**إِنِّي أُنْذِرُكُمُوهُ وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ لَقَدْ أَنْذَرَهُ نُوحٌ قَوْمَهُ وَلَكِنْ سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلاً لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَعْوَرُ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ**). وفي أحاديث الأنبياء ذكر البخاري —حديث رقم ٣٠٩٠- قال: عَنْ أَبِي سَلَمَةَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا عَنِ الدَّجَّالِ مَا حَدَّثَ بِهِ نَبِيٌّ قَوْمَهُ إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّهُ يَجِيءُ مَعَهُ بِمِثَالِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَالَّتِي يَقُولُ إِنَّهَا الْجَنَّةُ هِيَ النَّارُ وَإِنِّي أُنْذِرُكُمْ كَمَا أَنْذَرَ بِهِ نُوحٌ قَوْمَهُ**)... وفي حديث برقم ٣١٨٤ في باب أحاديث الأنبياء قال: حَدَّثَنَا مُوسَى عَنْ نَافِعٍ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا بَيْنَ ظَهْرَيِ النَّاسِ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ:(**إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ أَلاَ إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ وَأَرَانِي اللَّيْلَةَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فِي الْمَنَامِ فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ كَأَحْسَنِ مَا يُرَى مِنْ أُدْمِ الرِّجَالِ تَضْرِبُ لِمَّتُهُ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ رَجِلُ الشَّعَرِ يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاءً وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلَيْنِ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ فَقُلْتُ مَنْ هَذَا فَقَالُوا هَذَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ثُمَّ رَأَيْتُ رَجُلاً وَرَاءَهُ جَعْدًا قَطَطًا أَعْوَرَ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَشْبَهِ مَنْ رَأَيْتُ بِابْنِ قَطَنٍ وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلٍ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ فَقُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ**)... وفي كتاب التوحيد ذكر البخاري حديث برقم ٦٨٥٩ قال: حَدَّثَنَا حَفْصُ بن عُمَرَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ أَخْبَرَنَا قَتَادَةُ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسًا رَضِي اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:(**مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَنْذَرَ قَوْمَهُ الأَعْوَرَ الْكَذَّابَ إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ**).

وفي كتاب الفتن وأشراط الساعة ذكر الإمام مسلم في صحيحه (٥٢١٥) قال: أَنَّ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ انْطَلَقَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رَهْطٍ قِبَلَ ابْنِ صَيَّادٍ حَتَّى وَجَدَهُ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ عِنْدَ أُطُمِ بَنِي مَغَالَةَ وَقَدْ قَارَبَ ابْنُ صَيَّادٍ يَوْمَئِذٍ الْحُلُمَ فَلَمْ يَشْعُرْ حَتَّى ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ظَهْرَهُ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لابْنِ صَيَّادٍ:(**أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ**")، فَنَظَرَ إِلَيْهِ ابْنُ صَيَّادٍ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الأُمِّيِّينَ فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَرَفَضَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: (**آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ**)، ثُمَّ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(**مَاذَا تَرَى**)، قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(**خُلِّطَ عَلَيْكَ الأَمْرُ**)، ثُمَّ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا**)، فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ هُوَ الدُّخُّ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(**اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ**)، فَقَالَ عُمَرُ بن الْخَطَّابِ ذَرْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(**إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ**

فَلاَ خَيْرَ لَكَ فِي قَتْله)، وَقَالَ سَالِمُ بن عَبْد اللَّه سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّه بن عُمَرَ يَقُولُ انْطَلَقَ بَعْدَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَأُبَيُّ بن كَعْب الأَنْصَارِيُّ إِلَى النَّخْلِ الَّتِي فِيهَا ابْنُ صَيَّادٍ حَتَّى إِذَا دَخَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ النَّخْلَ طَفِقَ يَتَّقِي بِجُذُوعِ النَّخْلِ وَهُوَ يَخْتِلُ أَنْ يَسْمَعَ مِنِ ابْنِ صَيَّادٍ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ ابْنُ صَيَّادٍ فَرَآهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى فِرَاشٍ فِي قَطِيفَةٍ لَهُ فِيهَا زَمْزَمَةٌ فَرَأَتْ أُمُّ ابْنِ صَيَّادٍ رَسُولَ اللَّه ﷺ وَهُوَ يَتَّقِي بِجُذُوعِ النَّخْلِ فَقَالَتْ لِابْنِ صَيَّادٍ يَا صَافِ وَهُوَ اسْمُ ابْنِ صَيَّادٍ هَذَا مُحَمَّدٌ فَثَارَ ابْنُ صَيَّادٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: (**لَوْ تَرَكَتْهُ بَيَّنَ**)، قَالَ سَالِمٌ قَالَ عَبْدُ اللَّه بن عُمَرَ فَقَامَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فِي النَّاسِ فَأَثْنَى عَلَى اللَّه بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ ذَكَرَ الدَّجَّالَ فَقَالَ:(**إِنِّي لَأُنْذِرُكُمُوهُ مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ لَقَدْ أَنْذَرَهُ نُوحٌ قَوْمَهُ وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ فِيه قَوْلاً لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِه تَعَلَّمُوا أَنَّهُ أَعْوَرُ وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ بِأَعْوَرَ**)، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَأَخْبَرَنِي عُمَرُ بن ثَابِتٍ الأَنْصَارِيُّ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّه ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ يَوْمَ حَذَّرَ النَّاسَ الدَّجَّالَ: (**إِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْه كَافِرٌ يَقْرَؤُهُ مَنْ كَرِهَ عَمَلَهُ أَوْ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَقَالَ تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ**).

وروى الترمذي في سننه حديث برقم ٢١٦٦ قال: عَنِ النَّوَّاسِ بن سَمْعَانَ الْكِلاَبِيِّ قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّه ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيه وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ قَالَ فَانْصَرَفْنَا مِنْ عِنْد رَسُولِ اللَّه ﷺ ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَيْه فَعَرَفَ ذَلِكَ فِينَا فَقَالَ (**مَا شَأْنُكُمْ**)، قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّه ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ الْغَدَاةَ فَخَفَّضْتَ فِيه وَرَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ قَالَ: (**غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ لِي عَلَيْكُمْ إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَكل امْرِئٍ حَجِيجُ نَفْسِه وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِئَةٌ شَبِيهٌ بِعَبْدِ الْعُزَّى بن قَطَنٍ فَمَنْ رَآهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ فَوَاتِحَ سُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ قَالَ يَخْرُجُ مَا بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ فَعَاثَ يَمِينًا وَشِمَالاً يَا عِبَادَ اللَّه اثْبُتُوا**)، قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّه وَمَا لَبْثُهُ فِي الأَرْضِ قَالَ: (**أَرْبَعِينَ يَوْمًا يَوْمٌ كَسَنَةٍ وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرُ أَيَّامِه كَأَيَّامِكُمْ**)، قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّه أَرَأَيْتَ الْيَوْمَ الَّذِي كَالسَّنَةِ أَتَكْفِينَا فِيه صَلاَةُ يَوْمٍ قَالَ: (**لاَ وَلَكِنِ اقْدُرُوا لَهُ**)، قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّه فَمَا سُرْعَتُهُ فِي الأَرْضِ قَالَ:(**كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ فَيَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيُكَذِّبُونَهُ**

وَيَرُدُّونَ عَلَيْه قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَتَتْبَعُهُ أَمْوَالُهُمْ وَيُصْبِحُونَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ وَيُصَدِّقُونَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ فَتُمْطِرَ وَيَأْمُرُ الأَرْضَ أَنْ تُنْبِتَ فَتُنْبِتَ فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ كَأَطْوَلِ مَا كَانَتْ ذُرًا وَأَمَدِّهِ خَوَاصِرَ وَأَدَرِّهِ ضُرُوعًا قَالَ ثُمَّ يَأْتِي الْخَرِبَةَ فَيَقُولُ لَهَا أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فَيَنْصَرِفُ مِنْهَا فَيَتْبَعُهُ كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً شَابًّا مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جِزْلَتَيْنِ ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هَبَطَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام بِشَرْقِيِّ دِمَشْقَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَّانٌ كَاللُّؤْلُؤِ قَالَ وَلاَ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ يَعْنِي أَحَدًا إِلاَّ مَاتَ وَرِيحُ نَفْسِهِ مُنْتَهَى بَصَرِهِ قَالَ فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلَهُ قَالَ فَيَلْبَثُ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ ثُمَّ يُوحِي اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ حَوِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ فَإِنِّي قَدْ أَنْزَلْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ قَالَ وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ (مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) قَالَ فَيَمُرُّ أَوَّلُهُمْ بِبُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ فَيَشْرَبُ مَا فِيهَا ثُمَّ يَمُرُّ بِهَا آخِرُهُمْ فَيَقُولُ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ ثُمَّ يَسِيرُونَ حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى جَبَلِ بَيْتِ مَقْدِسٍ فَيَقُولُونَ لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الأَرْضِ فَهَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ فَيَرْمُونَ بِنُشَّابِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرُدُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نُشَّابَهُمْ مُحْمَرًّا دَمًا وَيُحَاصَرُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ يَوْمَئِذٍ خَيْرًا لأَحَدِهِمْ مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ قَالَ فَيَرْغَبُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِلَى اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ قَالَ فَيُرْسِلُ اللَّهُ إِلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى مَوْتَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ قَالَ وَيَهْبِطُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَلاَ يَجِدُ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلاَّ وَقَدْ مَلأَتْهُ زَهَمَتُهُمْ وَنَتَنُهُمْ وَدِمَاؤُهُمْ قَالَ فَيَرْغَبُ عِيسَى إِلَى اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ قَالَ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ قَالَ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ بِالْمَهْبِلِ وَيَسْتَوْقِدُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قِسِيِّهِمْ وَنُشَّابِهِمْ وَجِعَابِهِمْ سَبْعَ سِنِينَ قَالَ وَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَطَرًا لاَ يُكَنُّ مِنْهُ بَيْتُ وَبَرٍ وَلاَ مَدَرٍ قَالَ فَيَغْسِلُ الأَرْضَ فَيَتْرُكُهَا كَالزَّلَفَةِ قَالَ ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ أَخْرِجِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى إِنَّ الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ لَيَكْتَفُونَ بِاللِّقْحَةِ مِنَ الإِبِلِ وَإِنَّ الْقَبِيلَةَ لَيَكْتَفُونَ بِاللِّقْحَةِ مِنَ الْبَقَرِ وَإِنَّ الْفَخِذَ لَيَكْتَفُونَ بِاللِّقْحَةِ مِنَ الْغَنَمِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا فَقَبَضَتْ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَيَبْقَى سَائِرُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ كَمَا تَتَهَارَجُ الْحُمُرُ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ

السَّاعَةُ)، قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

كما وأخرج الترمذي في الفتن (٢١٧٩) عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّه ﷺ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَضَحِكَ فَقَالَ:(**إِنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ حَدَّثَنِي بِحَدِيثٍ فَفَرِحْتُ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدَّثَنِي أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ فِلَسْطِينَ رَكِبُوا سَفِينَةً فِي الْبَحْرِ فَجَالَتْ بِهِمْ حَتَّى قَذَفَتْهُمْ فِي جَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ فَإِذَا هُمْ بِدَابَّةٍ لَبَّاسَةٍ نَاشِرَةٍ شَعْرَهَا فَقَالُوا مَا أَنْتِ قَالَتْ أَنَا الْجَسَّاسَةُ قَالُوا فَأَخْبِرِينَا قَالَتْ لاَ أُخْبِرُكُمْ وَلاَ أَسْتَخْبِرُكُمْ وَلَكِنِ ائْتُوا أَقْصَى الْقَرْيَةِ فَإِنَّ ثَمَّ مَنْ يُخْبِرُكُمْ وَيَسْتَخْبِرُكُمْ فَأَتَيْنَا أَقْصَى الْقَرْيَةِ فَإِذَا رَجُلٌ مُوثَقٌ بِسِلْسِلَةٍ فَقَالَ أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ قُلْنَا مَلأَى تَدْفُقُ قَالَ أَخْبِرُونِي عَنِ الْبُحَيْرَةِ قُلْنَا مَلأَى تَدْفُقُ قَالَ أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ الَّذِي بَيْنَ الأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ هَلْ أَطْعَمَ قُلْنَا نَعَمْ قَالَ أَخْبِرُونِي عَنِ النَّبِيِّ هَلْ بُعِثَ قُلْنَا نَعَمْ قَالَ أَخْبِرُونِي كَيْفَ النَّاسُ إِلَيْهِ قُلْنَا سِرَاعٌ قَالَ فَنَزَّى نَزْوَةً حَتَّى كَادَ قُلْنَا فَمَا أَنْتَ قَالَ أَنَا الدَّجَّالُ وَإِنَّهُ يَدْخُلُ الأَمْصَارَ كُلَّهَا إِلاَّ طَيْبَةَ وَطَيْبَةُ الْمَدِينَةُ**)، قَالَ أَبو عِيسَى وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ عَنِ الشَّعْبِيِّ وَقَدْ رَوَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ.

نريد أن نتوقف مع ظاهرة الدجال، تلك التي كتب عنها الكثير وقيل فيها الكثير. هناك من العلماء من قال بأن الدجال ليس شخصاً، بل هو ظاهرة مستندين إلى المجاز في الحديث كما حال المجاز في القرآن. ولكن الغالبية العظمى ذكرت أنه شخص لأن الأحاديث الصحيحة التي ذكرناها آنفاً تثبت ذلك، والحقيقة دائماً مقدمة على المجاز... فنظرة إلى الولايات المتحدة التي ترعى قتل المسلمين في كل مكان وتعادي الإسلام جهاراً نجد أنها جزيرة، والأعور يسكن جزيرة كما في الأحاديث. وهي تنظر للدنيا نظرة مادية بحتة دون الجانب الروحي، فهي لا ترى إلا جانب واحد من الحقيقة أي أنها عورة العين مجازاً. وواضح لكل مؤمن أنها تكفر بالله لأنها تحادّ نبيه والذين يأمرون بالقسط من الناس، والأحاديث تذكر أن الدجال مكتوب على جبينه كافر يقرأه كل مؤمن... وهكذا فإننا نستطيع أن نتلمس بعض من حال الدجال وظلمه خصوصاً أن النبي ﷺ ذكر أنه يسبق الدجال ثلاثون دجالاً صغيراً كما بينت الأحاديث التي ذكرها أهل السنن.

هناك من الأحاديث ما ذكره بعض أهل السنن في شأن الدجال والمهديمن المسانيد من غير الكتب التسعة –وهي الكتب الرئيسية للحديث– ما يذكر أن ظهور الدجال وقتال سيدنا عيسى عليه السلام له وكذلك الإمام المهدي عليه السلام، يصاحبهما تعاون

لأخيار أهل العراق والشام على ذلك، ومن تلك الأحاديث ما جاء في:

١ – مصنف ابن أبي شيبة (ج: ٧ص: ٤٦٠): ٣٧٢١٩ حدثنا جرير عن عبد العزيز ابن رفيع بن عبيد الله بن القبطية قال دخل الحارث ابن أبي ربيعة وعبد الله بن فوان على أم سلمة وأنا معها فسألاها عن الجيش الذي يخسف به وذلك في زمان ابن الزبير فقالت: قال رسول الله ﷺ (**يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث فإذا كان ببيداء من الأرض يخسف بهم فقلنا يا رسول الله كيف بمن كان كارها قال يخسف بهم معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته**)، قال أبو جعفر هي بيداء المدينة.. ٣٧٢٢٣ حدثنا عفان قال حدثنا عمران القطان عن قتادة عن أبي خليل عن عبد الله ابن الحارث عن أم سلمة قالت قال رسول الله ﷺ (**يبايع لرجل بين الركن ومقام كعدة أهل بدر فتأتيه عصائب العراق وأبدال الشام فيغزوهم جيش من أهل الشام حتى إذا كانوا بالبيداء يخسف بهم ثم يغزوهم رجل من قريش أخواله كلب فيلتقون فيهزمهم الله فكان يقال الخائب من خاب من غيمة كلب**)... ٣٧٢٢٤ حدثنا الفضل بن دكين قال حدثنا سفيان عن سلمة ابن كهيل عن أبي إدريس المرهبي عن مسلم بن صفوان عن صفية قالت قال رسول الله ﷺ (**لا ينتهي ناس عن غزو هذا البيت حتى يغزو جيش حتى إذا كانوا بالبيداء أو ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم ولم ينج أوسطهم قلت فإن كان فيهم من يكره قال يبعثهم الله على ما في أنفسهم**).

٢ – **الجامع لمعمر بن راشد (ج: ١١ ص: ٣٧١):** أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة يرفعه إلى النبي ﷺ قال: (**يكون اختلاف ثم موت خليف فيخرج رجل المدينة فيأتي مكة فيستخرجه الناس من بيته وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام فيبعث إليه جيش من الشام حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم فيأتيه عصائب العراق وأبدال الشام فيبايعونه فيستخرج الكنوز ويقسم المال ويلقي الإسلام بجرانه إلى الأرض يعيش في ذلك سبع سنين أو قال تسع سنين..** أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن أبي هارون عن معاوية بن قرة عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال ذكر رسول الله ﷺ (**بلاء يصيب هذه الأمة حتى لا يجد الرجل ملجأ إليه من الظلم فيبعث الله رجلا من عترتي من أهل بيتي فيملأ به الأرض لا تدع السماء من قطرها شيئاً إلا صبته مدراراً ولا تدع الأرض لا تدع السماء من قطرها شيئاً إلا صبته مدراراً ولا تدع الأرض من**

مائها إلا شيئاً إلا أخرجته حتى تتمنى الأحياء الأموات يعيش في ذلك سبع سنين أو ثمان أو تسع سنين).

٣- **المعجم الأوسط** (ج: ٢ ص: ٣٥، ١١٥٣): حدثنا أحمد قال حدثنا عبد الله ابن جعفر قال حدثنا عبيد الله بن عمر عن معمر عن قتادة عن مجاهد عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**ثم يكون اختلاف ثم موت خليفة فيخرج رجل من بني هاشم فيأتي مكة فيستخرجه الناس من بيته وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام فيجهز إليه جيش من الشام فيهزمهم الله فتكون الدائرة عليهم فكذلك يوم كلب الخائب من خاب من غنيمة كلب فيستفتح الكنوز ويقسم الأموال ويلقي الإسلام بجرانه إلى الأرض فيعيش بذلك سبع سنين أو قال تسع سنين**)، قال عبيد الله بن عمرو فحدثت به ليثا فقال حدثني به مجاهد لم يروا هذا الحديث عن معمر إلا عبيد الله... نفس الحديث في **المعجم الأوسط** (ج: ٩ ص: ١٧٦).

٤- **المعجم الكبير** (ج: ٢٣ ص: ٣٩٠، ٩٣١): عن مجاهد عن أم سلمة قال حدثنا حفص بن عمر الرقي ثنا عبيد الله بن عمرو عن معمر عن قتادة عن مجاهد عن أم سلمة قالت قال رسول الله ﷺ (**ثم يكون اختلاف ثم موت خليفة فيخرج رجل من بني هاشم من المدينة إلى مكة فيجيئه ناس فيبايعونه بين الركن والمقام وهو كاره فيجهز إليهم جيش من الشام حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم فيأتيهم عصائب أهل العراق وأبدال الشام وينشو رجل بالشام أخواله كلب والخائب من خاب من غنيمة من كلب ويستخرج الكنوز ويقسم الأموال ويلقي الإسلام بجرابه إلى الأرض يعيش في ذلك سبع سنين أو ست سنين**)، قال عبيد الله فحدثت به ليثا فقال حدثنيه مجاهد... ونفس الحديث موجود في **المعجم الكبير** (ج: ٢٣ ص: ٢٩٥، ٦٦).. وكذلك في **المعجم الكبير** (ج: ٣ ص: ٣٨٩، ٩٣٠).

٥- **فيض القدير** (ج٦: ص: ٢٧٧-٢٧٨): ...... وقيل يولد في فارس وهو خماسي القد عقيقي الخد وقد أتاه الله في حال الطفولية الحكمة وفصل الخطاب وأما أمه فاسمها نرجس م أولاد الحواريين، وقيل يولد بجزيرة العرب، وقيل يخرج من المغرب فأول من يشم رائحته طائفة من أرباب القلوب المطلعين على أسرار الغيوب، وأول من يبايعه أبدال الشام ثم قبة الإسلام وأهل مكة بين الركن والمقام ثم عصائب العراق. ولا

يخرج حتى تخرب خوز وكرمان وروم وينان ولا يظهر حتى تظهر الهوارج والأشرار والخوارج، ومن أمارات خروجه يكون المطر قيظاً والولد غيظاً، ومن أكبر أمارات خروجه انتشار علم الحرف وقيل علم التصوف وقيل علم اختلاف الأقوال وقيل علم النحو وقيل كثرة الفتاوى وقيل كثرة المساجد وقيل كثرة ركوب الفروج على السروج وقيل كثرة السراري وقيل ارتفاع البنيان، وقيل... قال وإذا خرج هذا الإمام المهدي فليس له عدو مبين إلا الفقهاء بقتله لكن الله يظهره بالسيف والكرم فيطيعونه ويخافونه ويقبلون حكمه إيمان بل يضمرون خلافه إلى هنا كلامه بنصه وحروفه... وقال أبو حاتم لا بأس به الهدي من ولد العباس عمي حول بعضهم التوفيق بينه وبين ما قبله وبعده بأنه من ولد فاطمة لكنه يدلي إلى بعض بطون بني العباس غريبة....... قال في الميزان عن البخاري فيه نظر ثم ساق له هذا الخبر المهدي مني أجلى الجبهة بالجيم أي منحسر الشعر من مقدم رأسه أقنى الأنف أي طويله يملأ الأرض قسطاً وعدلا القسط بكسر القاف الجور والعدل وليس المراد هنا إلا العدل فالجمع للإطناب والعدل تفسيري كما ملئت جورا وظلما فسروا الجور بأنه الظلم والظلم وضع الشيء موضعه غهو من عطف الرديف كما بينه ما قبله يملك سبع سنين زاد في رواية أو ثمان أو تسع وفي رواية أخرى يمده الله بثلاثة آلاف من الملائكة يضربون وجوه من خالفه وأدبارهم يبعثه ما بين الثلاثين إلى الأربعين قال البسطامي ثم عليه المسلمونوما أقل مدته وأحقرها بين الستين يتممها تميم الذي هو من البؤس سليم عزيز على القلوب مليح الشروق والغروب شيخ أهل العرفان ظهر الحق خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام فالإمام المهدي أبو الحق والدجال أبو الباطل والمهدي أبو الأخيار والدجال أبو الأشرار والمهدي سيف إدريس والدجال سيف إبليس والمهدي حبيب العشاق والدجال حبيب الفساق.

ومن هذه الأحاديث التي يضعف بعضها ويحسن بعضها نستنتج أن من يحارب الدجال وعضد الإمام المهدي هم عصائب العراق وعشائر الشام، وإن من أمارات خروجه أنه لا يخرج حتى تخرب مدن ودول عديدة مثل خوز وكرمان (كناية عن بلاد فارس) وروم ويونان (كناية عن بلاد الغرب)، ولا يظهر حتى تظهر الهوارج والأشرار والخوارج، وحتى يكون المطر قيظا والولد غيظا، ومن أكبر أمارات خروجه انتشار العلوم الغريبة كعلم الحرف (ومنه الفلسفات والأفكار المتعددة، وقد يكون المقصود تطور الرياضيات)، واختلاف الأقوال وكثرة الفتاوى وكثرة المساجد، وركوب الفروج على السروج (أي

السيارات ذات الأرائك كما هو حال اليوم)، وارتفاع البنيان، ولعل كل هذه الأمور نراها اليوم، والله أعلم...

أما عن كون هذه الأحاديث تدور في منطقتنا (الحجاز والشام والعراق)، فإن الأحداث العصبية التي مرت في الأمة الإسلامية منذ وجودها انحصرت في مناطق معينة لعل أهمها ما حصل من أمر الحروب الصليبية في الشا، وامر تدمير بغداد في العراق وقت الغزو المغولي.. أما اليوم فنجد أن ما يحصل في الشام عامة وفلسطين خاصة من جهة وما يحصل في العراق من جهة أخرى من تآمر يتمثل طرفاه في الحقد الصهيوني المتعصب في إسرائيل، وفي المسيحي المتصهين في الولايات المتحدة بشقيه (المحافظون الجدد واليمين المتطرف)، قد يكون، والله أعلم، بداية لتشكل ظاهرة الدجال أو بداية لظهور شخصيته، خصوصاً إذا ما علمنا أن العقيدة التي يبني عليها العمل لدى طرفي المؤامرة في إسرائيل والولايات المتحدة هي عقيدة توراتية تقول بضرورة احتلال بيت المقدس وقتل أهل بابل ليسرع نزول الرب أو المخلص (وهو الدجال عند المسلمين) وتقام دولة الرب، وكما سنفصل في الفصل القادم.)).. انتهت الإضافة الجديدة، وبعدها يسيتمر ما هو مةجود في الكتاب وهو النص:

(وعلى كل حال سواء أكانت ظاهرة أم شخصية فإن وصية المصطفى ﷺ لنا هي (**ألا يا عباد الله فاثبتوا**).....)..

وعلى كل حال سواء أكانت ظاهرة أم شخصية فإن وصية المصطفى ﷺ لنا هي (**ألا يا عباد الله فاثبتوا**)... فالفكرة هو الابتلاء، ومن لم يثبت في فتن زمننا التي قد تبدو صغيرة أمام فتنة الدجال أو قد تكون مقدمة لها، فأنّى له الثبات مع تلك الفتن التي استعاذ منها كل نبي ورسول.

صحيح أن بعض الأحاديث المذكورة في موضوع تواتر الفتن والعلامات الصغرى لا يصل إلى درجة الصحيح، إلا أن أغلبها حسن أو صحيح لذاته أو غيره ومنها ما يصل إلى المتواتر، وصحيح أن بعضها يعطي معنى عاماً لا يحدد زمناً معينً كما يقول بعض أهل الحديث، إلا أن حصولها بنفس دقة الوصف مع الأخذ بنظر الاعتبار الجمع وليس الإفراد مع استمرارها دون توقف وانقطاع يدل على أن وقت حصولها قد يكون زماننا هذا والله أعلم.

أما وقد حصلت كل تلك الفتن التي حدث عنها الصادق الأمينﷺ في العلامات

الصغرى، فإن كل ما يحصل في الأرض وعلى كافة الأصعدة لهو تحقيق لوعد الله وقرب الساعة. إذ تحققت علاماتها الصغرى وها نحن على أعتاب علاماتها الكبرى، فكل ما أمامنا من مظاهر وفساد واقتتال وانكباب على الدنيا والهوى والشهوات وترك الدين وتحلل المجتمعات وكثرة الزلازل والبراكين والحروب وانفلات الشباب والنساء بدون واعز خلقي بهذا الشكل المخجل وتحول الحق إلى باطل والباطل حقاً لهو بالضبط ما وصف في ظاهرة (الأعور الدجال) الذي استعاذ منه كل الأنبياء وخاتمهم ﷺ عدا أن شخص الدجال لم يظهر بعد، ولعل ذلك هو بداية ظهوره لتتبعه بقية العلامات الكبرى الأخرى خصوصاً أن من أمارات ظهوره علو اليهود وكثرة الظلم في الأرض والذي سنفرد له فصل قادم، والله أعلم.

الفصل الخامس

قوانين الأمم والتاريخ

(سنة الله في الأرض)

١ – قانون الروم والفرس

كما سبق وأن أشرنا إلى قصة سورة الروم[1] تبين السبق القرآني في موضوع معركة حدثت بين الفرقتين، وهو قوله تعالى في سورة الروم ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِى بِضۡعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ ۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ ﴾. لكن السنة النبوية ممثلة بالحديث الشريف فصلت ما كان وسيكون من أمرهم. فالروم لا يقتصر معناهم على رومان العصر القديم بل سيمتد تأثيرهم في الأرض وسيكونون مناطحين للمسلمين حتى قيام الساعة، وأما الفرس فسينحسر تأثيرهم ويدخلون الإسلام ويصبحون في صفه. وأما كلمة العجم فهي الأخرى لا تقتصر على الفرس كما يعتقد خطأً عند العامة بل يتعداه لكل ما هو غير عربي، وكما بينا في تعليقنا على معنى العجم في حديث المصطفى ﷺ حول حصار العراق والشام.

ولو تدبرنا الآية الكريمة نجد أنها تنتهي بقوله جل وعلا ﴿... لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ...﴾، أي أن تقلب أحوال الأمم عند الله تعالى، وليس كما يقيسه البشر قبل وقوع الحدث أو وقته أو خلاله أو بعده. الأمر الذي يؤكد ما سبق وأن أشرناه في كلامنا في فصل الاستثناء العام والخاص.

لقد سنّ لله تعالى للبشرية سنناً ونواميس وقوانين، منها أن قيادة الحضارة والمجتمعات البشرية تكون لأمة أو جماعة تملك من مقومات تشكل القيادة الحضارية كالمقومات المادية أو الروحية أو الاثنين معاً وكما ذكرنا في البداية. فتشكل تلك الأمة حضارة لتفعل

---

(١) تجد في الكتاب الأول من سلسلتنا (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية)، كتاب التاريخ والآثار، ما يفصل لك قصة هذه السورة.

وتسن القوانين التي تكون شخصيتها فإن كانت توافق أوامر الله تعالى في العدالة فإنها ستسمر كما كان من أمر حضارتنا الإسلامية التي دامت لأطول فترة حضارية كونتها أمة في التاريخ، وكان ذلك طوال ١٣٠٠ عام عدا بعض سنوات النزول والتي يتبعها صعود وكما أسلفنا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾، (الأعراف:١٢٩).. ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾، (القصص:٥). أما لو أدارت ظهرها لعدالة الله في خلقه فإنها تستحق العقوبات التي تنزل بها بالأشكال التي بيناها.

أما بقية الأمم الكبيرة في فترة البعثة الشريفة فقد قرر الإسلام زوال إحداها وبقاء الأخرى في صراع مع المسلمين حتى قيام الساعة. والرسول ﷺ وجه لذلك حين قرر في أحاديث عديدة إن بلاد الشام «رباط» المجاهدين، وأن أهل الشام في جهاد دائم إلى قيام الساعة. وهذا التوجيه النبوي يمكن ربطه بتوجيه نبوي آخر هو قوله ﷺ: «**فارس نطحة أو نطحتان ثم لا فارس بعد هذا والروم ذات القرون، كلما هلك قرن خلفه قرن أهل صبر، وأهله أهل لآخر الدهر. هم أصحابكم ما دام في العيش خير**»(١).. وفي حديث آخر رواه موسى بن علي عن أبيه قال: «قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ** فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو أَبْصِرْ مَا تَقُولُ قَالَ أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالاً أَرْبَعًا إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ»(٢). والناظر في هذا التوجيه النبوي يلاحظ أمرين: الأول، قوة الارتباط بين موقع بلاد الشام كرباط دائم

---

(١) كنز العمال، ج١٢، ص٣٠٣، حديث رقم ٣٥١٢٧، ومصنف ابن أبي شيبة، ج٤، ص٣٠٦، ومسند الحارث، ج٣، ص٧١٣.

(٢) صحيح مسلم، ج١٨، باب الفتن (القاهرة: المطبعة المصرية ومكتبتها، بلا تاريخ)، ص٢٢. مسلم، ج٤، ص٢٢٢٢، مسند أحمد، ج٤، ص٢٣٠، معجم الأوسط ــ الطبراني، ج٨، ص٣٩١. معجم الكبير ــ الطبراني، ج٢٠، ص٣١٠.

للمجاهدين إلى يوم القيامة، وبين استمرار المواجهة مع الغرب الذي يشير إليه الحديث بلفظ الروم. فالغرب هو التحدي الأكبر لدار الإسلام، وهو تحد عنيد مستمر كلما هلك جيل من الغرب خلفه جيل آخر ذوي صبر على متطلبات المواجهة وتكاليفها. والأمثلة لهذا العناد والصبر الغربيين أمام المد الإسلامي كثيرة ومتنوعة. ولقد تمثلت مظاهرها في الأندلس وصقلية وشرق أوربا، وفي الكرات والهجمات المتوالية على دار الإسلام عبر ثغور بلاد الشام ومصر والمغرب العربي، وفي معابر البحر الأحمر والمحيط الهندي.

أما الخطر الشرقي الذي كانت تمثله فارس فقد انهار بعد نطحة أو نطحتين: مواجهة في القادسية وأخرى في نهاوند ثم لا فارس بعد وإنما تحولت إلى منعطف جديد استمر إلى أيامنا الحاضرة. والشعوب التي تلي فارس من الصين ومنغوليا وغيرها لم تكن خطراً حقيقياً. والهجمات التي قامت بها جماعات المغول على العالم الإسلامي إنما كانت هجمات بدائية جذبتها روائح الخلافة الميتة والمجتمع الإسلامي الميت فقاموا بدور دابة الأرض التي أكلت منسأة سليمان المتوفي وأسقطت جثته على الأرض. أي أن هذه الدول الشرقية دخلت في الأسلام وتحولت من رقم ضده إلى رقم يقف إلى جانبه... ولكن السؤال الأهم الذي يشمل جميع الأرقام – الدول – عربيها وعجميها والمحسوبة في صف الإسلام الواحد كيف يمكن تحويلها إلى جهة اليمين لتصبح فعالة بدلاً من بقاءها أصفار على اليسار لا قيمة لها.

وثمة أمر آخر يشير إليه التوجيه النبوي وهو إيجابية النظر في تحدي الغرب رغم عناده واستمراره. فهم «لأصحابكم ما دام في العيش خير». ولعل العيش المقصود هنا أسلوب الحياة في المجتمع الإسلامي. فما دام هذا المجتمع يلتزم منهج الله في العيش وفي توفير أسباب المنعة فسوف يقدر الغربيون الخير في هذا المنهج ويسعون لمصاحبة أهله. أما حين ينتكس هذا المنهج في حياة المسلمين فسوف ينظر الغرب إليهم نظرة استخفاف ويعاملونهم بما يستحقون. وهذا يعني إن حسم المواجهة مع الغرب يجب أن تقوم على ركني الخير في الإستراتيجية الإسلامية. الركن الأول إعداد ما يستطاع من قوة ومن رباط الحاملات العسكرية حتى لا يستسهلوا مهاجمة دار الإسلام والركن الثاني هو حسن عرض الإسلام بالفكر والتطبيق وهو ما يتفق مع مستوى التفكير الغربي. الذي يتمتع بكثير من الخصائص الإيجابية في هذا الميدان.. وسواء كانت الإشارة في القسم الثاني من الحديث الثاني من الرسول ﷺ أو من عمرو ابن العاص فإنها تشير إلى أمر ثالث وهو أن العقل

الإسلامي هنا لا يبحث في الغرب عن السلبيات فحسب وإنما يرى الإيجابيات ويعترف لهم بها: فهم أحلم الناس في مواجهة المشكلات، وأسرعهم نهوضاً بعد النكسات، وأوشكهم كرة بعد هزيمة، وخيرهم في توفير الضمان الاجتماعي للمساكين والأيتام والضعفاء. ويتوج هذه الصفات الأربعة صفة خامسة جميلة وهي تمسكهم بالحرية والديمقراطية ومناعتهم ضد استبداد الملوك والرؤساء. وهذا منهج في النظر إلى الغرب يفيد في أوقات الحرب والسلم سواء. فهو يوجه المسلمين في أوقات الحرب أن يبصروا جانب القوة فيمن يواجهونهم فيتقونه، وأن يبصروا في زمن السلم مزايا الآخرين فلا يغمطونهم حقوقهم ويكسبون مودتهم[1].

في وقتنا الراهن تمكنت الولايات المتحدة والتي تسمي نفسها روما الجديدة وتحمل في شعارها نفس النسر التي كانت روما تحمله، وتطلق على منتسبي حكومتها نفس الألقاب التي كانت تطلقها روما على كبار وأمراء دولتها وهو (السيناتور)، بل وحتى مجلس الدولة الكبير (الكونغرس) يحمل من معاني تلك الحضارة الغابرة. نقول تمكنت هذه الدولة الحديثة من تشكيل تلك المقومات لصالحها، ولكنها غير قادرة على الحفاظ على تلك القيادة فتراها صعدت ووصلت للقمة واليوم هي ففي طور النزول كما يحدد ويحذر الكثير من مفكريها ومنظريها.

فعندما أرادت الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية القرن التاسع عشر من بناء دولة قوية ليست لها مثيل في بقية الدول، وذلك بعد انتهاء حرب الاستقلال من السيطرة البريطانية وبعدها الحروب الأهلية، بحثت في التاريخ البشري ودرسته جيداً فوجدت أن تاريخ المسلمين ودولتهم العظيمة كانت المثل الذي يحتذى به لبناء دولتهم الحلم، فسنت القوانين التي لا ينفذ منها على غرار ما فعله المسلمون الذين لم يتركوا أمراً في الشريعة والأحكام والمعاملات إلا وأثروا فيه إثراءً عظيماً، فوضعوا لكل شيء قانون سواء أكان ذلك الشيء أمراً من أمور الدين أو الحياة أو علماً من العلوم الوضعية تماماً كما جاء به القرآن والسنة الذي وضع لكل شيء قانون ولكل أمرٍ تصرف.

بل وإنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا حين استقطبوا كل علماء الدنيا ومن كافة

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص٣٠٧-٣٠٩، بتصرف.

الجنسيات ليبنوا بنائهم العلمي ودولتهم المتقدمة علمياً، وهو بالضبط ما نسخوه من المسلمين حينما بنى الخليفة العباسي المأمون دار الحكمة ببغداد واستقطب أكثر من خمسمائة عالم من شتى بقاع الدولة الإسلامية وفي كافة العلوم الطبيعية من فلك وكيمياء وهندسة ورياضية من رياضيات وحساب وجبر وعددية وطب ونبات وحيوان وغيرها، ثم حذا حذوه فيما بعد أمراء آخرون في الأندلس والقاهرة واستنبول.

إلا أن الفرق الجوهري بين الحالتين أن حضارة الإسلام وازنت بين الكفتين المادية والروحية، ولم تنتكس إلا عندما تركت كفة الروح والأخلاق تسقط. بينما أخذ هؤلاء القوم الكفة المادية فقط بناءً على ما يحملوه من اعتقاد منحرف، وظنوا أن رأسماليتهم وعولمتهم ستحميهم من قانون التأريخ وسنة الله في الأقوام الذين خلوا.

لقد ضرب القرآن الكريم مثلاً لأولي الألباب في آل فرعون والذين من قبلهم الذين كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم، وينطبق هذا المثل في واقعيته مع أهل حضارة الغرب في زماننا هذا. هؤلاء الذين أخذوا من حضارة الإسلام العظيمة كل شيء متقن عظيم إلا الأخلاق والشرف والقيم، أي أنهم استخدموا كفة الميزان المادية وأهملوا الكفة الأخرى، وهنا سيكون مقتلهم إن شاء الله تعالى وكما تنبأ الكثيرون من علماؤهم وفلاسفتهم، وهذه التنبؤات ليست بعيدة عن الصحة فهي سنة الله في عباده، حيث يقول الله تعالى في سورة (الأنفال): ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾، (الأنفال).

وهذه السنة إذا طبقت على أهل الحضارة الغربية الذين مكن الله لهم الأرض وسخر لهم قواها، وآتاهم من كل الثمرات وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ووسع لهم الأرزاق، فأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولكنهم خانوا أمانة القيادة والمسؤولية، وطغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فهم أهلٌ لأن يعمل الله فيهم سنته فيغير ما بهم ويسحب القيادة منهم وينقلها إلى غيرهم كما سحبت القيادة من القوة الثانية —الاتحاد السوفيتي- فجأةً لأن الخراب كان في باطنها لا في ظاهرها وفي معنوياتها قبل مادياتها. والغرب المنفرد الآن بالقوة والتأثير في الساحة العالمية ليس أحسن حالاً من نظيره السوفيتي رغم ما يبدو

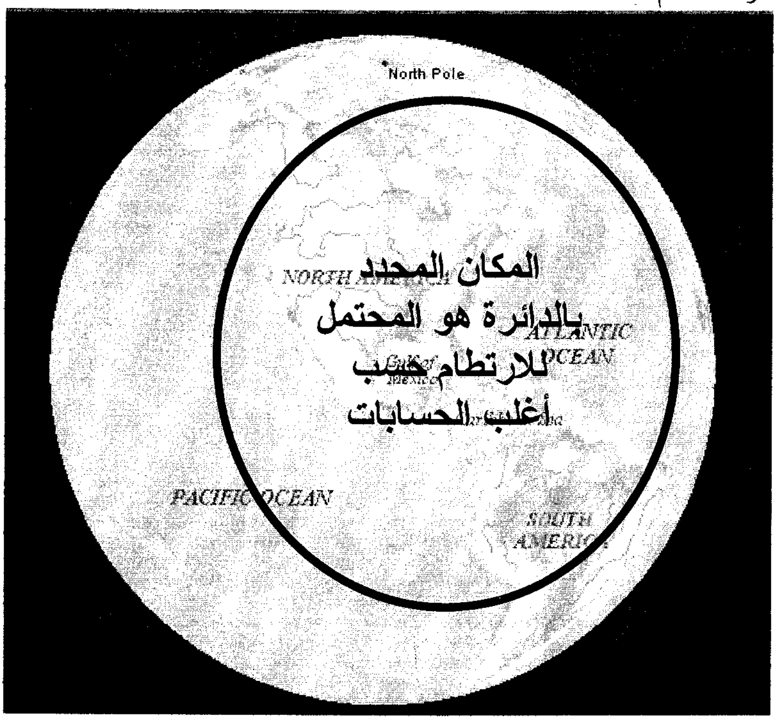
للبسطاء من الناس من هالته الإعلامية الكبيرة، وها هي بدايات الانهيار تبدو واضحة لكل ذي لب. على أن شراسة المقاومة والمكابرة والعناد الأجوف سيكون أطول وأكبر لعوامل عديدة. هذا الانهيار تراه موجوداً في كتاباتهم هم لا نحن، ولكنها لا يسمح لها أن تنتشر مخافة انهيار المعنويات المنهارة أصلاً. كبار كتابهم يعترف بأن حضارة الإسلام وفكره مستعصي عليهم رغم قرن كامل من السموم التي بثوها لنا، والحروب التي أشعلوها علينا، والتدمير الذي أحدثوه في دولنا، ورغم كيانهم المسخ الذي زرعوه في جسدنا وملئوه سماً زعافاً. فما كان منهم أخيراً إلا أن أعلنوها صراحة وبكل وقاحة ودون أغطية أن الإسلام هو الـــ (**مطلوب حياً أو ميتاً Most Wanted**)، وهجموا وضربوا ودمروا هنا وهناك وما زالوا وسيتمرون هكذا حتى يأذن الله بنصر دينه وعزة أمته، وما ذلك على الظالمين ببعيد.

فاعلموا أيها الأخوة أن أمريكا مهددة بفناء عظيم باعتراف كبار المفكرين والمحللين والمؤرخين وعلماء الاجتماع وكذلك علماء الفلك والجيولوجيا، وذلك من أوجه عدة:

١. أن كويكباً أو جزء من كويكب أو نيزكاً عملاقاً سيضرب الأرض يأتي من مجموعتنا الشمسية، وهو بحجم أكبر من ذاك الذي ضرب المريخ عام ١٩٩٨م وأحدث فيه أضرار هائلة، ويطلق على هذا النيزك العملاق عند أهل الفلك بـــ -نيزك ١٩٩٧- ، وحجمه الهائل هذا سيمكنه من إحداث انفجار يعدل مئات المرات أقوى من أقوى انفجار نووي تمكن منه البشر. وقد تم إجراء حسابات على مكان ودقة الضربة المتوقعة فجاءت قسم منها أن النيزك سيمر بجانب الأرض وعلى مسافة قريبة جداً، مما سيؤدي إلى ارتفاع أمواج البحار والمحيطات لتغطي القارات ومنها قارتي الأمريكيتين.. وجاءت حسابات أخرى لتؤكد أنه سيضرب الأرض مباشرة، وأغلب الحسابات لمكان الارتطام هو قارة أمريكا الشمالية وقسم من الجنوبية، وذلك في الأعوام بين ٢٠١٩-٢٠٢٨م، حتى أنهم يفكرون منذ الآن أن يضربوه بصاروخ نووي أو نيوتروني لتفجيره جواً قبل أن يصل الأرض، ولكن كثير من العلماء يحذرون من أن ضربه بهذا السلاح قد تكون ضرره أكثر من نفعه لصعوبة السيطرة على مسار النيزك ولحسابات علمية أخرى، والله أعلم.

٢. أن خط الجرف القاري للساحل الغربي من الولايات المتحدة ذي الخاصية الانزلاقية بين صفيحتي القارة الأمريكية والصفيحة الباسيفيكية، والذي تقع عليه كبريات المدن الأمريكية (لوس أنجلوس، سان فرانسيسكو، سان دييغو وغيرها) وهو ما موضح

في الأشكال أدناه – لاحظ الخط الذي يمر حول هذه المدن – سيحصل فيه انزلاق يؤدي إلى زلزال عظيم يفصل هذه المنطقة عن بقية صفيحة أمريكا الشمالية ويسكنها قاع المحيط. وهذا الزلزال متوقع بين عشية وضحاها كما يقول علماء الأرصاد الجيولوجية والزلزالية، والله أعلم.



المكان المتوقع سقوط الكويكب عليه هو الولايات المتحدة الأمريكية

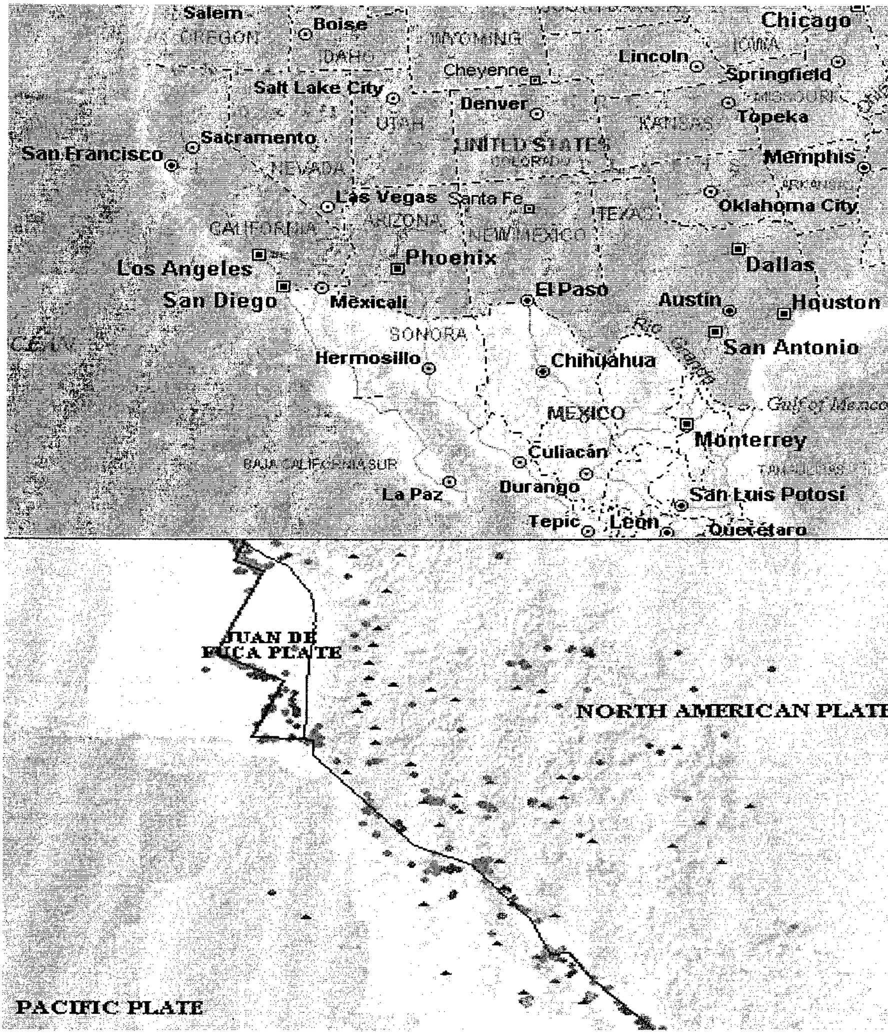
وسبحان ربك القائل:﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧ ﴾ (الملك).

وصدق رسوله ﷺ الذي قال في الحديث القدسي نقلاً عن ربه (**افعل ما شئت كما تدين تدان**)، وعقوبة ربك من صنف ما ظلموا به الأمم من ضرب بقنابل مرعبة مدمرة [(١)].

قد يقول البعض إن هذا من باب الأماني، وإن الولايات المتحدة لا يمكن لها أن

(١) لتفاصيل أكثر حول هذا الموضوع أحيل أخي القاريء الكريم لكتابنا (القوانين القرآنية للحضارات)، وكذلك كتاب الأستاذ الفاضل الدكتور سفر الحوالي (يوم الغضب، هل بدأ بانتفاضة رجب).

تنحسر بسهولة عن مسار الأحداث، فنقول وبالله التوفيق:إن الإلمام والفهم الصحيحين لمسيرة الأمم وتاريخ الحضارات البشرية يعتبران من أعظم الأسلحة اللازمة لاستنباط الدروس والعبر والعظات التي تمكن البشر من تصحيح مسارهم الحضاري إن أرادوا وصدقوا بذلك، ولكن مشكلة البشر أنهم لا يتعظون من دروس من سبقهم. اسمع لتحذيرات الله تعالى المتكررة في كتابه العزيز والموجهة لكل الناس وعلى مر العصور: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، (يوسف: من الآية١٠٩).. ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾، (الروم:٩).. ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾، (فاطر:٤٤).. ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ﴾، (غافر:٢١).. ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾، (غافر:٨٢).. ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾، (محمد:١٠).



الجرف القاري للساحل الغربي للولايات المتحدة الأمريكية المتوقع انفصاله وغرقه في المحيط إثر الانزلاق الهائل الذي سيحصل في الصفيحتين التكتونيتين لغرب أمريكا والمحيط الهادئ (لاحظ الخط في الرسم الثاني)

ولهول الأحداث التي تمر بها أمتنا اليوم والتي قد تضرب أمواجها في عين الكثيرين إذا ما نظروا إليها من موقعهم القريب، علينا أن نزيل أثر الغبار الناجم من هذا الاضطراب، لنعمل على جعل نظرنا ينتقل من البعد القريب للحدث المضطرب بفعله إلى البعد البعيد المسيطر على التماوج والتلاطم فنعرف كيف تسير الأحداث. فكما بينا في كتابنا الثالث

ضمن سلسلة ومضات (كتاب الفلك) أن هناك زمناً حصل فيه أن نيزكاً عملاقاً ضرب الأمريكيتين فحصل جراءه تدمير مرعب يعادل ١٠ بليون مرة قدر تدمير هيروشيما وانتهت الحياة على الأرض في هاتين القارتين، لذلك هذا الأمر أي احتمالية ضرب القارتين الأمريكيتين بالنيزك المرتقب واردة جداً بل واحتماليتها تكاد تكون شبه مؤكدة. أو كما حصل لأهل بركان فيزوف الذي حصل قبل حوالي ٢٠٠٠ عام على قوم في جنوب إيطاليا كانوا مفسدين فعاقبهم الله تعالى بأن حنطهم البركان وهم يمارسون الفاحشة كي يراهم من يأتي من بعدهم ليتعظ ويتدبر، أو كما حصل لقوم لوط كما بينا في كتاب الآثار.. أو كما حصل لأهل سبأ وحضارتهم العظيمة نتيجة لكارثة سد مأرب ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾، (سبأ).

أو ما اكتشف مؤخراً في جزيرة أوكيناوا اليابانية من وجود مدينة كملة تحت البحر بمعابدها وقصورها وبيوتها، وهي تعود كما قدر العلماء لما لا يقل عن ١٠٠٠٠ عام خلت أي ضعف زمن حضارات وادي الرافدين ووادي النيل... ومن الآثار التي اكتشفت يتبين أنه حضارة راقية جداً.. وقد عزى العلماء غرقها أما لكارثة طبيعية أو لصعود مستوى مياه البحر عند نهاية العصر الجليدي الأخير مما تسبب في غرقها.. يقول أحد العلماء الذين شاركوا في البحث: (أنها إشارات لنا نحن أهل حضارة التقنيات الحديثة تحذرنا من مغبة التمادي في الغرور الغي كي لا يحصل لنا مثل ما حصل لهؤلاء إذا لم ننتبه).. وسبحان ربك القائل ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾، (الأنعام: ١١).. ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾، (النمل: ٦٩).. ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾، (الروم: ٤٢).

ومن التاريخ نستشهد بحضارة كان لها الأثر المشابه للولايات المتحدة اليوم من حيث ما وصلت إليه من بذخ وترف وفساد وبطر، فلقد كان الفلاسفة الإغريق ومنهم أفلاطون وأرسطو يتحدثون عن حضارة عظيمة وصلت بتقدمها إلى أنها أصبحت مضرباً للأمثال حتى من قبل أناس هم أصلاً من حضارات راقية في زمنهم وهم الإغريق. هذه الحضارة

أطلق عليها اسم قارة أطلانطا أو حضارة أطلانطا أو الجزيرة المفقودة أطلانطا. كانت هذه الحضارة من التقدم والرقي والعمران والبذخ والإبهار ما صيغت وألفت عنه الحكايات والقصص في شتى الكتابات والكتب لحضارات العالم القديم. وقد ذكر الإغريق أنها امتد تأثيرها على كل حوض المتوسط، وكان لها تجارتها وعلومها وفنونها، ثم اختفت وفقدت لذلك سميت أيضاً بالحضارة المفقودة.

وحيث إن تلك الأوصاف والمواصفات لم يستطع الباحثون والمكتشفون من العثور على آثار تؤيدها فقد ساد الاعتقاد أنها كانت من ضروب الخيال والسرد القصصي، حتى جاء الاكتشاف المذهل لها مؤخراً في بحر إيجة وما حوله فشكل صدمة آثارية مدوية. لقد تم العثور وبالمصادفة المحضة على رسوم غاية في الدقة والروعة تمثل تدويناً رسمياً لحياة القوم تماماً كما وصفه الفلاسفة الإغريق، بذخ وترف ورقص ونساء متزينات وتجارة عامرة وبناء فخم، جنات وعيون وقصور ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين. وبعد فحص هذه الآثار وجدوا أنها كانت في نفس الفترة الزمنية التي تحدث عنها الإغريق في الألف الثاني قبل الميلاد.

ذكر الإغريق أنه حوالي عام ١٦٨٠ ق.م. حصل بركان عظيم استمرت حممه بالقذف لعدة أيام وعلت سحابة سوداء غطت السماء فحجبت الشمس حتى لم يعد يعرف الليل من النهار، وحصل زلزال شديد في الفترة أدى إلى انشقاق الأرض. هذه الأحداث تم العثور على أوصاف شبيهة لها في كتابات فرعونية، والعجيب وجدت كتابات صينية أيضاً ذكرت نفس مواصفات الأحداث المرعبة تلك تماماً كالسحابة السوداء وتغطية الشمس وغير ذلك رغم بعد المسافة بين المكانين كما هو معلوم.

الملاحظ أنه بعد هذه الفترة لم يعد هناك ذكر لحضارة أطلانطا في الكتابات القديمة.. وبعد تتبع المسألة تاريخياً وجيولوجياً وآثارياً وجد أن هذا العام فعلاً قد حصل فيه حدث أدى إلى حصول حفرة كبيرة نتيجة البركان والزلزال الهائلين تدفقت بسببها مياه المتوسط إليها لتغرق أراضي شاسعة ليصبح بحر إيجة الحالي بهذا الامتداد بعد أن كان لساناً بحرياً صغيراً من المتوسط، وكان من نتيجته القضاء على جزيرة أو حضارة أطلانطا فأصبحت أثراً بعد عين، ولتسمى مفقودة بعد أن كانت حاضرة[1].

---

(١) قدم هذه المعلومات الرائعة فريق بحثي علمي تتبع حضارة أطلانطا المفقودة ليعلن عن اكتشافها =

إن هذه الاستشهادات توضح بما لا يقبل مجالاً للشك بأن أمر الحضارات البشرية لا يدوم على حال واحد، وأن البذخ والترف والبطر والتكبر مآلها جميعاً للزوال بأمر الله تعالى أما بفعل بشري أو بفعل طبيعي أو بفعل مادي، فهل من معتبر؟!..

هذا من ناحية العمل الذي نرجو الله تعالى أن يشفي به صدور قوم مؤمنين ليري العالمين بأسه في القوم الظالمين، وهو العمل المستند للبعد البعيد الذي يجعل المسلم مطمئناً من كل الشواهد التي بينها الله تعالى في قصص من قبلنا في قرآنه وكونه... أما عملنا المستند للبعد القريب والذي يتطلب العمل بالأسباب والتحليل والمشورة، فإن ذلك له شواهد من نوع آخر:

١- من الناحية العقائدية فإن الله تعالى قد بشرنا بزوال ملكهم ونصرنا عليهم ولكن بالشروط التي بيناها في هذا الكتاب، ومختصرها العودة الحميدة لتطبيق الشريعة.

٢- من النواحي التنظيرية فإن كبار منظريهم وفلاسفتهم يحذرون من التمادي بهذا التحلل الخلقي الذي أصاب مجتمعهم وما سيؤدي إلى خراب اجتماعي واقتصادي، وما مظاهر رفض العولمة الأمريكية، والمقت العالمي للهيمنة الأمريكية، وإفلاس كبار الشركات الأمريكية، وتراجع مستوى الصرف بالدولار بالمقارنة مع بقية العملات الأخرى إلا دليل على ما يقول هؤلاء المنظرون وهو ما نشاركهم به.. كل ذلك أدى إلى تعاظم الهوس الأمريكي لاحتلال منابع النفط والسيطرة على مصادر الثروات العالمية لضمان مستقبلهم المنهار... فهذا بول كيندي واحد من كبار مؤرخيهم يذكر في كتابه (نشوء وتطور الامبراطوريات) بعد استعراضه لامبراطوريات التاريخ أن الولايات المتحدة أمامها ٥٠ عاماً كحد أقصى للبقاء في القمة، وكذلك ما ذكره الأستاذ ليستر ثارو (أستاذ الاقتصاد في جامعة إم. آي. تي) في كتابه الذي يحمل عنوان "مستقبل الرأسمالية" والنشور عام ١٩٩٦م... فأمريكا قد بلغت ذروة تقدمها المدني وتفوقها الحضاري على غيرها من الحضارات

=
قبل أعوام قليلة، وتم عرض هذا الاكتشاف على الفضائيات العلمية ومنها فضائية دبي الاقتصادية، أواخر عام ٢٠٠٣م.

الجاهلية. وأنها اليوم تواجه صعود العوامل الحضارية الإسلامية في جولتها الجديدة غافلة عن أنها تختلف اختلافاً جذرياً عن مواجهتها مع الآخرين، وستعود وحقائق النفس الإنسانية إلى العمل وتتكفل بتبديد الكبرياء والغطرسة الأمريكية. ذلك لأن ابن آدم يبقى محكوماً إلى بشريته، فيعطش عند وصول القمة، وتأخذه النشوة وتتملكه أحاسيس العجب فيفقد الاتزان، وهذه سنة الله في خلقه، ومن يقرأ التاريخ تتجسد أمامه هذه الحقيقة وهذا القانون بشكل جلي، والنخبة السياسية الأمريكية اليوم مرشحة جداً لأن تستولي عليها هذه السكرة الفطرية الملتصقة بكل مستنصر متفوق، وعن قريب سيكون القرار الأمريكي الخاطئ المتهور الذي يتسبب في نزول منحنى الخط البياني لهذه الحضارة التي سادت في هذا العصر، ثم يواصل النزول بفعل معارضة الأحرار في كل العالم، وتلك هي القصة القديمة الجديدة لصراع الحق مع الباطل والعدل مع الظلم والحرية مع الاستبداد، ولا يؤذن لجنرال يعيش في البنتاغون أن يعدو قدره[1]... وها هو بريجينيسكي يعترف بأن ما تفعله الولايات المتحدة يعمل على توحيد المسلمين أكثر، ويزيد الكراهية لدولته، وبالتالي فإن الولايات المتحدة تساهم، من حيث إنها لا تريد ذلك، بتقوية العالم الإسلامي وعودته لجذوره.

٣- ومن المهم الذكر بأن الفكرة الرئيسية الحديثة للغرب الأمريكي والتي ستلقيه في الهاوية، متمثلة بفكرة **الربح من جراء الحرب..** فالبغي الأمريكي بنزوته ونزعته، والمعتمد أصلاً على فكرة (اخلق عدوك بنفسك لتنتصر عليه وتربح المال)، تلك الفلسفة الرأسمالية المستندة إلى تخليق عدو (مفبرك) لتتجنب الانهيار من الداخل.. فهناك عوامل عدة تهدد مستقبل الولايات المتحدة كما يبينها الدكتور سامي السويلم:

- الانحلال الأخلاقي عامل مدمر للبنية الاجتماعية والعلاقات الأسرية،

---

(١) هذا الكلام الرائع في هذه النقطة تحديداً للأستاذ الفاضل والمفكر والمحلل الإسلامي الكبير الأستاذ محمد أحمد الراشد، في لقاء معه أجرته جريدة البصائر العراقية، العدد ١١، الثلاثاء ١٨/ شعبان ١٤٢٤ هـ - ١٤/ تشرين أول/ ٢٠٠٣م، الصفحة الأخيرة.

وهو يزداد كل يوم، وآثاره بعيدة المدى، مثل: تغير التركيبة السكانية و"كهولة المجتمع" صارت الآن حقيقة واقعة.

- وسوء توزيع الثروة تفاقم بصورة كبيرة، وازدادت الفجوة بين الأغنياء والفقراء خلال العقدين الماضيين بشكل مريع.
- أما الديونية: الحكومية والخاصة؛ فهي سرطان ينمو باطراد لا يعرف الكلل. وقد بلغت المديونية حدًّا يهدد مستقبل المجتمع الأمريكي لغياب موارد تكفي متطلبات جيل "الطفرة" عند تقاعده مع الوفاء بفوائد الديون القائمة.

لقد كانت هذه العوامل موجودة قبل سقوط الشيوعية، لكنها كانت تحت تأثير المهدئات التي سمح بها وجود عدو بارز تتوحد ضده فئات المجتمع المختلفة تحت مظلة الحكومة الاتحادية.. لكن بعد غياب هذا العدو، وزوال نشوة النصر،وجد الأمريكيون أنفسهم في مأزق.. كيف يمكنهم التغلب على هذه الأمراض المستعصية وعوامل الانهيار إذا لم يكن هناك تهديد من عدو خارجي؟ فكان لا بد للولايات المتحدة إذاً أن تبحث عن عدو، ولم يكن هناك أفضل من حوادث ١١ سبتمبر لإعلان العدو الجديد "الإرهاب" وحشد الجهود لمحاربته.

وهذا يعني أن حالة الاستعداء الأميركي ليست نزوة طارئة، وليست أمراً خاصاً بالمحافظين الجدد أو اليمين المسيحي كما يظن البعض. فها هم الديموقراطيون، ومنه مرشح الحزب جون كيري والاقتصادي المعروف بول كروجمان وغيرهم، يوجهون سهامهم نحو السعودية باعتبارها هي محضن الإرهاب وممولە الأول، وينتقدون إدارة بوش بأنها حاربت العدو الخطأ، وهو العراق، فليس خطأ الجمهوريين هو سياسة البغي والاستعداء، وإنما الخطأ في تعيين العدو، لا أكثر!.. والكل يبحث عن عدو لتبقى حالة الاستنفار. صحيح أن ميول الحزبين نحو المواجهة متفاوتة، وصحيح أن أولوياتهم مختلفة، لكن تظل عوامل النظام الداخلية تضغط بقوة باتجاه الاستعداء، مهما حاول الأشخاص تجنبها أو مقاومتها إن المشكلة في جوهرها أعمق من أن تكون خاصة بهذا الحزب أو بتلك الإدارة. فليست القضية إذاً مجرد نزوة، وليست مجرد مزايدة سياسية، بل هناك نزعة في النظام الرأسمالي نفسه للاستعداء هرباً من عوالم الفناء التي يحملها بين جنبيه. إن الرأسمالية لا تملك مقومات اتزان تتلافى سلبيات نظام السوق وتقوّم انحرافاته؛ فلا مفر إذا من البحث عن عدو لتحقيق التوازن المطلوب.

ولذلك لم يكن غريباً أن يكون ظهور "صدام الحضارات" بعد سقوط جدار برلين، ومن بين العوامل الست التي ذكرها هنتنجتون للصدام لم يذكر أحد أهم الأسباب وهو الانهيار من الداخل، والحقيقة أن نزعة الاستعداء التي تقف وراء صدام الحضارات ليست خاصة بالرأسمالية، بل كل حضارة أو نظام بشري فهو معرض للانهيار من الداخل، ما لم يجد الفرصة والقدرة لمواجهة عدو خارجي يؤخر الانهيار. والنظام الأكثر عرضة للانهيار هو الأكثر ميلاً للاستعداء.. والنظام الوحيد الذي لا يعاني من هذه النزعة هو الإسلام؛ فهو لا يعاني من عوامل انهيار داخلية لأنه دين الفطرة، وهو النظام الكامل الذي يحقق التوازن الذاتي للنفس البشرية وللمجتمعات الإنسانية، فليس للحضارة الإسلامية نزعة استعداء؛ بل —على العكس- إنها تميل دائماً لاستيعاب الشعوب الأخرى واحتوائها تلقائيًّا. ونظراً لأن الحضارة الإسلامية هي الحضارة التي تصمد أمام عوامل الانهيار المختلفة التي تعاني منها الحضارات الأخرى، كانت دائماً مستهدفة عندما تجد الحضارات المنافسة القدرة على ذلك.

وبالرغم من أن الميل للاستعداء لا يختص بالرأسمالية؛ فإن الحضارة الغربية خصوصاً تجنح أكثر من غيرها للصدام والمواجهة. وهذا ما جعل إدوارد دي بونو (أحد أشهر المختصين بدراسة التفكير وأساليب الإدراك الغربيين) يرى أن الحضارة الغربية في فلسفتها وفي ممارستها العلمية لا تنفك عن نظام المواجهة، (clash system) سواء في الجوانب السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية، وهو يعزو هذا النظام إلى الفكر اليوناني الذي ورثته أوروبا من جهة، وإلى الكنيسة من جهة أخرى... ولكن هل تنجح الحرب الجديدة؟. حقيقة الأمر أن هذه الحرب الجديدة جعلت الوضع أسوأ مما هو عليه لو لم يوجد هذا العدو، وصارت عوامل الانهيار الآن أكثر حدة من ذي قبل.. فالشيوعية كانت عدوًّا خارجيًّا يسهل على الجميع تشخيصه وتحديده والانتظام في مقاومته؛ أما "الإرهاب" فهو عدو ولد في عقر الدار الأمريكية وعلى التراب الأمريكي، فالحرب على الإرهاب تهدد تماسك المجتمع الأمريكي وبقاءه أكثر من ذي قبل لأمرين:

١. إن "العدو" قد نجح في اختراق المجتمع وتهديده من الداخل، وهذا يهدد وحدة المجتمع؛ فبدلاً من أن تسهم الحرب الجديدة في تماسك النسيج الاجتماعي أصبحت سبباً لتمزقه وتشرذمه.

٢. غياب عنصر الأمن وشيوع الرعب يجعل قدرة المجتمع على المواجهة

أضعف بكثير مما لو لم يوجد هذا العدو. فبدلاً من أن تسهم الحرب في إذكاء روح التحدي والإصرار والثقة، صارت سبباً للقلق والخوف والاضطراب.

أضف إلى ذلك أن الولايات المتحدة أقامت مجدها بفضل العقول المهاجرة التي فرت من البطش والاستبداد إلى بلاد "الحرية" و"الفرص" و"الثراء". لكن في ظل "الحرب على الإرهاب" الحالية تخسر الولايات المتحدة كل يوم مزيداً من العقول والطاقات التي كان يمكن أن تغذي نموها لأجيال قادمة. كما أن الاقتصاد الأمريكي، وهو أكبر من اقتصاد مدين في العالم، بل وفي التاريخ لا يمكنه الاستمرار إلا بدعم رؤوس الأموال الأجنبية؛ لكن "الحرب على الإرهاب" جعلت الاقتصاد الأمريكي بيئة غير آمنة للاستثمار، ولذلك انخفض تدفق رؤوس الأموال الأجنبية إلى الولايات المتحدة في ٢٠٠٢م بنسبة ٨٠٪ مما كان عليه في ٢٠٠١م، وبالرغم من تحسن النسبة في ٢٠٠٣م؛ فلا يزال مستوى تدفق الاستثمار الأجنبي أقل مما كان عليه في ٢٠٠١م بنسبة ٥٠٪. كما فقد الدولار من أواخر عام ٢٠٠١م حتى الآن أكثر من ٢٣٪ من قيمته.. معظم المؤشرات تؤكد أن هذه الحرب تضر الولايات المتحدة نفسها اكثر مما تنفعها؛ لكن منطق الكبر والاستعلاء يحجب الرؤية ويشل التفكير العقلاني: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾، (الأعراف: ١٤٦).

٢- قانون بني إسرائيل

لم يرد ذكر لأمة من الأمم في القرآن الكريم أكثر ما ذكر في بني إسرائيل، فيكفي أن نقول أن تكرار هذا المصطلح (بني إسرائيل) جاء ٣٣ مرة، وكلمة إسرائيل جاءت مكررة ٤٢ مرة. وقد تحدث الكتاب العزيز عن كل أحوال هؤلاء القوم وصفاتهم، وفصل في تبيان أساليب مكرهم وكذبهم ومحاربتهم للفضيلة والخلق ممثلة بقتلهم الأنبياء والمصلحين ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ

فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾، (البقرة:٨٧).. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾، (البقرة:٩١).. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾، (آل عمران:٢١).

وبعدما يروي لنا القرآن الكريم قصة بني إسرائيل وكيف كفروا بنعمة الله تعالى وذلك من خلال آيات عدة، يقرر أن هؤلاء القوم سيفسدون ولكنهم سيعاقبون من أقوام آخرين، كما أن من خصائصهم العداوة والبغضاء رغم أن الناظر لهم يعتقد أنهم متوحدون.

هذا التحليل نجده واضحاً وشاخصاً أمامنا في الآيات المباركات التالية، إذ يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾، (البقرة:٩٣).. ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾، (البقرة:٩٦)... ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾، (البقرة:١٠٠).

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾، (الأعراف:١٦٧).. ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾، (المائدة:٦٤).. ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ

جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾، (الحشر: ١٤).

فنستخلص من هذه الآيات بمجموعها عدة نقاط تخص خصائص القوم، منها:

١. أنهم يكرهون الفضيلة والخلق والخير وكل ما يشتق منها ويؤدي إليها.

٢. الحقد متأصل في تركيبتهم النفسية المعقدة المبنية على النظر للناس نظرة استعلاء وتكبر، فتراهم لا يتورعون عن فعل البشاعة والقتل لجميع البشر.

٣. أنهم ليسوا متوحدين حقيقة كما يبدو للبعض.

٤. أنهم كلما أرادوا تدمير الدين بحرب أو بفتنة سيفشلون لأن الله تعالى حافظ لدينه.

٥. أنهم متفرقون ويبغض بعضهم بعضاً لحسد أو لغيره من أمراض القلوب رغم محاولة الكثيرين تجميل صورتهم بعكس ذلك.

٦. أنهم جبناء غادرون لا عهد ولا كلمة لهم.

٧. لا يقاتلون مواجهة إنما بأساليب أخرى لحبهم للحياة لأنهم أحبوا المال والدنيا وزينتها منذ حادثة العجل.

٨. أنهم سيعاقبون خلال مسيرة حياة أمتهم من قبل أقوام آخرين.. وهذه النقطة بالذات سنتوقف عندها كثيراً.

كل تلك التحليلات القرآنية أثبتتها أحداث التاريخ، كيف لا وهي من لدن حكيم عليم. فمواصفات الشخصية الإسرائيلية نجدها اليوم أمامنا شاخصة لكل ذي لب رغم محاولات التجميل التي يحلو للبعض أن يجمّل صورتهم بها، كما وأن حالة الجبن وحب الحياة والإفساد كلها من سماتهم الجلية. هذا فضلاً عن أنهم عجزوا رغم استقتالهم لمحو دين الإسلام بالفتن تارة وبالحروب تارة. ولكن ما يهمنا هو النقطة الأخيرة، وهي أنهم استهدفوا بالإزالة والتشريد والعذاب من قبل كل أقوام الدنيا.

نعم إن هذه الحقيقة لا يعلمها الكثيرون من بسطاء الناس. فهؤلاء القوم ذبحوا ذبح الشاة وقتّلوا وشرّدوا وعذّبوا من قبل الفرنسيين والإنجليز والألمان والأمريكان خلال فترات تاريخية مختلفة، ولكم أن تعودوا لكتب تاريخية عديدة ألفت لتبيان هذه الحقائق، فها هو جورج واشنطن يحذر الأمة الأمريكية من هذه الحشرات —وهي كنية أطلقها

عليهم-، وها هم ملوك فرنسا وبريطانيا يقيمون المذابح لهم، وها هو هتلر يذبحهم ويسلخ جلودهم.

نحن طبعاً لا نقر بهذه الوحشية، ولكن تلك الحقائق التاريخية تبين أنهم قد آذوا المجتمعات التي سكنوا فيها مما دفعهم إلى الانتقام منهم شر انتقام إما بقتل أو تشريد أو تعذيب أو سلب ونهب أو غيره. وقصة تاجر البندقية لشكسبير خير دليل يبين الصورة القبيحة التي يتمتع بها اليهودي في أذهان أهل أوربا إبان العصور الوسطى وما بعدها حتى فترة السيطرة اليهودية على الأموال والثروات العالمية والتي تغير الحال من بعدها لصالحهم كما هو واضح اليوم. ولكن الأذى لم يقتصر على المال والمادة بل تعداه إلى إزهاق الأرواح وقتل الأطفال كما فعل اليهود من سكنة الدول الإسكندنافية وكذلك في إيطاليا في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، هذا فضلاً عن الفساد الخلقي الذي يتمتع به الأكثرية الساحقة منهم، مما تسبب في هيجان الناس وتعمدهم قتل اليهود وذبحهم وتشريدهم[(١)].

النقطة المهمة هنا أن كل تلك الآيات تتحدث عن حالات عامة لهم عبر التاريخ، وليس عمل يتميز بأنه عمل لدولة أو أمة أو حضارة، بل أن هذه الآيات تبين تشرذمهم في البلاد. ولكن هل من دولة يكونوها أو أمة وحكومة ومؤسسات تحكم؟!، بمعنى هل أن لهم في التاريخ من شأن يذكر أو علو لدولة ما ولحضارة ما؟!. هذا ما يخبرنا عنه القرآن الكريم بالتفصيل في سورة الإسراء.

يقول الله تعالى في سورة الإسراء بعد الحديث عن رحلة الإسراء المباركة التي انتقل خلالها رسول الله ﷺ من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس وصلى بالأنبياء عليهم السلام إماماً: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ

(١) للمزيد من التفاصيل للقارئ الكريم أن يعود لمراجع مهمة في هذا الشأن، كما أن للأستاذ الفاضل خالد طبانة المفكر والباحث الإسلامي محاضرات رائعة في هذا المضمار المهم، فهو من كبار المتخصصين بل هو فارس لا يبارى في هذا المضمار، إذ قضى جل حياته في متابعة الأمر.

لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا ﴿٧﴾ عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴿٨﴾ ﴾.. ثم يقول في نهاية السورة المباركة: ﴿ وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴿١٠٤﴾ ﴾، (الإسراء:١٠٤).

هنا نركز على أن القرآن الكريم قد ثبّت ثلاث شروط لا بد منها لفهم زمان ومكان تطبيق ما أخبرت عنه الآيات المباركات. أولهما أن هناك وعدين لعلوين وصفا بأنهما كبيرين أي لا مثيل لهما عبر التاريخ وهو ما يدل على إقامة دولة وحضارة وليس الأمر متعلقاً بمجموعة بشرية هنا أو هناك، والثاني أن هناك فساداً خلال هذين العلوين، والثالث أنهما في الأرض أي أرض فلسطين وهو ما يفهم من سياق الآيات الكريمات. إذا اختل أحد هذه الشروط، فلا تنطبق المعادلة ولا ينطبق القانون.. التفاصيل أدناه توضح ذلك.

ذكر بعض المفسرين أن الوعدين الإلهيين بعلو بني إسرائيل قد حصلت ودليلهم قوله تعالى ﴿.. وإن عدتم عدنا..﴾، قسم منه عز وجل قال أنهما حصلا في زمان بعيد في عهد ملك بابلي وآخر فارسي، ومنهم من قال أن الوعد الأول حصل قديماً والثاني حصل في عهد النبي ﷺ.. لكن عدد غير قليل ذكر أن الأول قد حصل في عهد بابل والثاني لم يحصل بدليل وصف الله تعالى له بأنه ﴿.. وكان وعدا مفعولا ﴾، بينما لم يصف الثاني بذلك.

إذا ما عدنا إلى التأريخ نجد حقيقة مفادها أن دولة بني إسرائيل لم تصبح ذات هيبة كبيرة بين أمم الأرض إلا في عهد النبيين الملكين داود وابنه سليمان عليهما السلام، وبعد وفاة سليمان عليه السلام سنة ٩٧٥ ق.م. خلفه ابنه (رحيعام) وبدأ الهزال في دولة بني إسرائيل نتيجة البعد عن طاعة الله ومقارفة الذنوب حتى اضطربت أجزاء المملكة ودب النزاع بداخلها مما أدى إلى انقسامها إلى قسمين:

١. القسم الشمالي ويسمى مملكة (إسرائيل) أو مملكة الشمال، ويضم الأسباط العشرة لبني إسرائيل وعاصمتها السامرة.

٢. القسم الجنوبي ويسمى مملكة (يهوذا) أو مملكة الجنوب، ويضم سبطي (يهوذا وبنيامين) وعاصمتها أورشليم.

وقد شهدت حياة كلتي المملكتين انحرافات نحو الوثنية وأصبح بيت الرب (الهيكل) مسرحاً للأصنام وإقامة الطقوس الوثنية ومظاهر الشرك وتعدد الآلهة.. واستمر الحال عليه داخل المملكتين حتى تعرضتا إلى غزوين متتاليين، كان الأول لمملكة الشمال على يد ملك من أهل العراق وهو الملك الآشوري (سرجون الثاني)، والآخر لمملكة يهوذا على يد ملك عراقي آخر هو الملك البابلي (نبوخذنصر) وقيل (نبوبلاصر) الذي قام بتدمير مدينة أورشليم وأحرق وسلب الهيكل ونقل أهلها وسباهم وقادهم إلى بابل مكبلين.. وتجد في توراتهم عبارات مؤسفة كان يرددها النبي (آرميا) أيام السبي البابلي يعتبر دليلاً قاطعاً على فساد القوم وابتعادهم عن ربهم وتشبثهم بدعاوى جاهلية وثنية أدت إلى نهايتهم المفجعة تلك [١].

نقرأ هذه الأسطر من موسوعة اليهود واليهودية عن الملك البابلي الذي سبا اليهود:

نبوختنصر (٦٠٥-٥٦٢ ق.م)، (Nebuchadnezzar): مؤسس الإمبراطورية الكلدانية (البابلية الجديدة) وأعظم ملوك الكلدانيين. أسقط الإمبراطورية الآشورية بمساعدة الحوريين (مملكة ميتاني)، وهزم القوات المصرية في معركة قرقميش عام ٦٠٥ ق.م. وقاد نبوختنصر حملتين ضد المملكة الجنوبية: الأولى في عام ٥٩٧ ق.م لإخماد التمرد فيها، فأحل صدقيا محل يهوياكين، ونفى ثمانية آلاف يهودي من الأرستقراطيين. وبعد بضع سنين، عندما أعاد العبرانيون الكرَّة بإيعاز من مصر، قاد نبوختنصر حملة أخرى عام ٥٨٦ ق.م. ورغم أن المصريين أرسلوا المساعدات للعبرانيين، فقد أسقط القدس ودمَّر الهيكل وأسر عدداً من اليهود ساقهم إلى بابل، وعيَّن جداليا حاكماً لفلسطين.. وقد كان نبوختنصر من كبار البناة، فهو الذي زيَّن بابل بالحدائق المعلقـــة [٢].

كذلك كان لهذا الملك شأناً كبيراً في عقائد أهل الكتاب، فالمتتبع لشؤون عقائد هؤلاء القوم يجد مسألة غاية في الأهمية، وقد نقلت دون تحريف على أغلب الظن لأن

---

(١) الحقيقة التاريخية لعلاقة يهود الخزر والدونمة ببني إسرائيل، رشدي محمود العاني، ص٣٢-٣٣، بتصرف.

(٢) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، (د. عبد الوهاب المسيري)، مجلد٤/ ج١/ باب٤، مدخل.. وانظر كتباً أخرى مهمة في- هذا الموضوع مثل (موسوعة العرب واليهود في التارخ)، للعلامة الدكتور أحمد سوسة (يهودي عراقي أسلم وفضح كذب اليهود في مؤلفاته فحورب وأهدرت إسرائيل دمه).

الأحداث أثبتت صحتها، وهي دليل نبوة سيدنا محمد ﷺ وانتصار دينه وغلبة أمته على الأمم، لكنهم حرفوا تفسيرها بما يلائم معتقداتهم المنحرفة، ألا وهي ما يعرف بنبوءة النبي دانيال العظمى، وسأنقلها كما جاءت في كتاب الأستاذ الدكتور سفر الحوالي (يوم الغضب "هل بدأ بانتفاضة رجب")، والذي نقلها بدوره من نصوصهم..

«فقد رأى الملك نبوخذ نصر (أو بختنصر) رؤيا أزعجته استدعى السحرة والعرافين لبيانها وتأويلها فعجزوا كلهم، ولكن دانيال تضرع إلى الله تعالى فألهمه الرؤيا وتفسيرها. ولما دخل على الملك قال له: (السر الذي طلبه الملك لا تقدر الحكماء ولا السحرة ولا المجوس ولا المنجمون أن يبينوه للملك، لكن يوجد إله في السماوات كاشف الأسرار وقد عرّف الإله الملك ما يكون في الأيام الأخيرة).. فقال له الملك أفصح يا هذا، فشرح ذلك قائلاً:

(أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم، هذا التمثال العظيم جداً قبالتك ومنظره هائل.. رأس هذا التمثال من ذهب جيد، صدره وذراعاه من فضة، وأما بطنه وفخذاه من نحاس، وساقاه من حديد، بينما قدماه بعضها من حديد وبعضها من خزف. كنت تنظر إلى قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما. فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً وصارت كعصافة البيدر في الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان. أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراً وملأ الأرض كلها.. هذا هو الحلم، فنخبر بتعبيره قدام الملك: أنت أيها الملك ملك الملوك لأن إله السماوات أعطاك مملكة واقتداراً وسلطاناً وفخراً، وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلطك عليها جميعاً، فأنت هذا الرأس من ذهب. وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلط على كل الأرض. ثم تكون مملكة رابعة صلبة كالحديد لأن الحديد يدك ويسحق كل شيء وكالحديد الذي يكسر تسحق وتكسر كل هؤلاء. وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة ويكون فيها قوة الحديد من حيث أنك رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين. وأصابع القدمين بعضها من حديد والبعض من خزف، فبعض المملكة يكون قوياً والبعض قصماً. وبما رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما أن الحديد لا يختلط بالخزف. وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السماوات مملكة لن تنقرض أبداً وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفني كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد.

لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا بيدين فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب.. الله العظيم قد عرّف الملك ما سيأتي بعد هذا. الحلم حق وتعبيره يقين.. حينئذ خر نبوخذ نصر على وجهه وسجد لدانيال وأمر بأن يقدموا له تقدمة وروائح سرور.. فأجاب الملك دانيال وقال: حقاً إن إلهكم إله الآلهة ورب الملوك وكاشف الأسرار إذ استطعت على كسف هذا السر).

هذه هي نص الرؤيا التي توصف دائماً بأنها أصدق وأشهر الرؤى الكتابية التاريخية، وتأويلها لا يحتاج إلى ذكاء، ولا يصح فيه الخلاف لأن النبي نفسه قد أوّلها، ولكن أهل الكتاب تعمدوا التلبيس وافتعلوا الاختلاف حسداً من عند أنفسهم بعدما تبين لهم الحق، فقد أقروا بهذه الرؤيا وتأويلها قروناً دون أن يدخلهم ريب في أنها على ظاهرها، وأن المملكة الأولى (الرأس الذهبي) هي مملكة بابل، وأن المملكة الثانية (الصدر الفضي) هي مملكة فارس التي قامت بعد بابل وسيطرت على العراق وبلاد الشام ومصر، وأن المملكة الثالثة (الفخذ من النحاس) هي مملكة اليونان الذيم اجتاحوا مملكة فارس بقيادة الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ق.م.، وأن المملكة الرابعة (الرجلين من حديد ثم حديد وخزف) هي الامبراطورية الرومانية التي انقسمت إلى شرقية وعاصمتها (القسطنطينية) وغربية عاصمتها (روما).

لم يكن أحد من أهل الكتاب يشك في هذا إطلاقاً، بل كانوا جميعاً لشدة إيمانهم به ينتظرون المملكة الخامسة (مملكة الله) التي تدمر ممالك الشرك والكفر والظلم لا سيما المملكة الرابعة التي اضطهدتهم وأذاقت اليهود بالذات الذل والهوان ودمرت القدس سنة ٧٠ ميلادية، ونصبت الأصنام في المسجد كما اشتهر عدد من أباطرتها بتعذيب النصارى بألوان من البشاعة والفظاعة قل نظيرها في التاريخ، وظلوا كذلك طيلة ثلاثة قرون حتى دخل قسطنطين النصرانية المحرفة، واستمر الاضطهاد لليهود والموحدين من النصارى وسائر الفرق الأخرى..

وفي ذلك الجو القاتم من الاضطهاد كان أهل الكتاب ينتظرون المملكة الخامسة بفارغ الصبر، وكانوا يعلمون يقيناً أنها ستقوم على يد نبي آخر الزمان المسمى عندهم (أركون السلام) الذي على كتفه خاتم النبوة، والذي بشر به الأنبياء كلهم حتى أن المهتدين من علماءهم جمعوا من سفر أشعياء وحده ٣٠ بشرى به، وكانوا يعرفون زمن بعثته بكثير من الدلائل النصية والعلامات الكونية، ويترقبون تلك الدلائل والعلامات حتى جاء اليوم الذي قال فيه الامبراطور المتعبد العالم بدينهم (هرقل): (قد ظهر ملك أمة الختان) وأيقن

بذلك وشهد وهو زعيم الكفر الكتابي لزعيم الكفر الأمي أبو سفيان (بأن ملكه سيبلغ موضع قدمي)، كما ثبت في الحديث الصحيح المشهور.

وفعلاً قامت المملكة الربانية الخامسة وملكت موضع قدمي هرقل وغادر الشام وهو يقول (سلام عليك يا سورية، سلام لا لقاء بعده)!!.. قامت هذه المملكة فسحقت ممالك الوثنيين وسيطرت على معظم المعمورة بالعدل والسلام وكانت مساحتها تزيد على مساحة القمر، ودخل تحت لواءها من كل شعوب الأرض طائف عظيمة، وهنا فقط تفرق أهل الكتاب واختلفوا ، فمنهم من اهتدى وهم قلة، وأكثرهم كفر بالحق لما جاءه «ظلماً وعلواً» [(١)]...

بعد هذه التفاصيل وكما يبين الجدول اللاحق أن العلو الأول ومعه الإفساد في أرض الحدث (فلسطين) قد حدث فعلاً، كانت بدايته علواً محموداً في عهد النبيين داود وسليمان عليهما السلام، ثم حصل التشرذم والإفساد الكبير بل وصل بهم الأمر إلى التلاعب والتحريف بشرع الله فشاع الظلم وكثرت المظالم بين العباد، خلال هذا الوقت سلّط الله تعالى عليهم قوماً وثنيين أشداء هم أهل بابل وتحديداً وقت الملك نبوخذ نصر.. بينما بقية الحالات أما أنهم كانوا في فلسطين ولكن دولتهم لم تشكل علواً، أو لم يكونوا متجمعين في أرض فلسطين أصلاً حين إفسادهم بل كانوا متشرذمين مشتتين كما حصل في عهد النبي ﷺ عندما كانوا بشكل مجموعات صغيرة في بلاد الحجاز والجزيرة...

الجدول أدناه يبين مراحل الممالك الخمسة التي هي من صلب عقيدة أهل الكتاب والمبنية على تفسير النبي دانيال لرؤية الملك البابلي نبوخذ نصر والتي تبين العلو الأول الذي حصل بالتحديد:

(١) يوم الغضب "هل بدأ بانتفاضة رجب"، د. سفر الحوالي، ص ٥٤-٥٨، بتصرف.

جدول يوضح الممالك الخمسة الواردة في نبوءة دانيال عليه السلام التي عبرت عنها رؤيا نبوخذ نصر[١] وحالة العلو والإفساد والتدمير لليهود

الدولة أو المملكة	أهم ملوكها	موقعها من الرؤيا
الدولة الإسلامية التي حكمت بكتاب الله (التوراة) في أرض فلسطين **العلو الأول في أرض فلسطين**	داود عليه السلام (١٠١٣-٩٧٣)ق.م. سليمان عليه السلام (٩٧٣-٩٣٣)ق.م. كان علواً محموداً في عصر النبيين الكريمين، ثم انقسمت مملكة بني إسرائيل إلى مملكة يهوذا وإسرائيل وبدأ الإفساد.	قبل دانيال عليه السلام
مملكة الآشوريين بأرض العراق وسوريا	الملك سرجون الثاني (٧٧٢-٧٠٥) ق.م. (أخضع الأراضي المقدسة لحكم الآشوريين).	قبل دانيال عليه السلام
مملكة بابل بأرض العراق	نبوخذ نصر أو بختنصر (٦٣٠-٥٦٢) ق.م. دمر القدس وأخذ اليهود أسرى إلى بابل **وقضى على العلو الأول**.. وقد عاصره دانيال وعبر رؤياه المشهورة.	المملكة الأولى (الرأس الذهبي)
مملكة الفرس بأرض فارس	قورش (٥٥٠-٥٢٩) ق.م. الذي قضى على بابل	المملكة الثانية (الصدر الفضي)
مملكة اليونان ببلاد اليونان	الاسكندر الكبير الثالث (٣٣٦-٣٢٣) ق.م. استولى على الأراضي المقدسة عام(٣٣٣) ق.م.. **لم يكن هناك علو لبني إسرائيل.**	المملكة الثالثة (الفخذ النحاسي)

---

(١) يوم الغضب "هل بدأ بانتفاضة رجب"، د. سفر الحوالي، ص ٥٧، بتصرف.. وانظر المصدر الرئيسي (دائرة المعارف العالمية ومنها (موسوعة كولومبيا)، موسوعة بارون، الموسوعة العربية الميسرة).

مملكة الروم في روما ثم روما والقسطنطينية	١- الامبراطور أوغسطين مؤسس النظام الامبراطوري الذي ولد المسيح عليه السلام في أيامه.. **وقد كانت هناك دولة لبني إسرائيل في هذا العصر ولكن دون علو بل كانوا مذلولين.** ٢- دقليديانوس (٢٤٨-٣٠٥)م الذي قسم الامبراطورية دولتين شرقية بالقسطنطينية، وغربية بروما لكل منها قيصر مستقل. ٣- قسطنطين الأول مؤسس القسطنطينية ومعتنق النصرانية (توفي عام ٣٢٧)م. ٤-هرقل وقد حكم عام ٦١٠ م وفتح المسلمون الأراضي المقدسة في عهده وودعها إلى الأبد.	المملكة الرابعة (الساقان الحديديان والأقدام من خزف وحديد)
الدولة الإسلامية التي فتح الله تعالى الأمصار على يديها وحكمت العالم القديم بأسره بالقرآن	رسول الله محمد ﷺ سيد الأولين والآخرين، وأشهر ملوكها -الخلفاء الراشدون- والبقية أكثر من أن يذكروا.	المملكة الخامسة (مملكة الله)

وعلى أساس الجدول أعلاه وما بيناه من تفاصيل لم يعرف التاريخ صعوداً لبني إسرائيل وعلواً كبيراً فتحت فيه الأمصار وسيطرت خلاله على دول أخرى عديدة إلا في فترة النبي الملك داود وابنه سليمان عليهما السلام، ثم تبعه فساداً وإفساداً في أرض فلسطين أدى بالنهاية إلى تدمير مملكتهم وديارهم تدميراً كاملاً التي لم تدمر إلا في وقت الملك نبوخذنصر، ومن قبله كان تدمير الملك الآشوري سرجون لهذه الأراضي جزئياً وقد حكمها ردحاً من الزمن ولم يقض عليها.. وأما دخول كل من الاسكندر القدس عام ٣٣٣ ق.م. وتدمير الرومان للقدس عام ٧٠ م، فلم يكن خلال هذين الحدثين علو وشأن كبيرين لدولة اليهود بين دول العالم القديم... وهنا تجدر ملاحظة أن كل المفسرين للآيات المذكورة من سورة الإسراء والتي تسمى أيضاً سورة إسرائيل أجمعوا أن الأولى

كانت من فعل الملك البابلي، ولكن الاختلاف كان في الثانية.

معلوم أن التفسير مر بعدة مراحل وله عدة مدارس، منها مدرسة التفسير بالمأثور عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين، ومدرسة التفسير باللغة وعلومها وفنونها، ومدرسة التفسير بالرأي المحمود المستند للحقائق العلمية والتاريخية ومنها ما يعرف بالتفسير الموضوعي(١).

يعتبر سيدنا ابن عباس من أهم مصادر المدرسة الأولى لأنه حبر الأمة كما وصفه رسول الله ﷺ فهو خير من نقل عن المصطفى ﷺ.. يذكر رضي الله عنه في تفسير القوم الذين قاموا بالمهمة الأولى أي سبي بني إسرائيل بأنهم قوم من أهل العراق، وأن الثانية معطوفة على الأولى فالقوم نفس القوم في الأولى والثانية التي ستحصل في المستقبل.

أصحاب المدرسة الثانية انقسموا بين مقر بحصول الحالة الأولى فقط بينما الثانية لم تحصل بعد، وبين من قال أن الحالتين حصلتا وانتهى الأمر إلا إذا عادوا إلى فعلتهم فسيسلط الله تعالى عليهم من يخزيهم ويذلهم مرة أخرى واستندوا إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾، (الأعراف:١٦٧).

أصحاب المدرسة الثالثة اعتمد معظمهم على الحقائق التاريخية التي ذكرناها فتوصلوا مستندين أيضاً إلى أحاديث المصطفى ﷺ إلى أن الوعد الثاني لم يتحقق بعد... لنحاول أن نتدبر النص القرآني:

١- ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾.. أي كتبنا عليهم أنهم سيكون لهم علواً عظيماً وملكاً كبيراً فيفسدون ويقتلون ويدمرون، وكلمة (الأرض) في الآية هي أرض فلسطين لأن الآية تبعت آية الإسراء التي تحدثت عن المسجد الأقصى المبارك، وهذه من أساليب البلاغة القرآنية. وانظر إلى قوله تعالى (كبيراً) أي لم يكن له مثيل في أي حقبة أخرى، وقد حصل العلو الأول في أرض فلسطين بينما لم يحصل الثاني.

---

(١) لمزيد من تفاصيل هذا الموضوع يمكن للقارئ الكريم الرجوع إلى كتابنا (القرآن منهل العلوم)، التفسير والتأويل، ص ١٠٠.

٢- ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ۝ ﴾، أي إذا ما حصل موعد العلو الأول فإن عباداً لنا سيتولون تدميركم وقد كان من أمرهم مع أهل بابل كما ذكرنا، وتدبر قوله تعالى (عباداً لنا)، فأهل بابل كانوا كفاراً فسلطهم الله تعالى على أهل كتاب لابتعادهم عن منهجه تماماً كما يحصل لنا اليوم من تسلط الكفار علينا ونحن أمة المصطفى ﷺ، فالناس عباد لله كافرهم ومؤمنهم شاءوا أم أبوا.

٣- ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ ﴾، (ثم) أداة عطف تفيد التتابع بتراخي زمني وليس مثل (فـ) التي تعطف بدون تراخي زمني أي مباشرة أو بعد مدة قليلة. معنى ذلك أن (ثم) هذه تعني أن هناك فترة زمنية ليست قصيرة بين العلّوين الأول والثاني الذي وصفه تعالى بأن فيه سوف يكون لهم مدد بالمال والسلاح والرجال من أمم أخرى لذلك قال (أكثر نفيراً) ولم يقل (أكثر عدداً)، وهو الأمر الحاصل اليوم بدولتهم المتغطرسة المفسدة المتعالية القاتلة التي أمدت بكل سبل العون والبقاء من أمم أخرى تحت الإرهاب الفكري والتفسخ العقائدي المتأتي من سيطرتهم على المال والإعلام في العالم الغربي.. وانظر إلى كلمتي (الكرة) و(عليهم). فالكرة تعني الرجعة وعليهم تعود على القوم الذين قاموا بالسبي الأول وهم أهل العراق، أي أنكم ستسبونهم كما سبوكم أول مرة وهو ما حصل اليوم باحتلال العراق من قبل منفذي الأوامر الصهيونية أصحاب البيت الأسود سود الله وجوههم ونواياهم، والله أعلم.

المتأمل بتصريحات القوم من الإدارتين الصهيونية والأمريكية المتصهينة يجد أن من عقائدهم الرئيسية التي لا جدال فيها أو مساومة عليها هو أن قيام دولة لإسرائيل ضرورة لنزول المسيح، وأن مشروع السلام هو تأخير لوعد الله، وأن القدس بكاملها يجب أن تكون تحت سيطرة إسرائيل المباركة والمبارك من يباركها والملعون من يلعنها أو يعاديها، وأن الفلسطينيون والمسلمون عموماً رعاع وثنيون وحزب يأجوج ومأجوج، وأن الألف سنة السعيدة يوشك أن تكون لكن بعد خطف المؤمنين إلى السحاب لملاقاة الرب عند

نزوله ودمار كل الوثنيين في معركة هرمجدون الكبرى[(١)]... كما تقول إحدى أهم عقائدهم "كلما قتلوا أكثر من العراقيين -أهل بابل كما مدون لديهم- كلما اقترب نزول المخلّص أو الرب كما يسمونه -الدجال عندنا- ليقيم دولة الرب"، وهو الأمر الذي يصرحون به علناً بل تجده أيضاً على صفحات الويب الخاصة بهم.

هذا يفسر لنا إصرار الإدارة الأمريكية المتصهينة البقاء في العراق لمدة طويلة لأنهم يعتقدون أنهم يجب الحفاظ على دولة إسرائيل المدللة لأن زوالها أصبح وشيكاً حسب توراتهم... وهذا ما يفسر أيضاً تصريحاتهم قبل وخلال وبعد احتلالهم الأخير للعراق من أن هذه الحرب إنما هي حرب عقائدية لأجل حماية العقيدة المنحرفة لهم والمتعلقة بما يؤمنون به من أن احتلال أرض فلسطين يؤدي إلى عودة المسيح عليه السلام، كذلك يفسر لك ذلك كل ما حصل لأهل العراق من مؤامرات تقتيل وتعذيب وتشريد وحروب غبية على يد مأجورهم نظام البعث المقيت ثم لعبة الحصار وأخيراً الاحتلال علي يدهم مباشرة.

٤- ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾، أي أنكم إذا ما عدتم للفساد - وهو الحاصل اليوم - فسوف يرجع القوم عليكم ليدمروا دياركم ويدخلوا الديار كما دخلوها أول مرة، والمتأمل للنص يجد أن العملية معطوفة بالأداة (فـــ) بقوله تعالى (فإذا جاء)، والفاء تفيد التتابع المباشر أو بفترة زمنية قصيرة، أي بعد علوهم الثاني وإفسادهم سيكون عودة القوم عليهم سريعة دون الحاجة للوقت الطويل التي تمثله أداة العطف (ثم).. ويعضد هذا الرأي قوله تعالى في نهاية السورة ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾، (الإسراء:١٠٤).. أي إذا ما جاء الوعد الثاني فإنكم ستأتون مجتمعين إلى الأرض التي وعدتم بسكناها عندما كنتم مؤمنين تستحقون النصر ثم أزيل عنكم هذا الشرف بعدما كفرتم، وهي أرض فلسطين وقد حصل ذلك اليوم. أما القول هنا بأن وعد الآخرة يقصد به القيامة، فإنه مردود من وجهين، الأول من سياق النص الذي يشير إلى السكنى في الأرض أي أرض فلسطين، والثاني أن جميع الناس سيحشرون لفيفاً في أرض

---

(١) يوم الغضب "هل بدأ بانتفاضة رجب"، د. سفر الحوالي، ص ١٢، بتصرف.

المحشر يوم القيامة فلا داعي للتخصيص، والله أعلم.

٥- من سياق الآيات نجد أنها تتعلق بطرفين لا ثالث لهما، الأول بنو إسرائيل والثاني القوم الذين سبوهم أول مرة وخربوا ديارهم ومعابدهم، وهم أهل بابل على رأي الغالبية الساحقة من المفسرين من جميع المدارس..

يحتج البعض بقولهم أن نبوخذنصر البابلي كان موحداً على أساس أن الخطاب القرآني في الإسراء(الآية:٥)﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴿٥﴾ ﴾ تدل على عطف العملية بأشخاصها وأحداثها على الذات الإلهية، وهذا خطأ فادح.. الرد على هؤلاء من كتاب الله تعالى في الآية ١١٤ من سورة البقرة، إذ يقول الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾.. جاء في أسباب نزول هذه الآية الكريمة أنها نزلت في بعض أهل الكتاب ممن والى بختنصر البابلي الكافر وأعانه على تخريب بيت المقدس وتحريقه، وقيل المراد بهم مشركوا قريش ممن منع رسول الله ﷺ من دخول البيت الحرام. وقال العلماء: الصحيح أنها عامة في تحذير كل من يمنع ذكر الله في المساجد وسعى في خرابها على أساس أن المعنى لعموم النص لا لخصوص السبب، وتخريب المسجد قد يكون حقيقياً كما فعل بختنصر، وقد يكون مجازياً كمنع المشركين المسلمين حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام، أو كما يحصل اليوم من منع اليهود أهلنا في فلسطين من أداء مناسكهم والعبث والتخريب الذي فعلوه ويفعلوه ببيوت الله تعالى في فلسطين أو أية بقعة في الأرض، فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها تخريب لها[1].

والآن دعونا نتأمل الأحداث على النحو الذي يجعلنا نربط الأمور الآتية:

١) الآيات الأولى من سورة الإسراء حول الوعد الحق للقضاء على دولة اليهود.

٢) تفسير سيدنا ابن عباس للآية وقوله إن القوم أهل البأس الشديد هم قوم من أهل العراق. هذا الأمر شهد له التاريخ وكل من عرف أهل العراق، ومن أصدق من الله

---

(١) روائع البيان لمعان القرآن، ص١١، بتصرف.

حديثاً، وها هو سيف الله المسلول سيدنا خالد بن الوليد يعطي أهل العراق هذا الشرف إبان فتوح العراق بقوله (ما قابلت قوماً أشد بأساً عند اللقاء من أهل فارس) ويقصد أهل العراق لأنه كان يومئذ جزءاً من الإمبراطورية الفارسية وكثير من الجند في الجيش الفارسي كانوا مجندين من قبائل العراق مكرهين عدا من كان منهم على الإسلام.

٣) قصة اليهودية نقلاً عن محاضرة الدكتور محمد أحمد الراشد التي ذكرت بأنهم يؤمنون بأن الفناء سيكون مصيرهم بعدما تقوم دولتهم الثانية بـــ ٧٦ سنة وهي مدة مدار مذنب هالي، ونظرية الأستاذ بسام جرار والتي ذكر تفاصيلها الأستاذ الفاضل في محاضرة مسجلة[١]، وكذلك ما ذكره الأستاذ سفر الحوالي في بحثه عن (يوم الغضب) وما يعتقدونه في توراتهم من أن نهاية دولتهم في آخر الزمان ستكون من الآشوريين

٤) حديث رسول الله ﷺ السابق حول حصار العراق، والمؤامرة المحاكة ضد العراق وتدميره واحتلاله وإبادة شعبه، والتي لو قدر أن يطلع العالم على حقيقة وحجم المأساة التي تكبدها هذا البلد لشابت الرؤوس من هول ما حصل له مما حدى بالكونغرس الأمريكي أن يرجئ فتح الملفات السرية لحرب الخليج الثانية إلى ١٥٠ عام بعدها بعد أن كانت الملفات السرية لحدث ما تفتح بعد ٣٠ –٥٠ عاماً فقط.. ولولا فضل الله ورحمته لما بقى من أهل هذا البلد العريق من أحد، فقد أصبحت التجارب المسرطنة والإشعاعية والفتك الجرثومي واليورانيوم المخضب في الطعام والشراب والملبس الذي يصدر إليه، فضلاً عن تلوث أجوائه بكل أنواع الملوثات، بل وحتى زراعته وأنهاره لم تسلم من ذلك.

٥) أن النفط سينفذ خلال مدة أقصاها ١٠٠ عام، وعدم وجود بديل ناجح وعملي آخر غيره للطاقة، وما يعكسه ذلك على كل معدات التقنية والأدوات الحديثة والتي تعتمد على الطاقة بما في ذلك الأسلحة.

٦) محاضرة الدكتور أحمد الكبيسي حول مدة الحضانة الإلهية لأي شعب لكي يتطهر مما علق به من السيئات لا تقل عن ٤٠ عاماً مستندة بذلك على قصة التوهان لبني إسرائيل بعد عبادتهم العجل حتى يصل ذلك الشعب إلى ما أراده الله له من الطهر والصلاح.

---

(١) انظر كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، وكتابنا (القرآن منهل العلوم). وكذلك كتاب (يوم الغضب هل بدأ بانتفاضة رجب) لفضيلة الأستاذ سفر الحوالي الذي يتحدث عن نهاية اليهود باعتراف توراتهم.

٧) مقارنة الفترة التي سبقت بعثة المصطفى ﷺ وما كانت أحوال العرب في الجزيرة العربية وحروبهم وأحوال الأقوام من حولهم وكيف أن الله تعالى هيئ كل الأحداث لتصب في النهاية في مصب نصرة الدين.

٨) حدوث أغلب علامات الساعة الصغرى وكما بينا في هذا الكتاب.

٩) بدء ظهور ما يدل على قرب العلامات الكبرى ومن أهمها كثرة الظلم في العالم خصوصاً لأمة الإسلام، وكذلك العلو الثاني لبني إسرائيل كما بينا.

١٠) أن دولة إسرائيل تقوم الآن بزراعة بساتين كثيرة من أشجار الغرقد وهي شجرة اليهود المقدسة فضلاً عن تجمعهم في مكان واحد من كل أرجاء الدنيا وكذلك ظلمهم وفسادهم وإفسادهم وقتلهم للمسلمين والتنكيل بهم والذي فاق كل حدود الوصف خصوصاً بعد انتفاضة الأهل المباركة في أرض الرباط.. وهم كما وصفهم المصطفى ﷺ في الأحاديث التي يرويها أهل السنن.. ففي صحيح مسلم (الإمارة-٣٥٤٤)، عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**).. وفي حديث مماثل أخرجه الإمام الترمذي في الفتن برقم (٢١٥٥) عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**)، قَالَ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ يَخْذُلُهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ**) قَالَ أبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وفي مسند الإمام أحمد / باقي مسند الأنصار – رقم (٢١٢٨٦)، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قال(**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلاَّ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لأْوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**)، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَ هُمْ قَالَ (**بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ**).

لو ربطنا ما سبق من نقاط وجمعناها مع بعض لعلمنا بعد كل ما ذكر أن حديث رسول الله ﷺ «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فتكونون شرق الأردن ويكونون غربه ويقاتلهم الشجر والحجر إلا شجرة الغرقد...**» والذي ذكرناه سابقاً قد أقترب موعد تحقيقه بإذن الله تعالى ولكن علينا قبله أن نعود إلى ديننا ونطبق شرع الله لنحظى بنصر الله وتحقيق وعده الناجز أن شاء الله تعالى.

الحقيقة المتعلقة بنهاية دولة إسرائيل تتلمسها من أهل الاعتقاد الأصليين أنفسهم أي

الإسرائيليين، والأمثلة كثيرة في هذا الباب، فيهود روسيا على اعتقاد جازم بذلك، وكثير من يهود الدولة العبرية خصوصاً من الانتماءات الشرقية، وهم ينطلقون من نصوص توراتية وتلمودية.. وهذا الأمر أصبح اليوم يسمع من أكثر من جهة بعد الضربات القوية التي تلقوها على يد الأبطال من أهلنا في فلسطين، بل أنه أصبح متداولاً حتى يبين عتاة متعصبيهم ممن لا يؤمنون بزوال دولتهم اللقيطة، وهم جماعة التيار اليميني المتطرف الذين يؤمنون بأن معركة هرمجدون التي بدأت باحتلال العراق وقتل الفلسطينيين خلال الانتفاضة ستعمل على التسريع بنزول المخلص وإقامة دولة الرب التي ستجعل من بني إسرائيل أسياد الدنيا كما يزعمون وكما فصلنا.

ومن الأمثلة المنطلقة منهم ما أكده مؤخراً خبيران إسرائيليان نشروا بحثهم هذا في صحف ومجلات.. فقد اعتبر كاتب وخبير إسرائيليان أن إسرائيل التي احتفلت يوم الثلاثاء ٢٧-٤-٢٠٠٤م بالذكرى الـ ٥٦ لإعلان قيامها -وفق التقويم العبري-، قد بدأ العد التنازلي لزوالها، مشيرين إلى تفاقم العديد من المشاكل التي تعيشها إسرائيل ممثلة في ارتفاع نسبة الفقر، وانتشار قضايا الفساد والرشوة بين السياسيين، مطالبين بانتهاج خيار السلام، وإنهاء احتلال الأراضي الفلسطينية كون استمراره سيقود حتما إلى هلاك إسرائيل.. وأوضح الكاتب الإسرائيلي اليساري "بي ميخائيل" في مقال نشرته يديعوت أحرنوت الاثنين ٢٦-٤-٢٠٠٤م أن "الاحتلال (للأراضي الفلسطينية) هو أخطر شيء على وجود إسرائيل. ومن الأفضل للشعب اليهودي أن يبدأ بإحصاء تنازلي لعدد السنوات المتبقية لدولته".

وقال: "وُلِدْتُ قبل الدولة بعد أشهر، وكما تبدو الأمور اليوم- سأموت بعدها بعدة أشهر".. وأضاف: "بعد ٢٠ عاماً على قيامها، دفعة واحدة توقفت الدولة عن كونها وسيلة لتحسين حياة مواطنيها، وأصبحت أداة مقدسة لتحقيق الوعد بالوطن الذي وعد الله به أبانا إبراهيم، الجميع أصبحوا مستعبدين.. صوت القلائل الذين حافظوا على عقلانيتهم وحذروا بصوت مرتفع من هذه النشوة المسمومة المخدرة، هذا الصوت ابتلع في ضجيج النشوة الصادحة، ولم يصغ أحد لنداءاتهم"... ويعرض الكاتب بعض الحقائق التي تعيشها إسرائيل من منظورة قائلاً: "الموت أصبح قالباً جاهزا.. والكذب أصبح معياراً وقيمة، والفقر والوضاعة أصبحا ثمنا يجدر دفعه لمواصلة السيادة والرئاسة. القتل الرسمي أصبح روتينا نتفاخر به".. ويضيف "٤٠ في المائة من الخاضعين للحكم الإسرائيلي

يعيشون تحت خط الفقر. التربية والتعليم ينتجان الجهلة والأشخاص العنيفين ووزيرة التربية (ليمور ليفنات) نفسها تقوم بمقاطعة مؤسسة تربوية؛ لأن أحد موظفيها قال أموراً لا تروق لها أو عكرت مزاجها".

ويتابع واصفا المجتمع الإسرائيلي "العجائز ينغمسون في شيخوختهم صرعى المرض، والفساد الشخصي الذي يرتكبه السياسيون كسر الأرقام القياسية:... ويقول: "صحيح أن لدينا بورصة صاعدة وعالماً أدبياً يغلي وازدحاماً في الحفلات الموسيقية الراقية وجهازي موبايل لكل شخص، وطبقة دقيقة من الأثرياء والأذكياء إلا أننا نبقى رغم ذلك دولة عالم ثالث. عالم ثالث، ولكن مع قنبلة"...ويدعو الكاتب إلى أن تنْحَى إسرائيل إلى منحنى السلام وإنهاء الاحتلال الذي اعتبر أنه "وحده هو الذي يهدد حقيقة وجود إسرائيل فعلاً، فهو يقضم جسد الدولة ونفسها وخزينته؛ وبالتالي سيؤدي إلى تبديد مواردها وطاقاتها"... ويضيف "١٠ سنوات احتلالية أخرى أو ١٥ سنة أو ربما ٢٠ بالحد الأقصى سيضيع منا بقاؤنا، سنتحول نهائياً إلى دولة لا يمكن لشخص حضاري، أو حتى لن يرغب في العيش بها. ستكون قشرة سلطوية فارغة من المضمون وكل وجودها مكرس للحفاظ على بقاء السجون ومعسكرات العقاب"... ويكمل قائلاً: "هناك طريقة واحدة فقط لإنهاء الاحتلال، هو الخروج من المناطق وهجر كل المستوطنات".

من جهته، تساءل "سيفر بلوتسكر"، الخبير الاقتصادي الإسرائيلي، محلل الاستطلاعات: "كيف يمكن أن نسمي هذه السَّنة سنة غير سيئة حينما تقفز البطالة فيها إلى القمة؟ وعندما يحطم الفقر الأرقام القياسية؟ كيف يمكن لسنة أن تكون على ما يرام في حين تتكاتف فوق رئيس الحكومة (إريل شارون) غيمة ثقيلة من مخاوف الفساد والرشوة؟"... وتناول بلوتسكر في مقال نشرته صحيفة "يديعوت أحرنوت" الإسرائيلية الاثنين ٢٦-٤-٢٠٠٤م نتائج استطلاع حديث قائلاً: "إليكم تناقض إسرائيل في السنة الـــ ٥٦ لاستقلالها: دولة يحبها مواطنوها إلى درجة الموت، ولكن كل مواطن بين اثنين يعتقد أنها تمضي في الاتجاه غير الصحيح، و٧٠ في المائة يقولون إنه ليس فيها مستقبل لأولادهم، كما لو كانوا يريدون القول: الدولة في جهة، ومواطنوها في جهة أخرى".. وتابع: "برغم أن إسرائيل قد أصبح عمرها ٥٦ عاماً فإنها لم تستطع أن تحل كثيراً من مشكلاتها الداخلية ومشكلاتها مع جيرانها، بعد ٤ سنوات ستكون إسرائيل في الستين من عمرها، عمر الدول ليس كعمر البشر، ومع ذلك فإن دولة في الستين لم تعد طفلة، كما لم

تعد في سن البلوغ بل يبدو أول الشيب في شعرها".

وحسب الإحصاءات التي أعلنها المدير العام لمؤسسة التأمين الوطني الإسرائيلي د. "يغئال بن شالوم" خلال محاضرة ألقاها في هرتسليا يوم ٢٠-٤-٢٠٠٤م ونشرها موقع "عرب ٤٨"، فقد وصلت نسبة الفتيان الفقراء في إسرائيل في العام ٢٠٠٣م إلى ٣٠% (أي ٤٠ ألف شخص)، منوها إلى أن هذه النسبة المتزايدة جاءت بعد أن "واصلت وزارة المالية الإسرائيلية التقليصات المتواصلة في مخصصات الفتيان (الحكومية)، والتي بدأ تنفيذها في العام ٢٠٠٢م، وينتظر استمرارها حتى عام ٢٠٠٩م"... ووفقاً لأحدث إحصائية صادرة عن دائرة الإحصاءات المركزية الإسرائيلية، الأحد ٢٦-٤-٢٠٠٤م، فإن عدد سكان إسرائيل يبلغ ٦,٧٨ مليون شخص، من بينهم ٥,١٨ مليون يهودي، يشكلون ٨١% من عدد السكان الكلي، فيما يشكل المواطنون العرب (فلسطينيو ٤٨) ١٩% من السكان(١).

لذلك ورغم كل ما تعانيه الأمة من تصدع وتشتت وطمس للهوية وضياع للفكر والانتماء إلا أنني على يقين من النصر القريب ولعله أقرب مما نتصور لأن تسارع الأحداث بشكل مذهل كتسارع البكرة عند نهاية الخيط، ولنا في رسول الله ﷺ وآله وأصحابه المجاهدين الأسوة الحسنة وكلنا يعرف كيف وعد رسول الله ﷺ المسلمين بفتح البلدان وانتشار الدين وفي أي وقت، وقت بلغت فيه القلوب الحناجر عندما كان المسلمون محاصرون في الخندق. لعل البعض سيقول أين نحن من هؤلاء الاماجد فأقول نعم علينا العودة إلى الله لنكون مثلهم ويتحقق فينا الوعد الحق كما كان لسلفنا الصالح ونعز الدين كما أعزوه وننتصر به كما كان لهم، ولله الأمر من قبل ومن بعد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) كاتبان إسرائيليان: بدأ العد التنازلي لدولتنا، سليمان بشارات – إسلام أون لاين نت/٢٧-٤-٢٠٠٤.

الباب الثالث

النتيجة

الفصل الأول

قانون الإصلاح

إعلم أخي الكريم إن الإصلاح بأيدينا نحن لأن الله تعالى قد سنّ قانوناً عاماً للتغيير والإصلاح ذكرناه آنفاً:﴿..إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ.﴾، (الرعد: من الآية١١)، وأن الله تعالى لا يرفع النعمة ويبدلها بنقمة إلا جراء ما يكتسب المؤمن من خطايا ويبتعدون عن منهج الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾، (الأنفال:٥٣).

وعندما أراد الله تعالى أن يعلمنا بأن أهم ما يكون من الإصلاح فإن أهم الكلام هو الأمر بالمعروف أو صدقة أو إصلاح بين الناس ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾، (النساء:١١٤)، ضرب لنا أمثال الأمم السابقة التي منعت الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنها ما حصل في بني إسرائيل الذين قد قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة فأصدأت وتحجرت من جرّاء متاجرتهم بالربا وقد نهوا عنه فلم يراعوا أوامر الله في خلقه:﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾، (المطففين:١٤).

يعلمنا الحبيب ﷺ أموراً مهمة في القوانين الإلهية تتعلق بمنع الظلم والضرب على يد الظالمين والمنافقين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الناس أمور دينهم. ففي قصة الآية المباركة التي نزلت في بني إسرائيل ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾، (المائدة).

يذكر لنا رسول الله ﷺ أن القوم لما تركوا الناس يعملون ما يشاءون من قبائح الأفعال لعنوا وسلط عليهم العذاب، وهذا ما جاء في الحديث الذي أخرجه أبو داود (الملاحم/

٣٧٧٤) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُود قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ**)، ثُمَّ قَالَ (**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**) إِلَى قَوْلِهِ (**فَاسِقُونَ**) ثُمَّ قَالَ (**كَلاَّ وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ**)..
وفي حديث الترمذي في الفتن (٢٠٩٥) عَنْ حُذَيْفَةَ بن الْيَمَانِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ**).

وقد كان من أمر فرعون مصر الذي نصب نفسه إلهاً لفظاً وفعلاً ما يشبه متفرعننا البائد، غير أن هذا الأخير لم يعلنها لفظاً بل طبقها فعلاً وأمر بتصديقها والويل والثبور لمن لا يصدق حتى استصغرنا واستسهل قتلنا والتنكيل بنا بأياد هي من عندنا ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾، (الزخرف:٥٤)... يقول بعض المفسرون في معنى استخف، أي من الخف وهو ما يلبس في الرجل فكان من أمر فرعون أنه استصغر قومه لجبنهم في ردعه إلى الدرجة التي جعلته يلبسهم في رجله كالخف وهم طائعون له، لأنهم قوم فاسقون، فكان جراء فسقهم وابتعادهم عن منهج الله تعالى وإحلالهم الحرام وتحريمهم الحلال أن أصبحوا جبناء لا يستطيعون حيلة أمام الرجل ولا سبيلا.. وهكذا ركنا إلى الظالم الباغي فمسنا عذابه وظلمه ولم يكن دعائنا ليستجاب لأن قانون الله تعالى لا يمكن أن يتغير، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (هود:١١٣)، أي لا تكونوا للظالمين وأهل الفتن عوناً فتمسكم نار ظلمهم، ولن يكون الله ناصراً لكم..

كما ونسينا قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾، (النساء)، أي من سنن الله تعالى أنه لا يمكن أن ييسر طريق النجاة للظالمين والكافرين إلا

طريق جهنم وهو النهاية التي يستحقون. ولو لاحظنا حرف العطف الواو بين (كفروا) و (ظلموا) جاء للمجانسة أي أن المعطوف (الظالمين) ليس من جنس المعطوف عليه (الكفار). أما ما نوع ظلمهم فقد يكون أشد الظلم وهو الإشراك بالله تعالى، وقد يكون ظلماً من نوع آخر، ومعلوم أن من أسوأ أنواع الظلم هو عدم تطبيق شرع الله في خلقه.. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾، (المائدة:من الآية ٤٥).. فتأملوا اخوة الإيمان بأي ابتلاء ابتلينا بحكامنا الأفذاذ؟!!!.

وما علمناه كتاب الله تعالى في تنقية المجتمع من الرذائل هو الذاتي والموضوعي. قد يكون الكثير من الناس يعرفون الفرق بين ما هو شخصي أو ذاتي وما هو موضوعي أو مهني ولكنهم لا يمارسونه فعلاً وتطبيقاً، بل إن أكثر الناس يعتبر أي توبيخ أو تنبيه لمهنية شخص كأنه عداوة شخصية له، وعلى العكس منهم من يستغل الموضوعي والمهني لمصلحة شخصية تخرجه من عن ملة الأمناء على المهنة.

يقول المثل العربي (الناس أعداء ما جهلوا) وما أعظمه من مثل، لأن ما يجهل ولا تعرف خفاياه يكون بعيداً عن عقل وتفكير الشخص الذي يعطي الحكم، فقد يظلم الخصم أو على الأقل لن يعطيه حقه كاملاً.

وعلى هذا الأساس جاء القرآن الكريم ليفصل في هذه الجزئية المهمة ويؤسس الميزان الفصل في هذا النوع من الظلم ويربي الناس على مكارم الأخلاق وفضائل التعاملات مع شتى الحالات والاعتبارات، فترى الشرع الحنيف يوضح تفاصيل مهمة في هذا:

١. يحث الناس على الحكم بالعدل حتى على من هم عدو لهم أو أناس بينهم عداء فكري، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾، (المائدة:٨).

٢. قول الحق ولو على النفس، ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾، (النساء:١٣٥).

٣. لا يحمل نفس بجريرة أو خطيئة غيرها: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾، (فاطر:١٨).. ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾، (النجم:٣٨).

٤. أن يترك الحكم لحين سماع الطرف الآخر كما جاء في قصة الخصمان مع سيدنا داود عليه السلام: ﴿۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾، (ص:٢١).

٥. التشاور في الأمر واحترام رأي جميع الأطراف: ﴿..وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ..﴾، (الشورى: من الآية٣٨). وكان عليه أفضل الصلاة والسلام دائماً ما يطلب المشورة رغم علمه ونبوته فيقول (**أشيروا علي أيها الناس**)، وقد قيل (ما خاب من استخار وما ندم من استشار).

٦. أن يتوثق من الأمر فلا تؤخذ الأمور بالظن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾، (الحجرات: ١٢). ويقول عليه أفضل الصلاة والسلام: (**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**).

وغير ذلك من الأحكام التي تبين عظمة وسعة أفق الإسلام الحنيف، ولكن المؤسف أن الناس لفرط طيبتهم وجبلتهم وفطرتهم الطيبة يخلطون بين عاطفتهم اتجاه أمر أو ظاهرة أو شخص معين وبين ما هو واجب ومهني، فترى هذا يقول (خطية)، وذاك يقول (هذا ابن عمك وعيب عليك تعاديه)، وغير ذلك من الخلط بين ما هو يخص الشخص لذاته وبين ما يخصه لمهنته.

الفصل الثاني

سبل الحل

الحل يكمن في تطبيق المعادلات والقوانين القرآنية المتعلقة بكيفية العودة إلى تطبيق شرع الله تعالى بمراحل تشبه مراحل الدعوة في أول أو بدء تكونها، إذ لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أولها، فنبدء بالنفس أولاً ثم الأهل فالمجتمع فالأمة.. فالحل لهذه الأمة هو في كل خطاب قرآني بالنداء (يا أيها الذين آمنوا)، والذي هو نداء لكل غيور على دينه وعزة أمته في هذه الأمة المرحومة. وقد جاءت في ٨٩ آية بـــ ٨٩ تكراراً لتعطينا القوانين وسبل الحل في كل فنون وضروب التعاملات والأخلاق والتصرفات والسلوك في وقت الشدة والأزمات والحروب ووقت الفرج والسلم، في الفرد والأسرة والمجتمع... ومنها وغيرها استقى علماء الأمة فقه المعاملات والأخلاق والعبادات، ويمكن أن نقسم ذلك إلى مسائل عدة:

١ – الحل المتعلق بالقاعدة البشرية للمجتمع، والحل فيها يكمن في عدة نقاط:

- **إعادة دور المسجد:** وهو العودة إلى المحور الباني للشخصية المسلمة، ألا وهي المدرسة النورانية العظيمة التي بدأ بها النبي ﷺ البناء وهو المسجد، ذلك الصرح الإلهي الذي لا يمكن أن يخطأ طريقه إذا ما توفرت فيه ثلاث شروط: الإمام العالم العامل العادل الصادق، شباب المسجد أهل الهمة والحماس المنضبط بشرع الله، وأهل العقل والرأي من المصلين، فإذا ما توحدت القلوب في المسجد على هذه الشروط أدى دوره في البناء وكان بحق المحور الذي نلتف حوله لأنه أحب بقاع الأرض إلى الله تعالى، وإلا كان كالمسجد الضرار الذي يبنى على جرف هار، وأبسط دليل على ما قلناه هو في ظرفنا العصيب هذا هو ما نجده من صور رائعة للجهاد والصبر والتضحية والمطاولة لأخواننا الفلسطينيين وكلهم من أهل المساجد، وكذلك ما رأيناه في العراق بعد احتلاله، إذ لم ينبري للحفاظ على أمن المناطق وشرف العوائل من السراق والرعاع إلا أهل المساجد، فهم من تبنى الحماية وتوزيع المساعدات الغذائية والطبية والخدمية وغيرها في كل أصقاع البلاد... هذا بجهود متفرقة، فما بالك لو اجتمعت الأمة على المساجد وعادت لتعطيها دور البناء الحقيقي؟!.

بل وأن ما فعله أهل مدينة المساجد – أهل الفلوجة الأبطال أهل المساجد – من مقاومة

عظيمة في معارك الأيام العشرين من شهر صفر الخير عام ١٤٢٥هـ والموافق لشهر نيسان من عام ٢٠٠٤م رفعت رؤوس الأمة كان فضله الكبير يعود لتربية المساجد، بل ولعبت المساجد دوراً تعبوياً وسوقياً فكانت تكبر عند مرور الطائرات وقصفها للناس، وتدعو الناس للصبر فتجمع التبرعات وتعين المحتاج والجريح، مما أذهل الأعداء وجعلهم يستخدمون المكبرات الصوتية العملاقة التي تبث موسيقى الروك الصاخبة ليسكتوا أصوات التكبير ولكنهم لم يفلحوا بمحو أثرها، فقاموا باستهدافها بالضرب والقصف والتدمير ولم يفلحوا أيضاً بتقليل فعلها المعجز في النفوس. وقد حصلت قصص وكرامات عظيمة رواها أهل الفلوجة الكرام لإخوانهم العراقيين فيما بعد تذهل العقول وتشرح الصدور وتطمئن القلوب بنصر هذه الأمة المحتوم، ولكن يضيق المجال هنا لذكرها ولعل من المناسب إفراد كتاب خاص بذلك.

- **تطبيق قانون الضغط الاجتماعي:** ولعل واحدة من أهم القوانين القرآنية التي غفلنا أو تغافلنا عنها أو لربما أجبرنا على التغافل عنها هو الضغط الاجتماعي وأهميته في سير الأمم والمجتمعات وانتقالها من مراحل التخبط والهوى إلى مراحل الاستقامة والمنعة ومرضاة الله تعالى. والضغط الاجتماعي هذا باختصار هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوقوف عند حدود الله والتناصح والأخوة في الله والغيرة على دين الله وكل الأواصر الاجتماعية التي أرادها الله تعالى لنا كي نجعل من مجتمعاتنا تلك المجتمعات التي أساسها تقوى الله والخلق القويم والتي بها وحدها نصل إلى البنيان المرصوص الذي يحبه الله ويرضاه لنا. فكما أن قوانين المواد الصلبة والسائلة في الفيزياء النيوتنية تقول لك "إذا سلطت ضغطاً ما على أية مادة صلبة كانت أم سائلة فان هذه المادة أما أن تقاوم الضغط بسبب صلادتها وجساءتها فتبقى المادة محافظة على شكلها وهيئتها، أو أن المادة لا تتحمل هذا الضغط لأنه أقوى منها فيختل التوازن لتنساق معه فيحصل الانهيار والتدمير للشكل والهيئة والبنية الذرية أحياناً، كما في حالة اختلاط سائل طيب بآخر نتن، أو قد تحصل الحالتين معاً بنسب مختلفة"، فكذلك البشر على عمومهم أما أن يقاوموا أي تيار فكري واجتماعي منحرف ويسلطوا عليه ضغطاً مقابلاً يعضدهم في الحفاظ على مجتمعهم من التدمير فيبقوا سالمين من كل سوء، أو ينساقوا معه فيحصل التدمير الفكري والاجتماعي، وبين هذا وذاك خلق كثير.

لقد بنى الأنبياء عليهم السلام هذا المفهوم في مجتمعاتهم ولكن أكثر البشر للحق

والفضيلة والاستقامة كارهون، وللهوى والعشوائية محبون وعابدون، فتركوا هذا القانون وبدلوه فاشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون، فترى الواحد منهم يرى الآخر يحتسي الخمر في الطرقات أو يسرق أو يفعل الموبقات ولا ينهاه أو يزجره ولسان حاله يقول "مالي وله، كل مسؤول عن عمله، عليّ بنفسي". فكانت النتيجة أن طردوا من رحمة الله فنزلت بهم المصائب والكوارث واللعنات بعد أن خرقوا هذا القانون الإلهي ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتناصح فيما بينهم، وهو تفسير قوله تعالى ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾، (المائدة)، والذي تحدثنا عنه في بداية الكتاب.

وهكذا ربيت الأجيال الإسلامية على هذه المفاهيم المحببة إلى الله تعالى، فكانت الغيرة الإسلامية المحمدية التي لا ترضى للمسلمة أن تعرض جسدها ومفاتنها وزينتها على المحارم، فبرز الضغط الاجتماعي محاصراً لكل ضال وصاحب هوى، رجل كان أم امرأة، فلا أب ولا أخ ولا زوج أو جار أو شيخ أو معلم أو قريب أو بعيد يرضى أن يرى عرضه أو عرض أخيه المسلم - فكل المسلم على المسلم حرام حرمة مغلظة دمه وماله وعرضه كما أوصانا المصطفى ﷺ - عرضة للنهش أو القدح، فتتكون الحلقة الضاغطة القاتلة لكل هوى فاجر أو تقليعة سقيمة أو يد سارقة أو فكر ضال فيتكون المجتمع الفاضل الذي يتقي الله في كل أفعاله فيكون جزاؤه رضا الله تعالى ونصره المبين ورزقه الكريم الوفير.

أن مراجعة بسيطة لحلقات التأريخ يرينا أن العزة والمنعة لهذه الأمة وصعودها على سلم المجد كان مع تطبيق قوانين الله وخصوصاً هذا القانون العظيم في الضغط الاجتماعي ليمنع فتنة النساء أن تفعل فعلتها في المجتمع وكما أنبأنا تعالى في الحديث الذي يرويه مسلم مرفوعاً عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **(إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ وَفِي حَدِيثِ ابْنِ بَشَّارٍ لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)**. وعلى العكس من ذلك كانت نكساتنا وكبواتنا وذلنا عند ابتعادنا عن سنن الله ونواميسه التي ثبتها القرآن الكريم وعلى رأسها التهاون في موضوع فتنة النساء، وفي هذا يقول الرسول الكريم

ﷺ في الحديث الذي رواه الدارمي في باب الفتن عَنْ حُذَيْفَةَ بن الْيَمَانِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ**) قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

أما حالنا اليوم الذي يسر العدو ويحزن الحبيب هو أن الأب يأمر ابنته بالتبرج، ويطلّق الرجل زوجته لأنها تلبس الحجاب، وتقول المرأة لابنتها "اخرجي يابنتي مفاتنك ولحمك أو البسي الضيّق من اللباس كي يركض وراءك الرجال"، ويأتي دور الإعلام المعادي ذي الانتماء اليهودي ليزيد حريق الفتنة وليحرض البنت والولد على والديهما ويدفعهما إلى اتخاذ الأخدان كبديل عن الزواج الشرعي الذي يبني المجتمع على أسس صحيحة، فأصبحت المرأة تضع الزينة للغرباء ولا تضعه لزوجها فذهب الأخير يبحث عن الأنوثة عند مثيلاتها في مكان آخر، فانقلبت الموازين وصار الزنا يسمى باسم جديد هو (الحُب) الذي تصرف لأجل عيونه مليارات الدولارات في هوليود ومثيلاتها من مؤسسات الإفساد العالمية، فازدادت الجرائم والجنايات وعمقت الهوة بيننا وبين ما أراده الله لنا، وصدق بنا قول الحديث الشريف مرفوعاً عَنْ أَبِي سَعِيد رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ**)[1]، فلبينا طائعين ما أراده اليهود منا وما رسمته الدوائر الماسونية من نزع الغيرة من الرجال والحياء من النساء، فصار الحجاب والخلق الإسلامي رجعية تلاحق صاحبته لتفصل من عملها أو من مدرستها أو ينظر لها بنظرة الريب، وأصبح إبراز المفاتن تقدم وحضارة فصار علينا كلما أردنا التقدم خطوة – حسب المنطق اليهودي – توجب علينا أن نخلع شيئاً من لباسنا وحيائنا حتى يأتي يوم نرى فيه أنفسنا في قمة الحضارة ونحن عراة تماماً كالقرود والخنازير التي سبقتنا إلى هذا التحضر!، وأضحى تعدد الأخدان والخلائل أمراً مباحاً وتعدد الزوجات جريمة توجب القصاص العادل - أية مهزلة-.

إن كل هذا اللهث وراء تقليدنا للسموم الفكرية الغربية هو بسبب ابتعادنا عن الفهم الصحيح لعظمة الإسلام وما أعطاه للمرأة من حقوق لم تستطع أية حضارة عبر التأريخ أن تأتي بمثله فلا الحضارات القديمة في مصر والعراق والصين وفارس والعرب واليونان

---

(١) روى الحديث البخاري في غير موضع ومسلم وابن ماجة وأحمد.

والرومان، ولا الحضارات الحديثة في أوربا وأمريكا استطاعت أن تفهم المعادلة الإسلامية الرائعة والربط القرآني العظيم بين إعطاء المرأة كافة الحقوق في العلم والعمل والجهاد والرأي والميراث والزواج والملكية من جهة، ومنع تأثير فتنة النساء على المجتمع من جهة أخرى. وللأسف فقد انساق وراء عدم الفهم هذا بغرض أو بدونه الكثير من أفراد الأمة رجالاً ونساءً بحجة الدفاع عن حقوق المرأة وكأن حقوقها هو في خلع الحشمة والحياء فقط، فلو رجعوا إلى الفقه الإسلامي لعرفوا أن حقوق المرأة في الإسلام هي في أرقى مستوى يليق بالبشر مراعياً حقوق الجميع وهو مصداق قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾، (النساء:٢٧).

وإذا ما أردنا عرض الموضوع على السنن الإلهية في الخلق نجد مثلاً أن البيضة الأنثوية محاطة بغشاء (حجاب) مانع ويلهث ورائها ملايين الحيامن الذكرية ولكنها لا تسمح باختراق حصنها المنيع هذا (الحجاب) إلا لواحد فقط وتوصد الباب بوجه البقية[١].. فهذا هو شأن المرأة في الإسلام موافقاً لقوانين الله في خلقه، عزيزة كريمة لا يأخذها إلا من يستحقها ولا تكون عرضة لكل من هب ودب، فمتى يصحو هؤلاء المساكين من أدعياء التشبث بالموضة وتقليعات أتباع اليهود ذوي الأخلاق المنحطة أحفاد القردة والخنازير ليعلموا أن شخصية المرأة وقيمتها في عفافها وحجابها وليس بمكياجها و إبراز مفاتنها، فهل ترضون لأولادكم أن يكون قدوتهم قرداً ولبناتكم أن تكون قدوتهن خنزيرة؟.. وليعلم الأب والأم أنهما مهما صلا وعبدا الله فانهما سيحاسبان حساباً عسيراً لأنهما تركا أبنهما وأبنتهما على أهوائهما يطلون الناس بأفعالهما وأقوالهما ولباسهما، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، ولا يدخل الجنة ديوث[٢]، فعَنْ سَالِمِ بن عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(ثلاثَةٌ لا يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ وَالدَّيُّوثُ وَثَلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ وَالْمُدْمِنُ عَلَى الْخَمْرِ وَالْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى)**[٣].

إن الجنس أيها الأخوة الأكارم شهوة كبقية الشهوات مثله كمثل الأكل والشرب،

---

(١) راجع كتابنا (الوراثة والاستنساخ) ضمن سلسلة (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية).

(٢) الديوث في الاصطلاح هو الذي لا غيرة له على عرضه وأهله.

(٣) رواه النسائي وأحمد مرفوعاً.

أرأيت لو أنك جئت بجياع ووضعت أمامهم أكلاً فاخراً ثم قلت لهم لا تمدوا أيديكم نحوه، فهل سيستمعون إليك؟ الجواب واضح، إذ سيستمعون إلى صوت واحد فقط هو صوت النفس الجائعة والتي لا يهمها ما سيحدث بعد ذلك، وإذا ما جربت أن تستعمل القوة معهم فسوف تلقى ما لا يرضيك، وهذا هو ديدن البشر مع كل الشهوات الأخرى وعلى رأسها الجنس، فأنت لا يمكنك منع أصحاب القلوب المريضة بمرض الشهوة من التعرض للسافرات والمتبرجات، إذ لا ينفع العلاج هنا بل تنفع الوقاية، وكما علمنا الإسلام الحنيف، فوضع لنا الوقاية بمنع السفور والتبرج والاختلاط ووضع لنا العلاج باستخدام الضغط الاجتماعي على من يحاول اجتياز حدود الله. إذ لو علمت الأم وعلم الأب وكذا الأخ والزوج والجار والقريب والبعيد أن الفتنة في الدين ومنها فتنة النساء السافرات المتبرجات عند الله تعالى أعظم من القتل، وأن خروج ابنتهم متبرجة فاتنة لرجال كثيرين أخطر أثراً من قتل هؤلاء الرجال، فقتل النفس أهون من قتل الخُلُق والدين وتدمير العقول وإفساد الأرواح، ولو يعلموا أن هذا الذي تفعله ابنتهم أو ابنهم ليس ضمن ما يسمى بالحرية الشخصية وإنما تدخل في دائرة إفساد المجتمع وتدميره، ما كانوا ليرضوا أن يُلقوا بأولادهم وأحبابهم إلى هذا المصير المظلم من غضب الله في الدنيا والآخرة. والى إخواننا شباب الأمة نقول مهلاً ودعكم من اتباع الهوى وعليكم بوصية المصطفى ﷺ في الزواج كي تعفوا أنفسكم ولا تسلموا الأمانة التي في أعناقكم إلى أعدائكم، وكونوا غيورين على أعراضكم وأعراض إخوانكم، واعلموا أن المرأة إذا خرجت متبرجة واضعة العطر ليشمها الرجال فهي زانية ولا تقبل منها صلاة حتى تغتسل غسل الجنابة وتتطهر، واسمعوا لقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

عفوا تعف نساؤكم في المحرم ... وتجنبوا ما لا يليق بمسلم
إن الزنا دين فإن أقرضته ... كان الوفا من أهل بيتك فاعلم
يا هاتكاً حرم الرجال وقاطعاً ... سبل المودة عشت غير مكرم
لو كنت حراً من سلالة ماجدٍ ... ما كنت هتاكاً لحرمة مسلم
من يزن يُزن به ولو بجداره ... إن كنت يا هذا لبيباً فافهم

فإذا ما عدنا إلى تطبيق سنن الله وقوانين كتابه الكريم التي تدعونا بأن نجتنب وتتجنب

كل مقتربات الرذيلة كالزنا وغيره ومنها قانون الضغط الاجتماعي، فيزجر الأب ابنته عن لبس ما يفتن الرجال وابنه عن فعل الموبقات، وكذا يفعل الأخ والزوج والقريب والجار والأستاذ، وتقوم الأم بدورها التربوي المنتظر، فعندها لن يبقى تجاوز لحدود الله أو عصيان لأوامره، ولن يكون هناك هوى متبع أو شح مطاع أو اتباع لأهل الفسق والفجور، وعندها فقط سينجزنا الله وعده والله لا يخلف الميعاد. فهل يا ترانا عائدون إلى تطبيق وقايات الإسلام وعلاجه وقوانين القرآن ومن أهمها الضغط الاجتماعي، أم أننا سنظل نصم آذاننا عن الحق فلا نرجو لله وقارا وهو الذي خلقنا أطوارا، فأنزل لنا في كتابه ما يسمو بنا عن كل منقصة ويكون لنا منارا، فالله نسأل أن يمن علينا برحمته وييسر لنا إليه فرارا، فيجعلنا كراماً أبرارا، وصلوات ربي وسلامه على سيدنا محمد سيد الورى وآله وصحبه سادة الناس من بعده المجاهدين الغيارى.

- **بالحكمة والموعظة الحسنة:** ويكون الحل أيضاً بالدعوة إلى الله تعالى في دولنا ودول الغرب بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد ذكرنا آنفاً كيف أن ابن تيمية رحمه الله استطاع أن يقنع المغول بالدخول إلى الإسلام، وهذا البسطامي رحمه الله تعالى يدخل إلى الكنيسة ويلبس الصليب ليدعو أهل الكنيسة إلى الإسلام وعند دخوله قال القس هذا محمدي فقالوا له كيف عرفته؟، قال سيماهم في وجوههم من أثر السجود. وتلك أكبر الدول الإسلامية من حيث عدد السكان أندونيسيا وماليزيا لم تدخل الإسلام بالسيف وإنما بدعوة لتجار مسلمين كانوا يذهبون هناك فرأى الناس حسن صنيعهم وطيب معاملتهم وكرم خلقهم فتأثروا بهم وكان ذلك سبباً في دخول تلك الدول العظيمة في دين الله أفواجاً... وهذا الأستاذ الجليل الدكتور زغلول النجار الذي استطاع مع أخوة له أن يجعلوا من القوة الأمريكية التي احتلت منطقة الخليج إبان حرب الخليج الثانية وقوامها ٥٠٠٠٠٠ جندي بكامل قوته وحديده تذعن للإسلام بعد أن جاءت وهي مشحونة بالحقد عليه وكارهة لكل شيء ينتمي إليه من تراث أو فكر أو بشر أو حجر.. فقام هؤلاء المجاهدون بإلقاء عدة محاضرات للتعريف بالعلم والسبق الإسلامي في القرآن والسنة بين تجمعات الجند الأمريكيون في الطائف والرياض وجدة وغيرها، وإذا بـهذا الجيش يعود بـ ٢٠٠٠٠ مسلم بين ضابط ومجند، ذكر أو أنثى، أسلموا وحملوا الإسلام بين عيونهم، فمنهم من يؤذن ومنهم من يبكي ومنهم الحاج والإمام في الصلاة حتى إنك لتعجب كيف أنطق الله تعالى هؤلاء بلغة العرب، ومنهم طيارين جعلوا نصف راتبهم

يشتري به مصاحف ويوزعها على الكثيرين في الولايات المتحدة.

وعلى هذا فإنه بإمكاننا أن ندعو الغربيين إلى الإسلام وهم أهل حكمة كما أشار الحديث الشريف الذي ذكرناه في قانون المؤامرة... وهنا نؤشر حقيقة تعتبر من المبشرات بعودة الصعود الجديد للأمة رغم حوالك الأحداث لأنها تشبه تلك التي كانت في عهود الصعود المختلفة مما أعقب فترات النزول سابقة الذكر. ألا وهي كثرة الدعاة والعودة الحميدة لله وبيوته وكتابه وسنة رسوله ﷺ، وهو ما نجده في واقعنا الإسلامي على مستوى المحلة والبلدة والمدينة والدولة والقنوات الفضائية... فحيهلا بها من عودة.

- **الذاتي والموضوعي:** الحل أيضاً هو البدء بإصلاح أنفسنا وأهلينا، في الأخلاق والمعاملات والعبادات وكل ما أمر به الشرع الحنيف ليبدأ الصعود من جديد لهذه الأمة فهو قانون الله الذي لا يخلف.. فالله الله في فقه الأخلاق والمعاملات والبناء الإسلامي للفرد والأسرة والمحلة والمدرسة والجامعة والشارع والمؤسسة والمجتمع لنصبح بالقدر الذي يؤهلنا للصعود لمرضاة الله تعالى ومجد وعز الدنيا والآخرة.. ولعل من سنن الإصلاح ونحن نضع أولى خطواتنا باتجاه تصحيح المسارات الخاطئة التي أوصلت الأمة إلى حافات الهاوية، أن نحاول أن نصلح الخطأ الملازم لمشاعرنا العفوية الفطرية، وهو أن لا يكون همنا قرب هذا الشخص أو ذاك منا من ناحية القربى والنسب والجيرة والصداقة، بل يكون مقياسنا مدى صلاحيته لخدمة البلاد والعباد من ناحية العلم والدراية والأمانة والذمة والنزاهة وكل خلق كريم فاضل يجلب المصلحة العامة ويرفع الظلم ويقيم العدالة ويؤسس للتطور المنشود. فكم من جاهل وظالم وانتهازي ومستبد ومنافق وجبان وغبي صعد إلى سلم المسؤولية وأضاع الأمانة فجلب لنا الويلات بسبب هذه الخصلة الاجتماعية المتأصلة فينا فكنا سبباً في ضياعنا من حيث لا ندري، ولا ننسى أن كل أمة تعطي زمام أمورها بيد جهالها وسفاءها فإن مصيرها الدمار لا محالة، وصدق رسول الله ﷺ بقوله عندما سئل عن الساعة (**إِذَا ضُيِّعَت الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**) قيلَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ (**إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**)، قال بعض مفسري الحديث أي انتظروا ساعة النهاية لهذه الأمة. فهل سنفرق بين المصلحة الشخصية ومصلحة الأمة، هل سنعرف ما هو الذاتي وما هو الموضوعي؟، ومن المستحق لتسلم الأمانة من المدعي المتفيقه؟!..

- **الكسب والرزق الحلال:** ومما يقرب النصر لنا وما هو داخل في دور المواطن العادي وليس ضمن واجب المؤسسة أو التجمع وإنما هو دافع ذاتي، الإكثار من التعبد

ومراقبة الله تعالى ومن أهمه أن يكون الشخص منا متحرياً للكسب الحلال، لأننا إن لم نفعل ذلك فلن ننصر ولو قضينا الدهر دعاءً وبكاءً، فهذا قانون سنه المصطفى ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، فقد أخرج الإمام مسلم (صلاة المسافر... ١٢٦٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ)**... وأخرج البخاري في صحيحه (البيوع ١٩٤١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ **(لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ أَمِنْ حَلاَلٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ)**.. وأخرج مسلم (الزكاة ١٦٨٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ** (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) **وَقَالَ** (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ)**.. وهنا نشير إلى التساهلات الكثيرة التي يبيحها البعض لنفسه هذه الأيام على أنها حلال وهي للحرام أو للشبهة أقرب، كتحليل سرقة الدولة، والمتاجرة بالدين، وأكل الربا بمسمياته المختلفة، وتحليل خدمة المحتل والتجارة معه، وغير ذلك.

٢- الحل المتعلق بأولياء الأمور، وهم الحكام والملوك والرؤساء: والحل فيها يتلخص بتطبيق المنهج الإسلامي... وهنا لا أريد أن أكون نمطياً أو واعظاً تقليدياً لأنني أؤمن بالعلمية التجريبية، وإنما أضرب مثلاً بدولة السويد غير المسلمة. إذ أصاب اقتصادها خلل وشبه شلل إبان الثمانينيات من القرن المنصرم، فطبق السفير أولف بالمه - هذا الرجل الفذ الذي اغتيل غيلة وظلماً من قبل أحفاد قتلة الرسل والأنبياء- النظام الاقتصادي الإسلامي الذي اقترحه على البرلمان لمدة محددة من قبيل التجربة، ونجح في إنقاذ بلده، ولكن كانت مكافأته مقابل ما أسداه من خدمات لبلده أن يقتل.. فأقول لأولياء الأمور: لقد جربتم سبلاً عديدة منها الغث ومنها السمين بل وحتى المضحك، فلمَ لا تجربون الحل الإسلامي بتطبيق الشرع في كل مجالات الحياة حتى وإن لم تعلنوا أن القرآن هو الدستور أو أن الدولة إسلامية، فالمهم التطبيق الفعلي وليس الشعارات. فإن نجحت التجربة فإن الناس ستسجل لكم إنقاذها من وضعها المزري، وإن لم تنجحوا —

وهذا لن يكون- فهي تجربة مما جربتم برأسنا طيلة أكثر من ١٠٠ عام. فوالله لو طبقنا كل النظريات الواحدة تلو الأخرى واستمرينا بذلك طيلة الدهر بأسره فلن نحصد إلا مزيد من الخيبة والخسران والذلة والمهانة، لأن ذلك قانون جاء به القرآن الكريم مخاطباً كل العصور، وهو أننا لو أنفقنا ما في الأرض جميعاً لنجمع الناس ونعدل بينهم فلن نستطيع إلا بما شرعه الله تعالى: ﴿...لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾، (الأنفال:٦٣).

٣- **الأخذ بالأسباب**: كما ويدخل قانون الأخذ بأسباب القوة بكل مجالاتها في قوانين وسبل الحل التي نحاول استنباطها من كتاب الله تعالى، إذ يقول تعالى ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾، (الأنفال:٦٠).

أسباب القوة المقصودة في الآية لا تقتصر على النواحي العسكرية فحسب وإلا لما كان النص قد عطف رباط الخيل عليها. القوة هنا هي كل أسباب المنعة والتحصين المادي المتأتي من الأخذ بالسبب والتخطيط والحسابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والعلمية والبناء الفكري والتعليمي والتربوي والنفسي وكل ما يدخل في ميدان السباق هذا.

٤- **الدعوة والتحاور مع الجميع**: وأيضاً من سبل الحل ما يكون من حوار الحضارات مع الغرب والشرق، على أن لا يكون من باب الاستجداء، وإنما من باب عزة المسلم، لأن الإسلام هو الحق المطلق، والدعوة إليه بالحكمة واجبة، فيجب العمل على أخذ اعتراف كل الأمم بهذا الدين بالحوار والحجة الدامغة.

ميكانيكية العمل

من الأساليب الناجعة والمؤثرة في تعجيل سرعة النهوض للأمة على المستويين سابقي الذكر -الدولة والمجتمع- ما نختصره:

١ -**إقامة المشاريع الخيرية**: التي يقوم عليها أهل الخير والفضل واليسر المادي ﴿وَلَا

يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾، (النور:٢٢).. ومن هذه المشاريع ما هو للداخل الإسلامي ومنها ما هو للخارج، أما للداخل فمنها مثلاً مشاريع الزواج ورعاية الأسرة، مشاريع الصحة والرياضة الجسمية والعقلية، مشاريع بناء المساجد والمدارس الفهية والدعوية ومشاريع التثقيف والتعليم الديني وبالاتجاهين الأفقي الدعوي والعمودي الفقهي والذي سنوضحهما في نقطة لاحقة أدناه... وأما للخارج فمنها مشاريع الدعوة إلى الله تعالى بالأساليب الحديثة وفي كل دول العالم.

وفي كل الأحوال تحتاج المسألة إلى أخطر وأهم ميكانيكية وتقنية ألا وهو الإعلام، فيجب إنشاء المطابع الحديثة ودور الترجمة للغات العالم المختلفة والإذاعات والفضائيات المنافسة المدروسة المناهج والمتطورة التقنيات... والأفضل أن يكون العمل مؤسسياً وليس شخصياً، لأن مردوده ونتائجه أكبر بكثير، فعندما سأل السياسي الأمريكي المعروف روبرت كرين الذي أسلم وأبدل أسمه إلى فاروق عبد الحق، ماذا تتوقع بشأن الإسلام في أمريكا والعالم؟، أجاب: لقد أصبح العالم الآن أصغر ويمكن الوصول إلى الإسلام الحقيقي بوساطة وسائل الإعلام وتحسن الاتصالات، لذا لا يمكن حجب الإسلام بعد اليوم، فلقد أنشأت الحضارة الإسلامية الأسلوب العلمي كطريقة للتفكير ولالتماس الحقيقة، ولقد استعار الغرب منها ما رآه ينقصه ولكن دون العامل الروحي وهنا يكمن الخطأ.. وضرب مثلاً أنه ألقى محاضرة عن الإسلام في جامعة جورج تاون وكان نتيجتها أن من ٢١ طالباً أسلم ٧ وأما الباقون فقد قالوا إنها أحسن دورة شاركوا فيها..

٢- فك وإزالة بؤر الخلاف والاختلاف في الداخل الإسلامي: إذ بإزالتها نكون قد وصلنا إلى أهم وأخطر حلقة في النصر والعزة ألا وهي الاعتصام جميعاً دون استثناء بحبل الله، وهو ما سبق وأن أشّرناه في ذكرنا للاستثناءات الخاصة بالإسلام: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾، (آل عمران:١٠٣).. ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾،

(آل عمران:١٠٥)... وهنا يجدر الإشارة إلى وجوب تحسين النوايا وجعلها خالصة لله بعيدة عن سلطان الكراسي والنفوذ وما إلى ذلك. كذلك فإن عقد المؤتمرات والندوات وإقامة المحاضرات بما يقرب وجهات النظر لجعل مصلحة الأمة فوق كل شئ يعتبر من الأساليب الموصلة للهدف وبسرعة، فمثلاً في مجال التقارب المذهبي بين السنة والشيعة عقد مؤتمر مشهور في القرن التاسع عشر في مدينة النجف بالعراق سمي باسمها، ودارت فيه نقاشات معمقة لأوجه الخلاف بين الفرقتين، فكانت من أهم نتائجه الرائعة أن خرج الشيعة بقصائد تذرف لها الدموع في مديح الصحابة وعلى رأسهم أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم. فلماذا لا تتكرر هذه المؤتمرات الناجحة التي تخدم الأمة بدل من تركيز الفضائيات على أوجه الخلاف والإصرار على التفريق وإثارة النعرات بدعوى الإعلام الحر والإثارة الإعلامية التي ذبحتنا بسكين عدونا المسماة فرق تسد.

كما ويدخل ضمن ذلك أيضاً إفهام العامة بضرورة نبذ التعصب وقبول الرأي الآخر لأننا مسلمون وأولى أن نتقبل بعضنا البعض، وإذا كان الشرع الحنيف يحثنا على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بما هو أحسن مع أهل الكتاب وأهل الكفر لإفهامهم حقيقة الإسلام، فحري أن يكون ذلك شعارنا مع أبناء جلدتنا مهما وصلت جذور الخلاف والاختلاف إلى أعماق سحيقة، فهذه الأمة بنيت على كلمة التوحيد ووحدة الكلمة.

٣- **التدرج في التطبيق:** البدء بتطبيق الشريعة من الأدنى إلى الأعلى بعد إفهام الناس عظمة التشريع الإسلامي في كل المجالات. وبهذا نبدأ البناء من قاعدة الهرم صعوداً إلى أعلاه، ولأن الهدم سريع والبناء بطئ متدرج، فهكذا إسلامنا متدرج بكل مراحله منذ البعثة الشريفة وكيفية تحويل مجتمع الجزيرة إلى المجتمع الرائع الذي وصل إليه بعد جهاد النبي ﷺ وأصحابه الكرام، مروراً بكل عملية إعادة بناء على يد المجددين وكما أسلفنا في فصل الاستثناء، وأوضحناه خلال الاستشهاد بأحاديث المصطفى ﷺ حول عرى الإسلام التي ستنقض في فصل الفتن، والبشرى النبوية التي سنبينها في الخاتمة حول عودة الخلافة على منهج النبوة بعد فترات الابتعاد والتشرذم... أي أننا يجب أن نمنهج البناء ولا نقفز فوق حقيقة التدرج في البناء لأن ذلك من شأنه أن يقوض كل ما نبني ولن نصل إلى نتيجة وكما أخبرتنا تجربتنا الأخيرة خلال القرن المنصرم، فصدق القائل:

ألا متى يبلغ البنيان تمامه   إذا كنت تبني وغيرك يهدم

فالصحابة الكرام تدرجوا في تطبيق الشريعة في أنفسهم وأهليهم ومعاملاتهم الأخرى بعد أن تعلموها من النبي ﷺ، فكانوا رضوان الله عليهم يحفظون الآية والآيتان ولا ينتقلون إلى التي تليها حتى يطبقوها لتصبح جزءاً من حياتهم، فأصل الشريعة بكتابها وسنتها للتطبيق وليست للحفظ، وإنما الحفظ أسلوب تعزيزي ليتم حفظها من أي تبديل وتحريف في الصدور قبل السطور. والآيات في ذلك واضحة جلية، يقول تعالى ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، (الأنعام:١٥٥).. ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾، (إبراهيم:١).. ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، (ص:٢٩).. ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾، (الرعد:٣٠).

وإذن الآيات يجب أن تتلى وتتدبر لتطبق فتخرج الناس من الظلمات إلى النور، والمعادلة القرآنية الواضحة التي سبق وأن ذكرناها في كتابينا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم) و(القرآن منهل العلوم)، تدل على أن التدرج في العلم يؤدي إلى الخشوع والإخبات: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، (الحج:٥٤)، وهذه المعادلة تنطبق على جميع البشر عربهم وعجمهم، رجل كان أم امرأة، لأنها سنة وقانون التدرج.

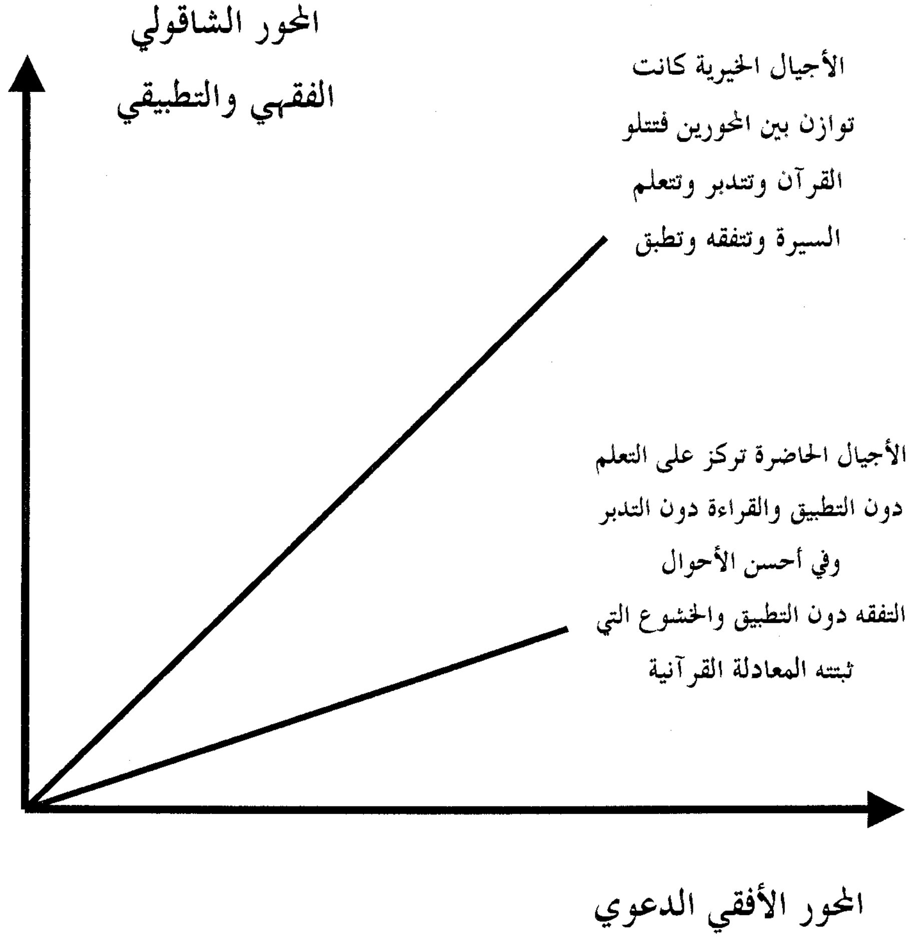
لذلك إذا أردنا صياغة المسألة الدعوية لتطبيق شرع الله تعالى بأسلوب هندسي، نقول أن الدعوة إلى الله تعالى تكون بقسمين أو محورين:

أ- **المحور الأفقي الدعوي**: وهو يمثل دعوة الناس لمعرفة عظمة خالقهم وروعة دينهم، وتكون أما بأسلوب القصص القرآني، أو السيرة النبوية الشريفة، أو الإعجاز القرآني والنبوي بشتى صوره وأساليبه، أو التذكرة بالآخرة وأمور العقائد وغيرها. ويساهم هذا المحور في زيادة وعي العامة بأمر الدين الذي انتزع منهم في غفلة مما يدفع بمن يجهل ليكون أكثر حذراً من السقوط في شرك الأفكار المنحرفة ويساهم في عودته

لربه الذي يكون أكثر فرحاً بهذه العودة من فرح الأم المكلومة بفقد ابنها حين تجده كما ينبأنا الله تعالى في الحديث القدسي. وينهض بهذه المهمة من شرفهم الله تعالى بها فيكونون واعين لدورهم مسلحين بكل ما يؤهلهم لأدائها، وأي شرف بعد هذا الشرف أن يكونوا على طريق أنبيائه ورسله، ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾، (يوسف:١٠٨).

ب- **المحور الشاقولي الفقهي والتطبيقي**: وهو يمثل التفقه في الدين والدخول فيه بعمق أي عمودياً، وهذا يتطلب تعليم العلوم الشرعية في اللغة والفقه والعقيدة والحديث ومنها على سبيل المثال لا الحصر علوم اللغة والتفسير كالنحو الصرف وفنون البلاغة وعلوم الاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والقراءات، وذلك لمعرفة شرح مفردات الألفاظ ومعلوماتها بحسب الوضع وإعرابها وتصريفها وقراءتها. كذلك معرفة علوم الأصول كأصول الدين، وعلوم الفقه وأصوله، وعلوم الحديث فالأحاديث الصحيحة مبينة للمجمل والمبهم، والتي بها مجتمعة تعرف الأحكام من دلالات النصوص باعتبار المعاني وضعاً واستعمالاً في الخاص والأمر والنهي والمطلق والمقيد والعام والتخصيص والمشترك والحقيقة والمجاز، منطوقاً ومفهوماً، وضوحاً وخفاءً في الدلالات القطعية والظنية والغامضة... ولا ننسى علوم القرآن كعلم أسباب النزول، وبه تفهم الآية بحسب ما أنزلت فيه من أحداث، وعلم الناسخ والمنسوخ، وبه يعرف المحكم وغيره... وهذا كله يؤطر بالأساليب التطبيقية لجعل الشريعة منهاجاً يومياً في حياة الناس في فقه المعاملات والأخلاق وآداب التصرف والسلوك كي نتحول إلى الأمة التي تنتسب فعلاً لا اسماً لمنهج النبوة الكريم الفاضل.

من كل ذلك وبمقارنة بسيطة بين ما كان من أمر الأجيال أو القرون الخيرية الأولى — جيل الصحابة والتابعين وتابعيهم- التي أخبر عنها المصطفى ﷺ، وبين الأجيال اللاحقة وخصوصاً أجيالنا الحاضرة، نجد أن التطبيق بين المحورين كان متوازياً أي نسير في المحور الأفقي مع تبحر في التطبيق وعلوم الشريعة. بينما أجيالنا الحاضرة تركز على المحور الأفقي أكثر، وقد تكون لها عذرها لأن الهدم الذي حصل لعرى الإسلام كما أسلفنا كان سريعاً فيتطلب أولاً إرجاع الناس لفهم ومعرفة ربها ودينها بشكل عقائدي أفقي ومن ثم الانتقال إلى التبحر في الاتجاه التطبيقي الفقهي.



كل يوضح مقارنة بين جيلنا والأجيال الخيرية في كيفية فهم العلاقة بين التعلم والعمل والتفقه لتطبيق والتي ثبتها القرآن الكريم في المعادلات التي أشرناها في الآيات المباركات آنفة الذكر ومنها قوله تعالى في الحج(٥٤):﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ ﴾.

وبمجموع هذين المحورين نكون قد وضعنا الأمة على الخطوات الصحيحة باتجاه الصعود الجديد الذي عمله كل المجددون الذين ظهروا عبر التاريخ الإسلامي المتجدد والخلاق كعمر بن عبد العزيز وأبو حامد الغزالي وعبد القادر الكيلاني وابن تيمية والرازي والعز بن عبد السلام ومحمد بن عبد الوهاب والإمام البنا وغيرهم من أماجد هذه الأمة رحمهم الله تعالى ورضي عنهم...

وإذا سمح لنا بتمثيل ذلك هندسياً لأغراض المقارنة فيمكن رسم العلاقة التي يبينها الشكل المبين أعلاه.

٤ -تقوية الاقتصاد الإسلامي: وفي ذلك قوة للمسلمين على جميع الأصعدة والنواحي الفردية منها المتمثلة بحسن توزيع الثروات على الناس وخلق وظائف لهم وتمكينهم من سبل العيش الرغيد، والجماعية على مستوى الدول والتجمعات الاقتصادية المبنية على أسس اقتصادية شرعية متينة. والله تعالى يحب العبد القوي ولا يرضى لعباده المنتمين لأمة حبيبه ﷺ أن يكونوا ضعفاء، فكل ذلك يدخل ضمن مفهوم الآية الكريمة ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ... ﴾، (الأنفال: من الآية ٦٠). والقوة كما لا يخفى على أهل اللب من أمثال حضراتكم لها عدة أذرع يشكل الاقتصاد والمال أهمها لأن حوله تدور بقية المحاور.. كما يدخل في هذا المحور عملية توزيع الثروات على الأمة المتمثلة بالأمر القرآني الذي ذكرناه في بداية الكتاب والمتعلق بالمبدأ الاقتصادي المهم من قوله تعالى ﴿... كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾، (الحشر: من الآية٧).. وفي هذا قد يسأل سائل، أليس المسألة تدخل ضمن واجب الحكومات، فنقول ليس بالضرورة، إذ يمكن لأهل العقد والرأي والمال والفضل أن يشتركوا في تشكيل الأعمال والمشاريع الخيرية التي ذكرناها في النقطة الأولى.

٥- إفهام العالم حقيقة الإسلام: وهذا هو دور الدول حكومات ومحكومين رعاة ورعية على حد سواء، فواجب الدعاة ودعمهم لإيصال صوتهم للناس أجمعين لأن ذلك واجب على الجميع، وخصوصاً أهل الدعوة، لأن هذا القرآن سنسأل عنه جميعاً أحفظنا أم ضيعنا واجب العمل به والدعوة إليه؟!، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ

تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾، (الزخرف:٤٤)... لتعلم أخي الكريم أننا كلنا مسؤولون، فالذكر أي القرآن والشرع بعمومه لا يسأل عنه رسول الله ﷺ حسب وهو من أدى الأمانة على أكمل وجه، وإنما كل قومه ﷺ من المسلمين عربهم وعجمهم سيسأل عنه يوم القيامة، ما الذي قدموه لخدمته، وإذا لم يكن همهم الإسلام وأهله يعيش معنا في كل الأوقات كما يهمنا أمر الرزق والعيال فلننتظر مزيداً من المآسي والهزائم، فإذا كان اليهود بكل ما يعرف عنهم من بخل قد قدموا لقضيتهم المال والجهد والسعي تحت شعار (ادفع دولارا تقتل مسلماً)، فكيف بنا نحن أمة الكرم والخلق والرقي والعلم، هل نترك ديننا هكذا؟. كم نحن محتاجون لنماذج معطاة مضحية باذلة في سبيل عزة ونصرة دينها، طرحت البخل والشح جانباً لتعطي لدينها ما استطاعت كأبي بكر الصديق وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الرعيل الأول، وذلك الرجل التركي صاحب مسجد (كأنني أكلت)[1] الذي صمد أمام الزلزال المدمر.. إذن القياس هو أنه إذا كان في قلوبنا همٌّ للدين وخدمته - كل حسب استطاعته بالمال والقلم والفكر والعلم والدعوة إلى الله تعالى والخلق الرفيع والقدوة الحسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح ووحدة الصف والكلمة والتكافل وغير ذلك - كهم العيال والرزق والمستقبل فإننا على خير، أما إذا لم يتعد همنا بطوننا وفروجنا فهذا هو المقتل الذي يبتغيه لنا العدو.

وهنا نستشهد بكل فخر واعتزاز بتجربتين رائدتين في إفهام الغرب حقيقة العرب والمسلمين حتى نعلم أن الخير والأمل في هذه الأمة كبير بل وأكبر مما يتصور من يعادونها. الأولى ما قام به الدكتور الطبيب المسلم العراقي العاني المقيم في بريطانيا والأخوة الآخرون القائمون على مشروع الإرث الحضاري الإسلامي (Muslim heritage) التي تبناه موقع إسلام أون لاين باللغة الإنجليزية، والذي يبين للعالم إسهامات العلماء المسلمين الرائعة في كل مجالات العلوم والمعارف بشكل عصري متطور، ذلك الدور الذي شهد له المنصفون من أهل الغرب.. فوضح هذا الفريق جزاهم الله خيراً كيف أن الريادة في العلوم الهندسية والطبية والاجتماعية والزراعية والصناعية كانت لعلمائنا رحمة الله عليهم أجمعين، ومنهم نقلت تلك الثورة المعلوماتية لأوربا والتي

---

(١) يراجع كتاب الأرض (الكتاب الرابع) من سلسلة ومضات إعجازية للمؤلف لمعرفة القصة بالكامل.

كانت بدورها السبب الرئيس في حصول الثورة الصناعية التي أسست لعصر العلم والتقنيات الحالية..

التجربة الثانية هي الجهد الخلاق والرائع للأستاذ الدكتور المسلم السوري الحلبي بهجت قبيسي الذي يبين في بحوثه الرائعة التي تعتمد على البحث الآثاري الموقعي وفقه اللغات وتتبع الأصول والأنساب وكتب الأقدمين حقيقة كون أن العرب الكنعانيين انتشروا قبل الإسلام ومنذ حقب زمنية سحيقة في كل من العراق— ومنهم الآشوريون والآكاديون والكلدانيون–، والشام، وشمال أفريقيا — ومنهم الأمازيغ والبربر–، بل وحتى شبه جزيرة أيبيريا (أي إسبانيا والبرتغال)، والأباطرة في روما. وعندما جاء الإسلام وصعد العرب العدنانيون لنشره التقوا مع أقوام لم يختلفوا عنهم كثيراً فكانت تلك الوحدة الرائعة.. ويستدل الرجل بألواح آثارية تبين لغة هذه الأقوام، وكيف أن الخط لا يشبه خطنا العربي الحاضر ولكن اللهجة واللفظ هو عربي صرف، فجزاه الله خير الجزاء إذ يبين للعالم هو وكل من يعمل بحقله حقيقة حضارة وامتداد هذه الأمة.. وكي يفهم الغرب مدى الخديعة التي أوقعتهم بها الصهيونية العالمية والدوائر المتجحفلة معها في موضوع السامية ومظالم اليهود المزعومة وما إلى ذلك من تخاريف أملاها عليهم حقدهم على أهل الحق.

٦–**الاهتمام بالعلم التطبيقي والتجريبي والبحث العلمي**: وهنا يجب إدخال الأجيال الإسلامية في معترك الحياة البحثية العلمية والتجريبية جنباً إلى جنب مع تعليمهم العلم الشرعي، لأن في ذلك أخذ بأسباب القوة من جهة وتحقيق لقانون الله في الاستخلاف الذي نبهنا إليه في البداية، ومن أحق بالعلم وأسبابه من المسلم الخلوق التقي الورع الذي يمشي على الأرض هوناً، فالحكمة ضالة المؤمن أين ما وجدها فهو أحق بها كما علمنا سيد الخلق وأشرف معلم مشى على الأرض صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه والتابعين.. إذ لماذا مثلاً يشكل علماء المسلمون والعرب نسبة كبيرة ضمن مجموعة علماء وكالة الفضاء الأمريكية — ناسا– والتي تتحف العالم باختراعاتها، بينما يعاني علماؤنا الأمرين في بلدانهم مما يضطرهم إما للهجرة لبلدان الغرب فيصبوا علمهم وخبرتهم في جعبة تلك البلدان، وإما أن ينسحبوا نتيجة الإحباط فيعملون في مجالات ليست لهم لتخسرهم شعوبهم وأوطانهم والأمة من بعدهم؟!.. السؤال مطروح للإجابة، ولكنه يجيب عن تناقض طالما حير الكثيرين منا، وهو أننا نعتقد أن الغربيين أذكى وأفهم منا نحن

المسلمون، بينما الحق هو واقعنا التخطيطي والاجتماعي والاقتصادي المؤلم يؤشر ذلك، وليس هو نقص في طاقاتنا الذهنية.

٧- **تحقيق العدالة:** وفي هذا يطول الكلام لأن التكبيل والحرمان والظلم هم أساس لكل تخلف وضياع ومفسدة، ومن هنا نقول علينا التغيير لنقبل بعضنا البعض ونتخذ خطوات جريئة تمكننا من الانتقال إلى تحقيق العدالة، مثل السماح بإشراك أهل العقد والرأي من المفكرين والعلماء في قرارات الأمة المصيرية كي تبنى على أسس صحيحة، وكذلك فك القيود والأغلال من أعناق وأيادي الناس لتتحطم معها قيود أزمة الثقة بين الحاكم والمحكوم.

كل تلك النقاط يمكن أن تقوم بها الحكومات أو الحركات و الأحزاب و المؤسسات الخيرية وكل أطراف المجتمع المدني، بل و حتى تجمعات أو أفراد تعمل بمنهجية وهمة وتخطيط ودراسة. وليكن شعارهم قول الحسن البصري ﷺ في تنظيره للخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز - أو الراشدي الخامس كما يطلق عليه لعدله ﷺ - إذ بعث الخليفة إلى عالم البصرة التابعي الجليل بكتاب يقول فيه: (من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى العالم والتابع الجليل حسن البصري: اجمع لي بإيجاز بين أمري الدنيا والآخرة في كتاب).. فأجابه البصري:(إنما الدنيا حلم والآخرة يقظة والموت متوسط ونحن في أضغاث أحلام.. فمن حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر.. ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم ومن خاف سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل.. فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك)... فتأملوا أي رقي وفطنة وتنظير هذا الذي جاءت به أمتنا لهذا العالم..

وأما السبيل إلى استقلالنا بحضارتنا الإسلامية مع التفاعل البناء مع كل الحضارات الأخرى دون المس بالمفاهيم والأسس المميزة لشخصيتنا فهو:

١- أن نعود إلى فهم إسلامنا وقرآننا بشكل صحيح، فلا عزة لنا إلا به يقول عمر ﷺ «أيها العرب لقد أعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزة في غيره يذلكم الله».. ولنا في تجربتنا منذ أن خلعنا الإسلام عنا وما صاحب ذلك من هوان لنا التجربة والعظة حتى ليقول احدهم: «العرب صراصير متى شئنا دسناهم بأقدامنا».

٢- أن نستقل بشخصيتنا الإسلامية فلا تقليد ولا تبعية في المظهر والمخبر والاقتصاد

والسياسة والاجتماع والعادات والتقاليد، وقد قال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾، (آل عمران:١١٨).

٣- أن نقوم على خدمة ديننا وكتاب ربنا وسنة رسولنا ﷺ بكل صنوف الخدمة وأنواعها التعليمية منها أو الفكرية والمالية والنفسية والاجتماعية والعسكرية وغيرها، وكذلك بقية حدود الله المنسية والبعيدة عن واقعنا حتى يعلم أعداء الله إنا امتداد لذلك السلف الذين أذلوا الكفر وأهله ولم يتجرأ يهودي أو صليبي أن يرفع رأسه متجبراً علينا إلا في عصرنا الأسود الذليل هذا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[1].. كما وأن الأمر لله من قبل ومن بعد، فكما أن الله تعالى قد هيأ الظروف عند بداية الدعوة الشريفة في كل أمم الأرض لنشرها بالكلمة والعقل والتدبر والحكمة والسيف، فإنَ الظروف في بقية العصور خصوصاً في عصرنا الراهن مهيأة لنشر الدعوة بطرق أبدلنا الله تعالى بها لتتهيأ ظروف علمية وتقنية تكون الدعوة فيها مطروحة على بساط النشر حسب مقتضيات عصرنا الرقمي هذا، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ولكن ما الذي علينا فعله لنصرة الدين والأمة، هل نتركه هكذا يفعل بأهله ونقول النصر قادم، لا يا أخوة، الحل هو في القانون الاستثنائي الذي خص الله به هذه الأمة وهو العودة إلى الله تعالى، ستقولون إن الكثيرين يصلون ويقيمون العبادات ويدعون فما المطلوب بعد ذلك؟.

الجواب في الحديث الشريف الذي ينبئنا أن المشكلة ليست في العبادة وإنما التنافس والمعاداة فيما بيننا وترك الجماعة واستسهال الحرام بكل أنواعه من أكل الربا والسحت والزنا ومال اليتيم وكذب وغيبة ونميمة وقتل وهتك أعراض وغير ذلك، فأصبحنا كمن يدير ظهره لتعليمات وأوامر الله تعالى في كتابه الكريم فعلينا أن ننتظر أن الله تعالى ليس له عهد معنا لأننا لم ننصر دينه بإقامة شرعه فلا يمكن أن يكون هناك تدخل لنصرتنا فنترك للحسابات الدنيوية الفنية البحتة التي يعلم الجميع أنها ليست لصالحنا وعليه لا يمكن أن ننتصر.

لقد مرت بنا نكسات كثيرة وصعاب عديدة بسبب ابتعاد بعضنا عن الدين

---

(١) عن كتاب المنهاج مع بعض التحوير والإضافة، الشيخ هاشم محمد / الجزء الثاني/ ص١١٢.

وانغماسهم في ملذات الدنيا أو الهوى والآراء وضعية، ولعل أبرز هذه الحالات كانت في الأندلس وصقلية وشرق أوربا وشرق وأواسط آسيا ثم تركيا ففلسطين وأفغانستان، وأخيراً العراق، وكأن هذه المحطات كانت تحدث دائماً لنفس الأسباب ليرينا الله بها أن لا مفر لنا إلا الرجوع إليه لننتصر، فهل نحن فاعلون كي نعيد صعود حضارتنا من جديد، فتلك هي سنن الله تعالى في الأقوام والقرى ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ ، (الأحزاب:٦٢).. ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾، (الفتح:٢٣).

وإن ما حدث ويحدث في فلسطين من انتفاضة مباركة، وما حدث في الولايات المتحدة من يوم الثلاثاء أو ما يعرف بأحداث ١١/أيلول ٢٠٠١م، وما تلاها من تكالبهم على الإسلام والمسلمين في كل مكان ومنهم شعب أفغانستان المسلم الشقيق، ومن ثم غزوهم للعراق، وإعلانهم أنها حرب صليبية جديدة، كل ذلك يؤشر بداية النهاية لدولتهم المتغطرسة، وزوال ملكهم البائس، فكما يقول أحد منظريهم إن الفقاعة التي بنتها أمريكا من قوة وتقنيات لتحكم بها العالم ستنفجر عليها لتحطمها وتجعلها أثراً بعد عين(١).

ليس هذا الكلام من باب الأماني والأحلام، وإنما وقائع وثوابت وحقائق تأريخية تؤكدها سنة الله في الأرض وقانون التاريخ الذي رسم قيام وزوال الدول والامبراطوريات عبر الحقب الزمنية المتعاقبة من تاريخ البشرية. هذه الحقائق ذكرها أيضاً كبار منظري السياسة الأمريكية، وكذلك كبار الاقتصاديين الأمريكان الذين أشروا العجز الاقتصادي الأمريكي والمصير الأسود الذي ينتظره، فضلاً عن التنبؤات الفلكية والجيولوجية التي تم تأشيرها من قبل العلماء المختصين من أن هناك كوارث مدمرة ستقع بالولايات المتحدة الأمريكية في العشرين سنة القادمة ستحيلها إلى خراب ودمار هائلين وكما أشرنا آنفاً، ولله جنود السماوات والأرض.

---

(١) هذا الكلام منقول عن أحد المواقع في شبكة المعلومات الدولية (موقع الجزيرة– نت).

الفصل الثالث

(المشهد الثالث لمثال الشلال)

الخاتمة (قانون النصر)

وبعد كل ذلك هل هناك من مجال للإحباط واليأس في حياة المسلم خصوصاً إذا ما علم أن النهاية التي بشرنا بها الله تعالى هي نصرة الإسلام وهو المنظر الثالث من مناظر مشهد ومثال الشلال، أي تلك الانسيابية والرقراقية والجمال للماء وكما حصل عبر تاريخ الإسلام الطويل، وكما تعبر عنه الآيات القرآنية الآتية التي ترسم قانون النصر الذي لا مفر منه ولو كره الكافرون والمشركون والمنافقون.

يقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾، (الأنفال:٣٦).. و يقول تعالى. ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾، (التوبة).. ويقول أيضاً ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾، (الفتح:٢٨)... ويؤكدها سبحانه ثالثة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾، (الصف:٩).. وكلمة (ليظهره) اللام سببية، أي ما جاء الإسلام إلا ليظهر ويغلب، وكلمة يظهره أي يجعله ظاهراً فوق الآخرين كما يكون المنظر الثالث لمثال الشلال، ماء مستقر رقراق تظهر موجاته العليا على ما دونها من موجات. أما كلمة الدين فتعني اصطلاحاً القانون، أي ليجعل دين وقانون الإسلام ظاهراً على كل القوانين الأخرى، والدليل من الكتاب قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام ﴿....مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ...﴾ ، (يوسف: من الآية٧٦)، فالدين هنا يعني قانون الملك.

ويؤكد هذا الوعد بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾، (الأنبياء:١٠٥).. ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾، الصافات. وقد ذكرنا آنفاً ما جاء في تفاسير قوله تعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾، (النور:٥٥)، في معرض حديثنا عن الاستثناءات الخاصة بالأمة..

وفي الحديث نجد تأكيداً وتفصيلاً لهذا القانون المهم، إذ ينقل الإمام أحمد في مسنده (مسند الكوفيين ١٧٦٨٠) عَنِ النُّعْمَانِ بن بَشِيرٍ قَالَ كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلاً يَكُفُّ حَدِيثَهُ فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ فَقَالَ يَا بَشِيرُ بن سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْأُمَرَاءِ فَقَالَ حُذَيْفَةُ أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ)**، ثُمَّ سَكَتَ. وقد حصلت جميع تلك المراحل باستثناء الأخيرة، فالنبوة، ثم خلافة على منهجها في عهد الخلفاء الراشدين، ثم ملكاً عاضاً أي كالثمرة التي عضت فهي ناقصة كما حصل في عهد الخلافة الأموية والعباسية والعثمانية فهي كانت ترمز للدولة الإسلامية التي تطبق الشرع لكن بخلل جوهري وهو الخلافة الوراثية التي يرفضها الشرع الحنيف الآمر بمبدأ الشورى، ثم جاء الملك الجبري وهو ما تبع سقوط الدولة العثمانية من نظام ملكي وجمهوري دكتاتوري جبري قمعي في الدول الإسلامية وهو ما شهدناه ونشهده اليوم، فلم يبق إذن سوى العودة إلى الخلافة على منهج النبوة وهو الذي سيكون بإذنه تعالى.

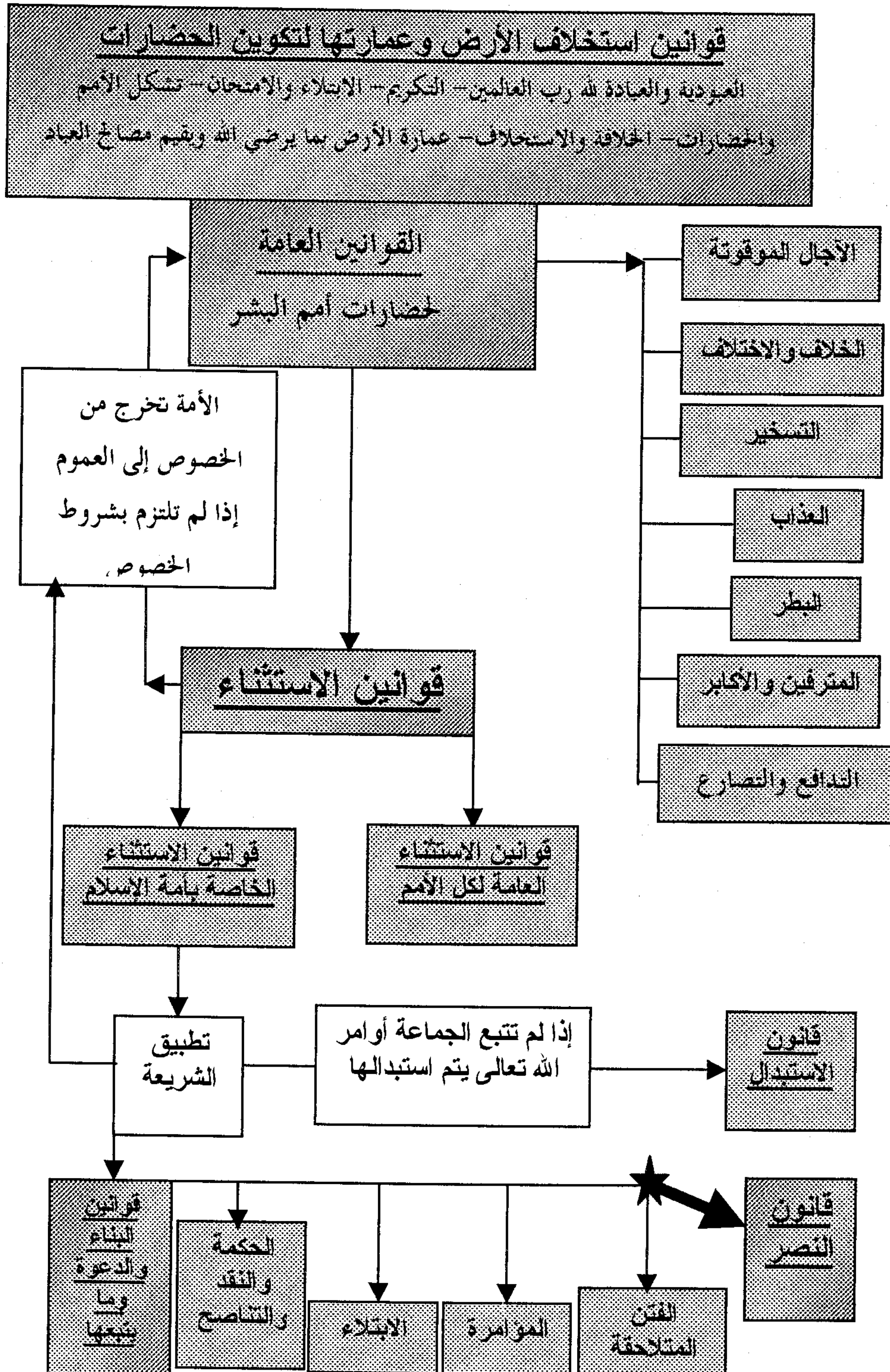
وأخرج الإمام أحمد في مسنده (مسند أنصار٢٠٢٧٥) عَنْ أُبَيِّ بن كَعْب عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (**بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ**).

أخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية وكذا في كنز العمال (٧٧/١) والحاكم عن أبي ثعلبة الخشني قال: قدم رسول الله ﷺ من غزاة له، فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين وكان يعجبه إذا قدم من سفر أن يدخل المسجد فيصلي فيه ركعتين يثّني بفاطمة ثم أزواجه. فقدم من سفره مرة فأتى فاطمة رضي الله عنها، فبدأ بها قبل أزواجه، فاستقبلته على باب البيت فجعلت تقبل وجهه وعينيه وتبكي، فقال لها رسول الله ﷺ: (**ما يبكيك؟**)، قالت أراك يا رسول الله، قد شحب لونك، واخلولقت ثيابك، فقال لها رسول الله ﷺ (**يا فاطمة لا تبك فإن الله بعث أباك بالحق بأمر لا يبقى على ظهر الأرض بيت وبر ولا مدر ولا شعر إلا أدخله الله به عزاً أو ذلاً حتى يبلغ حيث يبلغ الليل**).. وكذا ما ذكرناه في موضع سابق من حديث المقداد بن الأسود في قوله ﷺ (**ما على ظهر الأرض بيت حجر ولا مدر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل أما بعزهم فيجعلهم من أهلها وأما بذلهم فيدينون بها**).

ويعضده الحديث الذي أخرجه الأمام احمد في مسند الشاميين عن تميم الداري (١٦٣٤٤) قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلاَمَ وَذُلاًّ يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ**)، وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ يَقُولُ قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ...

من هذه الآيات والأحاديث المباركة تجد أن المبشرات بالنصر كثيرة، ولكن علينا العمل. فكل المراحل السابقة قد مرت وحصلت، وها نحن ندخل في مرحلة الاستعداد للرجوع لمنهج النبوة، لذلك لا مجال للإحباط في حياة المسلم ولا يمكن له أن يقبل بالهزيمة لأن هذا الدين متين وهذا القرآن عظيم لا يناجزه أحد إلا غلبه كما بشرنا الهادي البشير ﷺ.

لذلك أخوة الإيمان في كل أمة الإسلام لا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون، ولا تقولون إن الإسلام انتهى وعلينا أن ندير ظهرنا له وننطلق نحو الفكر الغربي فهذا لعمري كل ما يريدونه.



مخطط القوانين القرآنية للحضارات

بعد هذا الاستعراض لأهم القوانين القرآنية لحضارات بني البشر، وقوانين الاستثناء العام والخاص، وقوانين الدعوة للخير وما ينتج عنها، وضربنا لأمثلة الأمم التي فصل القرآن الكريم والحديث الشريف فيها، نحاول جمع هذه القوانين في مخطط لفهم العلاقة على هيئة شكل تخطيطي، وهو ما نوضحه في الشكل أعلاه.

۞۞۞۞۞۞۞

إن ما حصل من سقوط محزن للعراق وحاضرة الدنيا بغداد هو بداية لنهوض الأمة تماماً كما حصل في مرات سابقة، فدائماً ما يكون لبغداد والعراق عموماً مع الأمة علاقة طردية، فقوة العراق تعني قوة الأمة وضعفه يعني ضعفها، ودائماً ما يكون صعود الأمة بعد كبواتها يأتي إثر حصول حالة التردي والسقوط لمدينة السلام بغداد، وإن ما سيكون من قوابل الأيام سيثبت هذه العلاقة التي ما أخطأت أبداً، وسبحان ربك مدبر الأمر ومقلب الأحداث في السماوات والأرض، فله الأمر من قبل ومن بعد وهو غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

۞۞۞۞۞۞۞

وأنتم يا أخوة الإيمان في قلب الأمة وأهل الرباط في فلسطين، ودرة العرب وحصة الأمة في العراق، وأهل الغيرة وصدق النية في أفغانستان لا تقولوا لماذا نحن نبتلى وغيرنا ينعم برغد العيش؟، فرغم أننا نتمنى الخير لكل المسلمين، إلا أن الله تعالى يجعل لهذه الأمة في كل عهد أقواماً يشرفهم بابتلاءات خاصة لما يعلم فيهم من خصائص.

عليكم أن تعلموا يا أخوة أن الله تعالى إذا أحب عبداً ابتلاه وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾، (القصص:٨٣)، فالدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

وهنا نستشهد بحادثة توزيع الغنائم يوم حنين وما حصل من الصحابة من الأنصار وهم من هم من المنزلة الرفيعة والقدر، فهم من تربى على يد المصطفى ﷺ ولكن بعضهم تأثرت نفسه بأمر دنيوي وهذا مما جبل عليه البشر وليس فيه عيب ولكن الإسلام يربي أهله على حب الآخرة والرضا بما قسم لهم من الدنيا. فكما جاء في السير عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺمَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺقَوْمَهُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بن عُبَادَةَ فَقَالَ يَا

رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجِدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الأَنْصَارِ شَيْءٌ قَالَ ﷺ: (**فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ**)، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلاَّ امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي وَمَا أَنَا قَالَ:(**فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ**)، قَالَ فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ قَالَ فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ قَالَ فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ: (**يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ**) قَالُوا بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ قَالَ:(**أَلاَ تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ**) قَالُوا وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ قَالَ: (**أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ أَفَلاَ تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رِحَالِكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ**) قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقْنَا.

كما ولنا الحق أن نستشهد بحادثة أخرى تدل على أن الناس يصيبها أحياناً التعب من شدة الأحداث وهول المصاعب، فكما جاء عند جل أهل السنن ومنهم الشيخان أن بعض الصحابة اشتكوا إلى الرسول ﷺ عسر الحال وصعوبة الأمر عليهم، فعن قَيْسٌ عَنْ خَبَّابِ بن الأَرَتِّ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ: (**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ**

أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ).

فاصبروا أخوة الإيمان فإن اليسر يأتي بعد العسر والفرج بعد كل شدة وقد يكون ذلك ليس في عمرنا المقدر ولكننا نتعجل النتائج، ويقيناً أن الله حافظ لدينه ناصر لأمته.. ووالله كلما ضاق الأفق فإن تباشير النصر والعز لأمة الإسلام تلوح كما علمنا الكتاب العزيز وسنة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام أجمعين، وبالأخص سنة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فتلك هي سنة الله في خلقه وامتحان عباده الصالحين الأعزاء عليه سبحانه، ولعلنا اليوم أقرب إلى النصر مما نتصور لأن الحلقة قد ضاقت كثيراً، وصدق القائل:

ورب نازلة يضيق بها الفتى … وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها … فرجت وكنت أظنها لا تفرج

ونتضرع إلى الله تعالى الذي هو سر فوز ونصر هذه الأمة عند كل الخطوب وفي كل الأوقات أن يفرج عن المسلمين ما هم فيه وأن يرينا صعود مجدنا من جديد بعد أن يسهل لنا سبل العودة الحميدة إليه تعالى:

يا من يرى ما في الضمير ويسمعُ … أنت المعدُّ لكل ما يُتوقعُ
يا من يُرجى للشدائد كلها … يا من إليه المشتكى والمفزعُ
يا من خزائن رزقه في قول كن … أمنن فإن الخير عندك أجمعُ
ما لي سوى فقري إليك وسيلةٌ … فبالافتقار إليك فقري أدفعُ
ما لي سوى قرعي لبابك حيلةٌ … فلئن رددت فأي باب أقرعُ
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه … إن كان فضلك عن فقيرك يُمنعُ
حاشا لجودك أن تُقَنِّط عاصياً … الفضل أجزلُ والمواهبُ أوسعُ
ثم الصلاة على النبي وآله … من جاء بالقرآن نوراً يسطعُ

ويظل النداء القرآني الأزلي يصرخ في الأمم كي يعلموا قوانين الله تعالى في الحضارات فيتقوا الله تعالى ويحققوا العدالة ليحفظوا كرامة بني آدم الذي كرمه خالقه، وعندئذ تكفر

عنهم سيئاتهم وتزال عنهم المصائب والمحن ويأمنون الكوارث ويأتيهم الخير كله وكل ما يرجوه ويطلبوه من ربهم رغداً، فلا يبقى محروم ولا مكلوم ولا مظلوم والكل يأخذ حقه ويقوم بواجبه، ولكن المشكلة أن الناس لا يتعظون بدروس وعبر التاريخ، ويا حسرة على العباد:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ ﴾ (المائدة:٦٥).

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾، (الأعراف).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد النبي الأمين وآله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

تم وبنعمته تتم الصالحات

بغداد- العراق

١٥ - شعبان- ١٤٢٤هـ

١١/ تشرين أول/ ٢٠٠٣م

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أ- الكتب العامة

١. أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، د. إبراهيم علي شعوط، الأستاذ بجامعة الأزهر، المكتب الإسلامي، ط/٥، ١٤٠٣هـ — ١٩٨٣م.

٢. أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث، د. محسن عبد الحميد، الطبعة الثالثة، مطبعة وزارة التربية، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٣. الإسلام بين العلماء والحكام، تأليف الشيخ الشهيد عبد العزيز البدري عام ١٣٨٥هـ -١٩٦٥م. مطبعة أنوار دجلة، بغداد، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٤. أسماء الله الحسنى أسرارها وصفاتها، الدكتور محمد بكر إسماعيل، دار المنار، ط/٢، القاهرة- ج.م.ع، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٥. الإعجاز القرآني، المؤتمر الأول للإعجاز القرآني الأول المنعقد بمدينة السلام بغداد، العراق للفترة ٢١-٢٦ رمضان ١٤١٠هـ الموافق ١٦-٢١ نيسان ١٩٩٠ م.

٦. التفسير الكبير للأمام الفخر الرازي، دار الكتب العلمية، ط/٢، طهران -جمهورية إيران الإسلامية..

٧. توحيد الخالق، عبد المجيد عزيز الزنداني، مكتبة المثنى ، بغداد، ٣ أجزاء.

٨. حياة الصحابة — ٣ أجزاء، الكاندهلوي، دار صادر، ط/١، بيروت - لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٩. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، العلامة الشيخ ابن السعدي،.ط/١ طبعة منقحة عن دار الرسالة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٠. الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، المكتب الإسلامي، القاهرة.

١١. الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد، نخبة من الباحثين، إعداد مركز البحوث والدراسات بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع في دولة قطر، ط١، جمادى الآخرة ١٤٢١هـ-أيلول ٢٠٠٠م.

١٢. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار العلوم، ط/١عمان- الأردن، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

١٣. روائع البيان لمعان القرآن مع أسباب النزول، دار الأرقم، عمان- الأردن، ط/١٤٠٧،١هـ - ١٩٩٧م.

١٤. زبدة التفسير من فتح القدير، محمد سليمان عبد الله الأشقر، ط/٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م.

١٥. سلسلة كتب (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية — ١٥ جزء-)، الدكتور المهندس خالد العبيدي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.

١٦. الشريعة الإسلامية ومكانة المصلحة فيها، القاضي فاضل دولان، مطبعة أنوار دجلة، بغداد، العراق، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

١٧. صراع الأفكار في المجتمع الإسلامي، د. محسن عبد الحميد، الطبعة الأولى، مطبعة وزارة التربية، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١٨. صِدَام الحضارات - إعادة صنع النظام العالمي، صامويل هنتجتن، ترجمة طلعت الشايب، دار الكتب المصرية، ١٩٩٨م.

١٩. صفوة البيان، محمد حسين مخلوف، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ — ١٩٨٦م.
٢٠. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ٣ أجزاء، دار القرآن الكريم، ط٢، بيروت، ١٤٠١هـ — ١٩٨١م.
٢١. صناعة الحياة، د. محمد أحمد الراشد، دار المنطلق لنشر وتوزيع الكتب والقرطاسية، دبي، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط/٢، ١٤١٢هـ — ١٩٩٢م.
٢٢. علوم الحديث، د.عبد الكريم زيدان/عبد القهار داود عبد الله، مطبعة عصام، بغداد، ط/٢، ١٤٠٩ هـ- ١٩٨٨م.
٢٣. علوم القرآن الكريم، الأستاذ الشيخ عبد الرحيم فرغل البليني، تحقيق الدكتور رشيد نعمان التكريتي، طبع دار الرشد، بغداد، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
٢٤. العولمة والأقلمة، اتجاهان جديدان في السياسة العالمية، د. ريتشارد هيجوت، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط/١، ١٩٩٨م.
٢٥. في ظلال القرآن، ٦ أجزاء، للسيد قطب، دار الشروق، بيروت.
٢٦. القرآن منهل العلوم، د. خالد العبيدي، طبع الجامعة الإسلامية ببغداد ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
٢٧. كتاب المنهاج، الشيخ هاشم محمد، سلسلة بعدة أجزاء، دار البيان، الكويت، سنوات مختلفة.
٢٨. كيف نتعامل مع القرآن الكريم، د. يوسف القرضاوي، سلسلة كتاب الجيب (٣)، المكتب الإسلامي، القاهرة.
٢٩. المبشرات بانتصار الإسلام، د. يوسف القرضاوي، سلسلة رسائل ترشيد الصحوة (٩)، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط١، عمان، الأردن، ١٤١٩هـ —١٩٩٦م.
٣٠. مجلة الأسرة الإسلامية السعودية، أعداد مختلفة.
٣١. مجلة البيان الإسلامية السعودية، أعداد مختلفة.
٣٢. مجلة التربية الإسلامية العراقية، أعداد مختلفة.
٣٣. مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، مطبعة الزهراء الحديثة، ط/٢، الموصل، العراق، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٣٤. مذهبية الحضارة الإسلامية وخصائصها، د. محسن عبد الحميد، شركة الرشد للطباعة والنشر المحدودة، بغداد، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٣٥. المنظار الهندسي للقرآن الكريم، د. خالد العبيدي، دار المسيرة، عمان، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
٣٦. هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، د. ماجد عرسان الكيلاني، الدار السعودية للنشر والتوزيع.
٣٧. يوم الغضب هل بدأ بانتفاضة رجب، الأستاذ سفر الحوالي، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

ب ـ المعاجم والفهارس اللغوية

١. قاموس المورد إنكليزي — عربي، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ١٩٦٧.
٢. معجم تفسير كلمات القرآن، محمد عدنان سالم ومحمد وهبي سليمان، دار الفكر المعاصر، ط/٢، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
٣. معجم اللغة العربية، مختار الصحاح، الإمام محمد أبو بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة النهضة، بغداد — ١٩٨٣.

٤. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ط٢، بيروت، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

٥. المعجم الوجيز، طبعة دار التحرير، ١٩٨٩م.

جـ ـ برامج الحاسوب

١. برنامج القرآن الكريم على الحاسبة الإلكترونية، نسخة تحتوي تفاسير ابن كثير والقرطبي والجلالين، قرص مدمج، إصدار شركة صخر لبرامج الحاسوب، الإصدار السادس، ١٩٩١-١٩٩٦م.

٢. برنامج المترجم الوافي (ترجمة عربي – إنكليزي وبالعكس)، ATA Software، الإصدار/٢.

٣. برنامج مصحف النور للنشر المكتبي، قرص ٣،٥ إنج، إصدار شركة سيمافور للبرامجيات، الإصدار الثاني.

٤. برنامج مكتبة أصول الفقه، قرص مدمج يحوي مئات المجلدات من أمهات كتب ومراجع الفقه وأصوله، إصدار دار التراث، عمان، الأردن.

٥. برنامج مكتبة التفسير وعلوم القرآن، قرص مدمج يحوي أكثر من ٤٠٠ مجلد من أمهات كتب ومراجع التفسير وعلوم القرآن المختلفة، إصدار دار التراث، عمان، الأردن.

٦. برنامج المكتبة الألفية للسنة النبوية، نسخة تحوي على ١٠٠٠ مجلد من كتب الحديث الشريف، قرص مدمج، دار التراث، الإصدار الأول.

٧. برنامج مكتبة الحديث الشريف على الحاسبة الإلكترونية يحتوي على ٤٥٠ كتاب من كتب الحديث الشريف، قرص مدمج، شركة العريس للكومبيوتر وأنظمة الحواسيب.

٨. برنامج موسوعة الأحاديث القدسية، إنتاج شركة الوسائط التعليمية (أوديوميديا)، الإسكندرية – جمهورية مصر العربية، سنة ٢٠٠١م.

٩. برنامج الموسوعة الإسلامية المعاصرة، قرص مدمج يحوي مئات الكتب من أمهات المراجع الشرعية والفقهية واللغوية، الإصدار الثالث، ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م.

١٠. برنامج موسوعة بريتانيكا ٢٠٠٢م، مجموعة ٣ أقراص مدمجة لأحدث موسوعة بريطانية لعام ٢٠٠٢م.

١١. برنامج موسوعة الحديث الشريف على الحاسبة الإلكترونية، نسخة تحتوي على الكتب التسعة ومتونها، قرص مدمج، شركة صخر لبرامج الحاسوب.

١٢. برنامج الحضارة الإسلامية، سلسلة أقراص مدمجة تبين الحضارة الإسلامية بتنوع دولها، إنتاج شركة (RDI).

١٣. برنامج موسوعة الدكتور طارق السويدان، آية سوفت للإنتاج والتسويق الفني والبرامجيات، القاهرة– جمهورية مصر العربية.

١٤. الموسوعة الميسرة في علوم القرآن، قرص مدمج.

١٥. برنامج موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري، بيت العرب للتوثيق العصري والنظم.

د ـ مصادر أخرى:

١. شبكة المعلومات الدولية – مواقع علمية وتحليلية رصينة.

٢. قنوات فضائية وإذاعات مختلفة علمية وتحليلية رصينة.

أعمال للمؤلف

١. كتاب (**المنظار الهندسي للقرآن الكريم**)، دار المسيرة، عمان- الأردن، ط / ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢. كتاب (**المنظار الهندسي للقرآن الكريم**)، دار المسيرة، عمان - الأردن، ط / ٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٣. كتاب (**أنت والأنترنت- جلّ ما تحتاجه من خدمات الشبكة العالمية-**)، دار الرشد، ط/١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٤. كتاب (**القرآن منهل العلوم**)، طبع الجامعة الإسلامية، بغداد، ط/١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٥. كراس (**مواصفات الفحوص المختبرية لأعمال الهندسة المدنية**)، مع مجموعة من المختصين،١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٦. كتاب (**القوانين القرآنية للحضارات -النسخة المختصرة، ١٢٥ صفحة من القطع الصغير-**)، طبع ببغداد عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٧. سلسلة كتب (**ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية- ١٥ جزءاً-**)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

أ. التأريخ والآثار.

ب. المادة والطاقة.

ت. الفلك.

ث. الأرض.

ج. الرياح والسحب.

ح. المياه والبحار.

خ. النبات والإنبات.

د. الحيوانات والحشرات.

ذ. الطب.

ر. الصيدلة والأمراض.

ز. الوراثة والاستنساخ.

س. الجملة العصبية والطب النفسي.

ش. الأحلام والباراسايكولوجي.

ص. الاقتصاد والاجتماع.

ض. آخر الزمان.

٨. كتاب (**القوانين القرآنية للحضارات – النسخة المفصلة، ٣٦٥ صفحة من القطع الكبير**)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان..

٩. كتاب (**تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد**)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

١٠. عدة بحوث في مجال الهندسة المدنية منشورة في مجلات ومؤتمرات هندسية مرموقة داخل العراق وخارجه.

١١. عدة بحوث ومقالات في مجال الإعجاز القرآني منشورة في صحف ومجلات ومؤتمرات مرموقة داخل العراق.

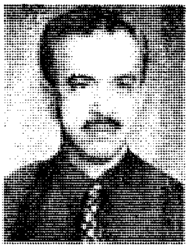
١٢. عدة أعمال مرئية تلفازية وحاسوبية في محطات محلية وأخرى فضائية عربية.

مشاريع كتب للمؤلف

١. كتاب (استنباط الحلول من أسباب النزول)، قيد التأليف.

٢. كتاب جامعي عن المواد الهندسية، قيد التأليف.

٣. تصاميم شبكات الخدمات المائية والصحية، قيد الإعداد.



السيرة الذاتية للمؤلف

- الدكتور المهندس خالد فائق صديق العبيدي.
- مواليد بغداد ١٩٦٤م.
- حاصل على شهادة البكولوريوس في الهندسة المدنية من كلية الهندسة- جامعة بغداد عام ١٩٨٥م.
- حاصل على شهادة الماجستير في الهندسة الإنشائية / منشآت حديدية- من قسم هندسة البناء والإنشاءات- الجامعة التكنلوجية ببغداد عام ١٩٩٠م.
- حاصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة الإنشائية / منشآت معلقة- من قسم هندسة البناء والإنشاءات- الجامعة التكنلوجية ببغداد عام ١٩٩٧م.
- له عدة بحوث في مجال الاختصاص منشورة في مجلات مرموقة داخل العراق وخارجه.
- مشترك في عدة مؤتمرات في مجال الاختصاص داخل العراق وخارجه.
- له عدة كتب في مجال الإعجاز القرآني بعضها منشورة داخل العراق وخارجه وأخرى قيد النشر.
- له عدة بحوث ومقالات في مجال الإعجاز القرآني منشورة في مجلات وصحف مرموقة داخل العراق وخارجه.
- مشترك في عدة مؤتمرات وندوات ومحاضرات في مجال الإعجاز القرآني داخل العراق.
- مشترك في عدة حلقات مرئية تتعلق بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم عرضت في محطات تلفازية محلية وأخرى فضائية عربية.
- عضو المؤتمر العام لنقابة المهندسين العراقيين- الدورة ٢٥- وعضو جمعية المهندسين العراقيين بدرجة استشاري.
- عضو الهيئة الاستشارية لمركز الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في الجامعة الإسلامية ببغداد.
- عضو الهيئة التدريسية في قسم هندسة البناء والإنشاءات- الجامعة التكنلوجية ببغداد، ومحاضر سابق في قسم الهندسة المدنية وقسم هندسة البيئة في كلية الهندسة -الجامعة المستنصرية ببغداد.
- مصمم واستشاري لأكثر من ١٨ عاماً في مشاريع مختلفة في العراق.
- متزوج ولله الحمد عنده ذرية.

فهرس المحتويات